مختارات روائية من السودان

الخرطوم نفر

سامي حجازي

مدونة أبو عبدو

رواية بالعامية السودانية

أبو عبدو البغل



سلسلة روايات من السودان

الخرطوم نفر

رواية

سامي حجازي

مومنت كتب رقمية™
لندن 2014

Khartoum Nafar
Sami Hegazi
First Edition
Copyright©2014
Moment Digibooks Limited™
United Kingdom
All rights reserved
The views and opinions expressed by the author do not represent the views, beliefs or opinions of Moment Digibooks Ltd Enterprises and its employees.
www.momentdigibooks.com
momet4books@gmail.com
http://www.lulu.com/spotlight/momentdigibooksltd
https://www.facebook.com/momentdigibooksl
Tel=00447476259012
Cover design: Moment
Photograph: Na Gi
هذا الكتاب مبنى ومعنى على مسؤولية المؤلفة ولا تتحمل مومنت كتب رقمية ولا العاملين بها ولا المنضوين تحتها أية تبعات تنجم عن ذلك.

إهداء أول

إلى أمي التي كافحت طويلا
ولم تشتكي من طول الطريق..
إلى أبي، طيّب الله ثراه..
إلى زوجتي العزيزة، وأبنائي الأعزاء
كونوا كما أشتهي وأتمنى

إهداء ثان

إلى كل الذين شجّعوني على النشر
ودفعوا بهذا العمل ليرى النور
محبتي ومودتي التى تعلمون

إهداء ثالث

إلي وطن يعشق الحرية وتعشقه
كن بخير كما أحب

الجزء الأول

عمّي إتسلّط على، ومقلبني، يومو الأصر إني أمشي أقعد معاهو في الخرطوم. أنا الخرطوم دي كنت قايلها حِلَّة(1) أكبر من حِلَّة ناس حمدان صاحبي البقرا معاي في المدرسة. لأنو حلتهم كانت كبيرة، أكبر بكتير من حلتنا. في حياتي غير الحلتين ديل أنا مما قمت من المعافرة والخمج ما شفت غيرهم. الخرطوم دي بسمع بيها سماع، أنا قايل بقطعولا بحر في الأول، تقوم بعد تعديهو كده تب تبقى مارقها في الحِلَّة الكبيرة البسموها الخرطوم دي.

بسمع عنها قصص كتيرة، لمّا نقعد بالليل في طرف الفريق مع عبد الرحيم وحمدان والدخين. يقوماك الدخين يحكي لينا القصص، أصلو أبوهو كان سواق لوري بمشي الخرطوم كتير. أكان النصيحة ولا الكضب، الزول بحكي لينا عنها حاجات كتيرة تمحّن والله. بتذكّر تالت يوم من جيّة عمّي من الخرطوم، بعد ما قضّى مشاغلو في الحِلَّة، وفتش سواقيهو وحوّاشاتو ونخيلو، وكان أبوي مافي برّة مع الزراعة، قام ناداني في الديوان:

– تعال يا جنا..

– أيوة يا عمّي!

– دحين إنت هسي مش تميت مدرستك؟

هي أصلو مدرسة واحدة في الحِلَّة، تقرا فيها تكمّل الأساس وخلاص، مافي زول تاني بواصل قراية. علا حمدان بتاع فريق تحت قال مودّينو حِلَّة تاني لا غادي، قالوا يقرالم فيها الثانوي. علا ما بعرفو بعدّاك يستفيد شنو؟ كل أولاد فريقنا ينتهوا من القراية يقعوا في الزراعة. أصلو الحوّاشات دي من أيام المدرسة بنشتغل فيها عادي مع العصيري بعد المدرسة ما تنتهي. والمدرسة دي أكان ما الجبرية، ما كان خششونا ليها ذاتو، بقولوا بنتعلملنا فيها حاجة حاجتين بعدينك بتنفعنا.

– أيوة يا عمّي..

- طيب يا جنا، أنا حأسوقك معاي الخرطوم..
- وأعمل شنو في الخرطوم يا عمّي؟..
- تواصل قرايتك يا ولد..
- قرايتي إنتهت يا عمّي، خلاص خلّصت مدرسة!..
- لا يا ولد، إنت يا دوبك إنتهيت من الأساس، لسّة باقي ليك الثانوي والجامعة!..
- جامعة؟..
وقال كدا وفكيت الضحكة، عمّي إتغاظ جدا..
- يا ولد!..
نهرني نهرة واحدة خلى كل شعرة فوق راسي المدوقس ده تقيف براها، وجسمي ده إتنفض وإتهزّ كلو إتلولح من تحت لا فوق زي المفراكي في حَلَّة(2) ملاح فرك. سكت ساكت. عمّي ده ما شفت منو شي، لكن بقولو لّمن يقوم عليهو بكفتك بأي شي قدّامو..
- أنا كلامي بضحّك؟!..
دنقرت خجلان وفي نفس الوكت مرعوب ولسّة بتهزّا:
- لا يا عمّي..
- عايز أعلّمك وتطلع راجل وتنفع أهلك، تعملها لي ضحك؟. يا ولد ما تشد حليك شويّة وركّز معاي كويّس.
- معليش يا عمّي!..
- هسي شوف، ما شاء الله أبوبكر الأكبر منك بشويّة ماشي تانية ثانوي، وأسماء بتّي خشت الجامعة. البنيّة شاطرة وبتقرالا في كلّيتن سمحي بالحيل، وعبد الرحمن ياهو القدرك وعايزك تقرا معاهو.
- خلاص يا عمّي البتشوفو، طيب وأبوي؟.. كيفن.. يـ
قاطعنّي:
- لا أبوك خَلْو علي، ما بيابا كلامي..
إتذكّرت كل حكاوي الدخين عن الخرطوم.
- أكان كده!، مافي كلام يا عمّي. القول قولك، يبقى يا الخرطوم جاك نفر!..

***

نفر، نفرين تلاتة، أخر تلاتة أنفار، بص الجِكو العامل زي كانون السرة، من جوّة مرمّد ومن برّة مقشّرة بوهيتو، إتملا لعين أمو. وأنا حاضن لي قفة وبقجي صغيروني تحت رجولي، وعاصر لي على عشرين ألف قريب مصراني. أمي الله يديها العافية، ودّعتني بالدموع وشيلتني قدر قدرتها. وفي النهاية عصرت على مصاريف البيت وطلّعت لي منها القريشات دي.

عيني وقعت على محمد أحمد الترابالي واقف في القيف الشمالي، لقيتو ببرم في شنبو وبعاين لي بعيون حمر زي الجمر. بدون ما أشعر إتضايرت على عمّي، محمد أحمد لا يوم الليلي كل ما أشوفو قلبي بضرب. أصلو زمان كنا عملنا فيهو مقلب في زمن الدميرة أنا والشلة، ولو ما ربنا لطف كان شافنا. وعندي إحساس إنو عارفنا ديل أنحنا، لكن بدور يكوس الأكيدة ساي الزول ده!.

لفحتني ريحة عمّي من تحت الجلابية، شميت فيها ريحة أبوي لمّا يرجع من الحواشة، لكنها ما ريحة مخلوطة بالتراب زي كل مرة. فيها ريحة تانية حلوة، ما عندنا زيها في الحِلَّة، غلبني أعرفها، بشمّها فيهو طوّالي لمّا يجينا البلد، أو لّمن يعلّق عراقيهو(3) في الديوان. يوم واحد ما شفتو بيتريح بيها، عندنا نسوان الحِلَّة بتلّمن يعملن الريحة بالّمناسبات، ومرات نفير ساكت. علا عمّي ريحتو دي ما بتشبهن، ريحة رجال رجال، لكن سمحتن بالحيل!.

أها، وأنا في باص الجكو، كنت عايز ناس الحِلَّة ديل كلهم يعرفوا أنا رايح الخرطوم. معاي عمّي مافي زولا يقدر يقول لي يا جنا يا مسخوت إنت المركّبك البص ده شنو يا فقر؟. أصلو المرّة دي مافي شعلقة في سلّم البص زي كل مرة، تراني قاعد متوهضّ ومحكرّ جوّة.

– تر كدا يا ولد!..

رفعت راسي، لقيت الحاجّة سكينة بت ضيف الله عايزة تقنب جمبي. بي جاي عمّي، وبي الناحية التانية لي ست النفر، ترّيت في المقعد إتلصقت في عمّي أكتر، وعاينت برّة هناك لقيت محمد أحمد الترابالي لسّة بحمّر لي، يا الله الزول ده مالو معاي هسي؟ لا بنحفرلنا في ترعي، لا بنعملنا في متاريس، لا بنحش لينا في شيتن، طيب حكايتو شنو؟.

فجأتن، حاجّة سكينة وقعت من فوق على صفحتي لحدي ما زردتني وكتمت نفسي، لكن البغم دي ما قلتها، أقول كيفن وأب شنب داك يحدر لي من بعيد، وأنا لصق عمّي اللسّة نهرتو بايتة معاي!

– إنت يا ود حليمة ماشي وين الليلي؟

عاينت للحاجّة وعاينت لعمّي، عمّي عمل نايم خلاّني للحاجة، وأنا بعرف الحاجة دي لو فتحت فيني نقة تاني ما بتسكت. عندها كنتين صغيروني في نص الحِلَّة، تلقّط فيهو خبارات الحِلَّة كلها، الولدت منو، العندها سماية منو، الطلّقوها، العرّسوها، مافي شي بفوت عليها، الرجال بخافو منها، إتذكّرت هسي ليه أب شنب فكاّني وقبل بعيد!. الدخين مرة قال لي شاف الحاجّة دي طالعة فوق حيطت ناس فاطنة بت علي تلقّط في الخبارات.

– أنا.. أنا يا خالتي، ماشي الخرطوم..

– يخلخل ضروسك، هسي أنا قدر خالتك؟

خالتي شن جابها في العمر لحجة سكينة؟ بس نقول شنو؟ أخير النسكت، لو الحاجّة قبّلت علي، يحلّني منّها الله، أها البص بدا يتحرك وصفيحو بقى يطقطق من جوّة زي المرق اليابس، بعد شويّة بقى يتهادى ويتمايل في القيزان والرملة زي بقرة ناس علوب في الطين. ومرة مرة التراب يجينا كاشح لا جوّة يقوم يغبّرنا، ويتوّر علينا النفس، ولمّا حاجّة سكينة تقح تتخجّ كلها متل القربة، وأنا زي اللبن الرايب بتاعها. والمكنة دي ممكونتن من الشيل التقيل والعفش المستّف زي القندول من فوق، ومكرّش من سخانة الجو، وصوت الكوز(4) المركبّو الجكو في مكنتو يناغم في الخلا زي الساعي مع غنمو.

أنا يا دوب دبّت فيني الحماسة بتعات الشفع ديك، حسيت بالمغامرة وقلبي بدا يضرب دل.. دل، ومع الحماسة العايزة تطير، طبعا عايز لي زولا أفتّها معاهو، وأبثّو شجوني، ولواعج قلبيي المشتهي السفر وشوفة الخرطوم. بس حاجّات ما معانا، بالذات لو بتاعين خبارات زي حجّة سكينة دي. قبّلت منها لا غادي على عمّي وإديتها جمبتي الإتهرت خج. وقعت عيني على أب شنب، الكترابة!. دحين الزول ده مسافر معانا؟، لقيتو قاعدلو فوق حفّاظة مويي بين الكراسي، طنّشت حنانو وإعتبرتو ليك زيو وزي أي غريب، إتغابيت فيهوالعرفة تب. نحن البص ده ما بتاع زول فينا، وترا مارقنا برّة الحِلَّة دي كلها، تاني واحد من المتسلطين ديل عندو معاي نقة مافي، و زول يقدر يفتح خشمو معاي وعمّي جمبي مافي، الحتة دي شريرة كيف. نفختني ليك كده، وخلتني أتبسّم براي زي نار القصب!.

إتمايلت، وإتنحنحت، عاينت لي عمّي وجمبتي على بتاعت الشمارات إياها، وصوتي مارق زي الهمس، زي وشوشة الهوا لمّا يمر وسط البرسيم:

– إنت يا عمّي؟

– أها؟

- قالو الخرطوم دي كبيرتن..
- القال ليك منو؟..
- الدخين صاحبي، أصلو أبوهو..
هنا إتدخلت حاجّة سكينة، المرة شكلها رامية أضانها، قبل ما تسمع الموضوع زي الناس، خشت إستملتو:
- الدخين ده!، أحيّا أنا منو، الولد ده أنا لو لميت فيهو!..
شكلها عايزة تواصل في الموضع وتديهو توم وشمار وأهميات من طريقة عصّيرها على الكلمّات، عاينت ليها مسافة، لقيت عمّي ذاتو كان بكحّل ليها، بعد شويّة قبّل منها لا غادي وطنشها ليك تاني نهائي. مع إنو الطنّيشة كيفتني في حناني، وريّحتني شديد، لأنو وش الحاجّة إتكرفس وإتعفّص وإتلولو، ولّع وطفى، والشلوخ ديلاك قفلن وتاني فتحن، وكلمة "بِس" مرقت منها بحرقة شديدة. حسيت بيها ما طلّعت كل الجوّاها في اللحظة ديك. لكن تاني قبّلت لا غادي بالمرّة كأننا ما جمبها ولا بتعرفنا، ومنها ومرقت برّة راسي وسفرتي نهائي!.
- يا عمّي، بدور أمشي جنينة الحيوانات..
- إنت من زمنها؟..
- مشت وين؟..الحيوانات ماتت؟..
- لا ما ماتت، علا طلقوهم لينا في السهلة..
- كيفن؟..
سكت تاني ما ردّ علي، وأنا ذاتي تاني ما إهتميت. سرحت بعيد بالشباك، كنا مرقناها برّة الحِلَّة، كل ما بص الجكو يهدّي في حفرة ولا مجرى، نقوماك نتعفّر زين بالتراب، يجينا كلو كابّي لينا جوّة. أها لّمن يمشي كويس، ويقوم يكسر مرة يمين ومرة شمال، ألقالك البص ده عاملو شريطا طويل وعريض من التراب والفرناغة من ورانا، ياهو ده ذاتو البلحقنا مرة مرة ويكشّحنا بيهو الجكو.
بعد نص ساعة كده، كنا خلاص ركبنا الزلط، وبقينا مقبلين جنوبيا على الخرطوم، أنا عارف إتجاها لا تحت، حدثوني بيها قبّال كده، بس ياها أول مرة لي، ماني تاني خابر شي من هنا لا قدّام. أول ما البص خلاص إستعدل، أشوفلكم الناس الجوّة جت عليها إستعدلت كمان، كل زول بقى يرازي يدور يفتش للنوم زي الجداد الضاربو هيم. أول شي، عمّي طوّالي تكل راسو وغطى وشيهو بالعمة، شويتين وبقى يشخر. أها كمان حجّة سكينة برضو إتلفحّت بالتوب وغطّت

وشّها، فضلت براي، لكن أنا ما عايز أنوم، بدور أتفرّج في الشارع، ماني عايز شيتن يفوتني.

بس كمان الشي شنو؟ الشارع خلا، شيتن يعاينو فيهو بالغلط مافي. إلا ترا ياهو الشجر والمزارع المبارية النيل من الحِلَّة لحدي هسي، مرات نقوم نقرّب منها ومرات نبعد لامن تبقى لينا رهاب رهاب، ولمّا أقبل على الناحية التانية شيتين يقع في العين غير حُجّار كبار مشتتة هنا وهناك مافي، واحد فيهم تامي ليهو جبل زي الناس مافي!.

أها أنا منتظر أشوف لي حاجة. لكن الشغلانية دي طوّلت شديد، خباركم؟ الخرطوم دي وين يا ناس؟ كل ما أشوف طرف بيوت ولا حِلَّة، أقول خلاص شكلنا وصلناها، لكن البص يروح معدي، وأدور أسأل زول، لكن مافي زول صاحي، الناس دي جت عليها تشخر لّمن زهجت خلاص، والّمناظر بقت لي شبه بعض، قمت غمّضت عيوني، تراني أنا ذاتي نعسان، لكن أنوم كيفن؟ غايتو مرّة أقبّل جاي، ومرة أقبّل جاي، في النهاية لقيت نفسي نمت وأنا ما جايب خبر.

أها قمت فجأة كده صحيت، أول شي ما عرفت نفسي وين. نسيت البص والسفر، نسيت كل شي، أتلفّت.. أتلفّت، ألقالكم البيوت غريبة ولصق بعض وشوارع وعربات وخلق..خلق، عمري ما شفت لي خلق قدر ديل، بس يوم الحشر، وجوطة وزحمة، يا ناس؟ النعلو دي ما الخرطوم بس؟.

كنت بتلفّت زي الغنماية، قمت إنتبهت فجأة لحاجّة سكينة، لقيتها بتعاين لي وبتصرصر، قرّبت أضحك، عرفت ليك طوّالي نفسي كنت نايم نوم تقيل لّمن مريّل، و وين؟ تراني كنت خاتي راسي فوق كتفها، بس أكلتها في حنانها، فوتتها لي المرة دي كيفن ماني خابر!.

***

هيي، أماني يا الخرطوم ما واسعتن وكبيرتن؟ الخلق دي تدافر فوق بعض، أم دفسو محل ما تقبل، ناس تكورك تبيع، و واحدين تانين ماسكين ليهم كيزان يضربوا بيها في باغات مليانة موية برّد..برّد، ريحة العوادم والغبار في الجو، والحمير الليلتهم مالا؟ كحياني وتعباني، الحمار مدنقر متحسّر، بس التقول طالق فيهو إسهال، غالبهم يعلفوهن؟ خبارن؟.

عمّي مسك شنطة من إيد ومسك يدي من إيد، إدلّينا من البص وعلى أقرب عربية صفرا من العربات المرصوصة رص زي علب الصلصة في كنتين حاجّة

سكينة، عمّي إتكل في الباب، وشو مع وش الزول البتاوق من جوّة محل السواق، وباقي لي عندهم نضمي بعرفوهو براهم، خليتهم في نضميهم وبقيت أعاين وأتلفّت، الحيرة كتلتني والجو خنقني، بقيت بدور المخارجة علا أقبل على وين؟ الناس دي عايشة كيفن في الكتمة دي ودخان العربات في السما زي حفر الدخان. إتذكّرت نيمتنا البرقد تحت ضلها، ولا النخلات في الزراعة هنوك لمّا أقيل تحتهم ولا أعدي بيهن الهجير، يلفحك الهمبريب ده لامن تنعس وتاخدلك غمّيضي تريّحك جوّة عضامك، والقمري يقوقي في فرع فوق راسك، و ود أبرق حايم جمب كرعيك يتعابط في عباطتو ديك، ويا كافي البلا وحايد المحن، شجرة ساي في الموقف ده مافي؟ نفضني صوت عمّي:

- تعال يا جنا أركب..

أدّوني المقعد الورا كلو براي، فتحت الباب لقيت مكتوب فيهو "تاكسي"، رميت قفّتي وبقجتي قدّامي، قال كده وأتمطيت، كرعي كانن مخدرات وتعبانات من الكلوجة إلليلت البص الهرانا هري الله يهراهو، حسيت فيهم باقي خدر، إتحسست صرّتي وفردت كرعيني وإستعدلت صفحتي العفّصتها لي حاجة مشاط بتاعت الخبارات ديك. مع السموم داك حسيت ليك بنفسي عايز أنوم تاني وماني قادر، جسمي كلو يضرب من التعب، يدغدغ فيني صوت التاكسي الهكر، يطلّعلو في أصوات غريبة، أصوات كتيرة مرّة عالية ومرّة واطية، ومرّة مرّة تسمع في الـ"كرج رج كع"، ولا كركرة كده طويلة ما تعرفها جاية من وين؟ وأشوف ليك بتاع التاكسي من ضهرو يعافرلو في شيتن تحت باين عليها شيتن قاسي تب، لأنو المعصعص(5) ده بقوم كلو وبقعد كلو، علا عمّي مستمتع معاهو في الونسة.

- قلت لي في زيادة في البنزين؟..

يرد عليهو بتاع التاكسي وأنا متابع:

- ومعاها زيادة في الجازولين والسكّر كمان..

- طيب لو الجازولين زاد معناها طوّالي مصاريف الزراعة حتزيد، والمحاصيل حتغلى..

طبعاً الجاز ده أنا بعرفلو تب، كنت بمشي بقيف كل يوم جمب البابور لمّا يدورو يدوّروهو عشان أشوف المعافرة وأسمع صوتو وهو بقوم، بتكيّفني حركة المنفلّة الليلتو، تلاقي الجماعة المعضّلين رابطين حبل طويل يلفوهو حولين طارتو الكبيرة ديك، وهاك يا شد، واحد إتنين تلاتة، وجرّة واحدة لحدي ما يبدا يتفتف، تف تف تف، أفضل كده لحدّي ما يدّور خلاص ويقوم براهو، صوتو ده أنا كنت

بسمعو من وين و وين؟ إيك، من مسافة بعيدة خلاص، بالذات بالليل، طوّالي نطيت على حيلي:

- أيّا والله، لّمن نكب الجاز، البابور ده فرد دويرة تاني ما بقيف إلا بعد ستة ساعات،

عمّي حدر لي حدرة غريبة ما فهمتو قاصد منها شنو، لكن بتاع التاكسي ظنيتو يا دوبك أتذكر إنو في بني أدم تاني قاعد في العربية دي ورا . قام مدّ يدو إستعدل بيها مراية عربيتو الجوانية وعاين لي بعيونو الحمر ديك زي الزول السكران:

- إسمك منو يا شاب؟..

أح، يا دوب في واحد فطن لي وإحترمني وقدّر مكانتي، وقال لي كمان يا شاب! ترا كانوا شابكننا يا جنا، ويا فقر، ويا الشنو ما بعرفو داك!. قمت إستعدلت كده في المقعد زي الزول المهم:

- إسمي حسين..

قلت إسمي بثقة ومبسوط من نفسي جنس إنبساطن، كده ساي بلا سبب، أكيد بتاع التاكسي قال الزول ده مو هين تب، وبفهم كويّس في شغلانية البابورات والجاز دي، الملاحظة الغريبة الّمن قبيل محتار فيها، عمّي كان بناضم كويّس، من متين لسانو إتغير؟ لسانو فجأة إتعوج كلو كلو، ونضميهو بقى زي نضمي ناس الخرطوم ديل واحد!.

***

الخرطوم للبجيها أول مرّة، ليها لون وطعم ورائحة ما بتتنسي تاني بسهولة، وده الحصل معاي وأنا خاشيها لأول مرة، كنت شغّال أتلفّت وأملا عيني وأتعجّب. وصلنا بيت عمّي مع العصيري نشيل ونرزع في أبواب التاكسي..دز..دز، الصوت ده تاني لا ورا سمعتو كتير وحفظتو عن ظهر قلب، وكل ما يجي زول من البلد بسمع صوت الأبواب دي، بعرفو طوّالي ده تاكسي، واللبعي ده ياهو لبعيهم، ومنو البتلقفهم لّمن يصلوا ويلقوهو ملصق في باب التاكسي قبل ما ينزّلوا عفشهم غيري؟ وقبل ما بتاع التاكسي ذاتو يفتح بابو بكون عفش البلد كلو إتدّلى في واطة الله دي، وأقوم أعتّلو براي جوّة البيت، حرّم..حرّم، دي كانت كلمّاتي المفضّلة!.

إستقبلتنا مرت عمّي النعّمة جمب الباب، سلّمت على سلام حلو خلاص، ذكّرتني أمي وخالاتي الحنان، وحسيت من البداية إني ما غريب:

– إزيك يا حسين، كبرت والله ما شاء الله تبارك الله، أخر مرة شفتك فيها كنت صغير شديد..

ختّيت لمرت عمّي النعمة إبتسامة كبيرة وعريضة، وبقيت أتكوشم براي، ميلّت راسي وعاينت وراها لا جوّة البيت، من قبيل نفسي أشوف البيوت المرصوصة بالطوب دي خنق فوق بعضها من جوّة بكون شكلها كيف؟ لمّا وقعت عيني على الحوش، وأنا بجلابيتي المغبرّة والوسخانة ديك، حسيت ليك إنو في حاجة غلط، ياخ أنا ما بشبه الناس ديل، لكن طردت الفكرة طوّالي من راسي لمّا إتذكّرت أولاد عمّي، ياخ مشتاق عايز أشوفهم، أصلو ما جونا البلد قبّال كده، تاوقت تاني، شفت الزهور في الأصايص، ونجيلة خدّرة في نصها في ممر، جنس ده ما قاعدين نشوفو إلا في صور المجلات، عمّتي صلّحت توبها، سلّمت على عمّي الكان حاسب بتاع التاكسي وخلاهو يمشي، دخلت قدّامهم البيت أتلّفت زي الطيرة، الزول لمّا يكون جديد ظاهر وباين، والعجب لمّا يكون جاي من البلد كمان! هيء هيء، أماني لكن ما عندي ليكم جنس قصص وحكاوي يا ناس الدخين، أرجوني بس خلّني النرجع ليكم!.

دخلنا ورا النعمة عمّتي في برندة باردة قدّامها حويش صغيروني كلو مفروش بالأسمنت، عمّي إنبرش طوّالي في أول سرير وفكا ليهو آهة طويلة بتاعت تعب، حسيت بيها مرقت من جوّة عضامو، أتاريهو كان تعبان شديد خلاص، عمّي ده زول كاضم خالص ما بنضم كتير.

باين النعمة مرت عمّي دي زولتن طيبانة جد، حبيتها وش من جوّة قلبي، بعد شويتين جاتنا من غير التوب شايلة ليها صينية فيها كبابي مُكان مليانات عصير أصفر، ضقتو لقيت طعمو حادق زي الليمون، لكنو أحلي و لذيذ خلاص.

– يا عمّتي؟..

– أيوة يا حسين..

– إنتي العصير ده بسمّوهو شنو؟..

عمّتي ضحكت ضحكة حلوة مليانة طيبة:

– ده إسمو عصير تانج يا حسين..

جغمت منو جغمة تانية كبيرة وقرطعتها بمزاج:

- عليكم أمان الله لكن ما حلو خلاص التانجو ده..

ضحكوا فيني، ما أشتغلت بيهم، كنت خايف أتلفت عليهم يقوم يروح مني طعم العصير، ولسّة الجغمة ما نزلت زي الناس، لقيت نفسي مرقت براي على حافة الكرسي الوهيض أب يدينا غلاد القاعد فيهو ماسك الكباية في يدي:

- يا عمّتي بدور أمشي قاعة الصداقة..

- وعايز تمشي قاعة الصداقة ليه؟..

- الدخين صحبي قال لي لمّا تصل الخرطوم لازمن تمشي قاعة الصداقة تشوف الهنود..

عمّتي ضحكت، وبقت تضحك من غير ما تقيف، عمّي كان بسمع في النضمي، عرفتو ليك برضو قاعد يضحك لكن بصوت مكتوم، لأنو السرير الراقد فيهو قعد يتهزا ويعمل ليهو في أصوات سكسكة غريبة، هو صحي الناس دي خبارا؟ مالا بتضحك فيني؟ لا ورا لمّن كنت بتذكّر اللحظات دي، وأتخيل منظري وأنا ماسك كبّاية العصير المنديّة وغاطس في الكرسي وعيوني مزغللة من التعب وغالبني النضم، لكن شفقة مني ساي وشلاقة، أنا ذاتي كنت بضحك.

***

أول يوم كان يوم عجيب، طوّالي نسيت ليك البلد وحوّاشاتها، نسيت ليك الزراعة ومتاريسها، حراتتها وتعبها، بابوراتها وترعها، نسيت أصحابي وأسمارنا ومشاغباتنا وبراءاتنا، نسيت كل شي، بقيت في حماسة الخرطوم، البلد المليانة بيوت وخلق وعربات دي، باين فيها دريبات كوتارات بدورن يتفلفلن زين ويتجاب خبرن.

لاقيت أولاد عمّي قريب المغربية، عرفت لا ورا إنو ناس البيت ديل كلهم بهجّوا عادي ويتلمّوا متأخرين، بخلّوا بس عمّتي النعمة في البيت، كل زول بشوف ليهو دريبات تانية ومراتع لحديت الواطة ما تمغرب، فكّرت أنا حا أمشي وين؟ ومرتعي حيكون في شنو؟ علا أولاد العم ديل فيهم شي ما راكب عدلو، ربنا يكضب الشينة، كدي النصبر والصباح رباح النشوف آخرتها.

بعد صلاة العشاء أنا كنت في سابع نومة، إترميت في السرير شبه مغبّي، ما قادر أفتح خشمي أتونّس مع زول ولا عارف حصل تاني واري شنو، مع النبّاه الأول فتّحت عيوني، قعدت مسافة أجمّع أنا وين؟ لقيت نفسي راقد في الحوش(6)، الجوامع دي فيها مكبرات صوت تخلع وتطّير القلب وتقلّك من السرير

قل، إتلفّت يمين شمال، الناس ديل ما لم ما بصحوا مع النبّاه؟ قلت يمكن نظامهم كده، يمكن مع النبّاه التاني يقوموا يلحقوا الصلاة، فضلت أتقلّب يمين شمال، النبّاه التاني أذّن، الناس دي خراتيت بس، زول إتقلب على صفحة مافي، حليلك آآبوي، هسي زمانك كنت بتلف فوق راسنا تمحِّطنا لو ما صحينا وقمنا على أباريقنا نشوف وضونا وصلاتنا بي وين.

حكمتو بالغة، في حلتنا عشان تمشي الزاوية دغش لازمن تخت بطاريتك الإشتراها ليك أبوك تحت العنقريب جمب العصاية، والإبريق قريب جمب فروة الصلاة بتاعت الحاج، أصلو البطّارية دي ضروري ولازمة، بالذات لمّا تمشي تفتش الموية في الجداول بالليل، والعصاية عشان لو لم فيك كلب تعرف تطقطقوا زين.

أها لمّا تصحى تكابس في الضلام تشق طريقك على الزاوية تلقى أعمامك الكبار وعيّالهم قدّامك فرشوا المفارش فوق الرملة و وزّعوا الفوانيس والرتاين بالأطراف، تسمع همهمة الحجّاج الكبار وطقيع حبات السبح، والتانين قاعدين صامتين أو بصلّوا في الرغيبة، تحس بالنفس يخش خياشيمك تقيل لكنو مبهج ومفرح ومنعش، تحس معاهو بالسعادة والنشاط. ومع الركعة التانية تسمع شقشقة أول عصفور قريب من الزاوية، تعرف طوّالي فلق الصباح لاح مع بشاير ضو أزرق خافت مخلوط بلون الليل الصافي يملا في عيونك، وشغّال يشتت ويبعثر في الضلام.

أما هنا، بالله مع تيست المؤذن، أوف..أوف، تقول المئذنتين عايزاتن يتلّبن ينطّن ليك في الحوش، نورهن براهو يجهر من بعيد يضوى الحوش كلو، وإزعاج الكلاب يصم الإضنين، يقطعوا قلبك يخلنّك تلاوز تمشي الجامع ذاتو. ناس عمّي ديل ما عندهم عصي باين، لكن أكيد تلاقيهم بكونوا من ناس أبوعشرة وأبو خمسة والخرطوش، هسي أنا أعمل شنو مع الكلاب دي؟.

***

– هي سجمي!.. حسين؟!..

وطوّالي طاخ، عمّتي ضربت صدرها بيدها اليمين، لقيت عيونها مقلّعة فوق حواجبينها، لمّا شفت منظر وشّها والحركة العملتها في صدرها بالصوت المرعب ده، خشّتني خوفة، قلبي عمل فررر، قام فوق دق في حلقي ونزل تحت ركبي وقام

تاني علّق في حلقي لامن منعني النضم ذاتو، بصوت مخنوق وخايف ومخلوع سألتها:

– في شنو يا عمّتي، المات منو، في خبر من البلد؟..

لمّا لقتني أنا في وادي تاني غير واديها، صرّت لي وشيها وغزّت يدينها في نصها وصوتها مرق حاد زي الحديّة:

– إنت يا ولد قاطع قلبنا عليك مالك؟ مشيت وين؟!..

– يا عمّتي في شنو؟ أنا حايم في الحِلَّة هني ما مشيت أي حتة!..

– في الحِلَّة وين يعني؟ وطلعت متين من البيت؟ أنا صاحية من الساعة ستة وإنت مافي!..

– يا عمّتي أنا صحيت بدري مشيت الجامع، وبعد الجامع لفّيت في الحِلَّة..

– عارف الساعة كم هسي؟..

سكتّ شويّة أفكّر وبعاين لوشيها اللسّة صاري..

– لأ..

– الساعة تسعة ونص!، أنا إفتكرتك ضعتا ولا حصلت ليك مصيبة، هسي كنا نقول لأمك وأبوك شنو؟!..

إنتبهت إنو الجابني راجع أصلا كان جوع بطني.

– معليش يا عمّتي، أنا لقيت البيت كلو نايم مشيت أصلي، ولفّيت شويّة في الحِلَّة وأظني نسيت روحي..

– خلاص طيِّب، خش جوّة صحي أخوانك ديل عشان تشربوا الشاي..

وأنا مخلوع جد جد:

– أصحيهم؟ هم لسّة نايمين؟!..

جيت مارق على الحوش، والسراير التلاتة تحت الضل ضاربهم الهواء ولا عليك بيهم، كل واحد ولا واحدة متلفّح ببطانية ولا توب زي شوال البامية، بعد ما الخلعة مرقت من عمّتي ومزاجها راق، ولقيتها فرصة عمّي مافي برّة البيت. أبو السريع دخلت المطبخ لفحت لي حَلَّة ألمونيوم كبيرة ومعاها يد كمشة جامدة، وكتلت ملف على أولاد عمّي وبت عمّي النايمين، وقبل ما عمّتي تفهم الحاصل شنو، كنت بكل قوتي بضرب في حَلَّة من المقاس الكبير، "كش كشو كش" بس النوبة جاتكم، بالله الناس دي التقول قيامتها قامت، أولن بت عمّي أسماء خلعة ساي فرد نطة واحدة إتنفضت ولقيتها إتلصقت في الحيطة زي الكديس، قرّبت أسألها إنتي يعني

عايزة تطلعي راس البيت خربشة حاف كده ولا كيف مثلا؟ لكن الضحك كاتلني وغالبني، وعمّتي وراي تضحك شرقانة من الضحك، عبد الرحمن عايز يبكي، أبوبكر الوحيد القام غضبان شال نعلاتو فناهن فيني، بعدّاك قام ساكيني لحدي ما شردت برّة خليت ليهو البيت.

***

لمّتنا بتاعت الشاي الصباح داك كانت لذيذة شديد، بقيت تاني أتكيّف ليها خالص، رغم إنو بقيت أشربو متأخر زيهم واحد، لكنّها كانت بتذكّرني بالبلد، أولاد عمّي ما بشربوا الشاي بالحليب، بشربوهو بلبن البدرة، بقولو اللّبن يعمل ليهم حساسية وما بستحملو ريحتو، دي كيف أنا ما عارفها، لكن ظنيتو بلدهم دي بتعمل حساسيات وإنتهابات كده كتيرة، أما أنا فأبى يقع لي الشي الزي دقيق الطاحونة ده نهائي، كمان قال بسموهو لبن بدرة، إنتو عينكم في اللبن ما تشربو إلا وهو معتّد؟.

عمّي تاني بقى يرتب لي رطل لبن مخصوص، رغم إني ما بدور لبن البقر، بحب لبن الغنم بس، لكن نقول شنو؟ الجبرية، برضو أحسن لي من اللبن العامل زي الملح ملح ده. أسماء مدلّعنها بسوما، وأبوبكر مدلّعنو ببكوري، وعبد الرحمن بعبدو، إلا أنا ياني حسين، وزولا كده فكرّ يدلعني مافي، يا ربي يكون إسم حسين ده ما بتدلّع ولا كيفن؟ لكن أنا ما برضو بدور أبقى خرطومي زيهم واحد وأتدلع كمان!. سوما بقولوا شاطرة، دخلت صيدلة الخرطوم، ظنيتو جامعة الخرطوم دي ما بدخلوها إلا الشطّار، بس فايتاني بالضعفة والنحافة بي غادي، تلبس ليها نضارات تحلف تقول العدسات واقفات براهن في الهوا قدّام عيونها، هي كلها على بعض ممكن الهواء يشيلها، لونها رايق زي لون المنقة في موسمها، وملامحها حلوة زي حلاوة المولد، غايتو مرات لمّا أزهج منها بقول ليها إتخارجي من قدّامي أحسن ليك يا القشة أم روح، لّمن لقيتها ما فاهمة القشة أم روح دي ذاتها هي شنو، إضطريت أقوم أشرحها ليها، قلت ليها القشة أم روح دي يا الغبيانة، حشرة عجيبة كده، ما بتعرفيها حشرة إلا تتحرك قدّامك فجأة، حتين بعدّاك بقت تزعل مني بجدّها. لكن بريدها شديد وزي العسل على قلبي، وهي كمان بتريدني ومستحيل ترجع من الجامعة ما تجيب لي معاها حاجة إن شاء الله حلاوة مصاصة.

بكري سمين ومدغلب زي البطة، وشو أبيض ومدوّر زي صحن الطلس، لمّن يمشي إلا يشيل نفس، كرّهتو ليك حياتو، بس ما يغيظني إلا أشبكو ليك، يا تختخ يا تخة يا نفيخة يا سمين، نحن اليوم كلو في العيك والعاك، وحالة كر وفر، أخلاقو ضيقتن قاعدالو في طرف نخرتو، وأنا لايوقن، وصراحة عايز أعمل خير في الولد، لو كل يوم خليتو يجري وراي شويّة يمكن يخس ولا يضعف بدل السمنة الشينة دي.

أما عبدو ده فألذ زول في الدنيا، فردة ومنقرضة، ياهو زولي وحبيبي، ود عمّي وزميل دراستي، مقالبنا كلها بنعملها مع بعض، أول ما جيتهم في البيت، صراحة الود كان ود ناس، لكن بعدّاك غايتو بقوا يقولو عليهو شرّامي وترّامي، والسبب كلو طبعا من حسين، الود الرقيّق الودود بتاع العيون المكسرة زي الزول القايم يادابو من النوم، والوشيش الوجيه ده، قالوا خربتو أنا وبقى مسخوت!.

***

أول إسبوع بس، محّنت فيني عمّي ومرت عمّي، كل يوم والتاني جاينا زول داقي الباب، كل واحد يشتكي لي لعمّي:

– يا حاج أحمد، ولدكم الإسمو حسين ده أمس داقي ولدي لمّن نزف دم من نخرينو..

عمّي بخلعة:

– يا حسين، يا ود يا حسين، تعال هنا ده!..

وأنا أجي جاري:

– أيوة يا عمّي..!

– تعال هنا يا ولد، إنت صحي دقيت ود عمك برعي ده وكببتو دم من نخرينو؟..

أنا أعاين لعمّي وأعاين لعم برعي:

– أيوة يا عمّي..

– ودقيتو ليه يا ولد؟..

– يا عمّي حسام ده عمل ليهو حركة كده..

وقمت مثلت ليهم الحركة، عمّي بقى يتضاير، وعم برعي إتخلع.

– بعدّاك قمت خمشتو من رقبتو، وأديتو بنية في نخرتو.. و..

عمّي حس بالحرج وحب يلم الموضوع سريع، ويتفاهم براهو مع عمك برعي بعد ما أنا أمشي:

- خلاص يا ولد يلا غور..

ما حصل يوم جا إشتكاني زول لعمّي على الرغم من كترتهم لقاني غلطان، نهائي ما كنت قاعد أغلط في زول، وما حصل يوم عمّي لامني كلو كلو، رغم إني مرات كتيرة بكون مكببهم دم، مرات مرات كده بحس تحت تحت، إنو عمّي بكون مبسوط. زي التراني بشوفها في عيونو لكن البغم دي ما بقولها، بس تلاقيهو صامت. بعد شويّة بقيت عامل ليهم رعب في الحِلَّة، مافي مشكلة إلا وأنا طرف فيها، وفي كل مشكلة تحصل بقوم بدس اسم عبدو وبطلّعو من الصورة عشان أبوهو ما يهبرو، وأشيل الشيلة براي.

إلا مرّة كنت في الشارع وشفت تلاتة شباب أكبر مني بشاغلو في سوما وهي نازلة من المواصلات وراجعة على البيت، مشيت نهرتهم، ولمّن لقوني ليك قليلوني وصغيروني وزي الجربوع قعدوا يضحكوا فيني ويستهزأوا بي.

سوما عارفاني أحمق وبنفعل سريع، بقت تهش فيني وتناديني عشان أتخارج معاها:

- يا حسين تعال، يلا يا حسين، قلت ليك يلا أرح..

وأنا مع الشباب أشاتم فيهم والمغصة كاتلاني وعايز أضارب، لمّن كتّروها قلت ليهم أبقوا رجال وإنتظروني.

"كاااك".. وفكّوا فيني ضحكة غيّاظة!. خليت سوما في الشارع وجريت البيت قدّامها، إتناولت لي عكّاز كارب كنت مدكّنو للظروف وجيتهم قالب، سوما لمّا شافتني قالب بالعكّاز قامت تسكلب، لكن السكلي ما عندها، سكلي حنين، دي السكليبة ولا بلاش؟!. نان ده هسي لو عندنا في البلد ما كان بمرق ليهو شافعن من وكرو ولا ست بيت من تُكُلها(7)، وقامت كدا وجرت على البيت، وأنا لسه مشتت وكاري عصايتي بالأرض وعجاجتي وكتاحتي قايمة وعلى الشباب عدل، أهلنا قالوا لينا لو عكّت، أركب في العالي، وأنا عارف من قبيل طرف عكّازي ده مفترض ينزل وين!.

عاينت لأكبر واحد فيهم، فيهو نفخة وعاجباهو روحو، وعامل فيها الزعيم وكبير الصعاليق، وقايلنى بلاوز ولا بكضّب ساي أو يمكن عايز أهرش بس. إنتظروني واقفين في حتتهم، جيتهم طاير وقال كده ورفعت عصايتي فوق وأديتها نطة عشان تنزل مظبوطة من فوق، وطاخ، ناولت ليك زعيمهم عكّاز كارب جاتو الضربة مدنكلة

في نص راصو، تاني صاحبنا ما شفتو ليك إلا الكضمة الياها، وقلّب عويناتو كده متل التور المضبوح، قامن دوّرن زي لساتك العربية لكن مقلّعات لا فوق، ومن طولو خرّ زي الجمل.

الإتنين التانين الكانو متحنفشين، لمّا شافوا المّنظر فكوا البيرك وجروا زي الترتيب، بقيت أنا بعاين للشاب الفارش واطة ودمّو بخر قدّامي، وأنا لسه غضبان ونفسي قايم وعيوني مولّعة زي الشرر:

– تاني تشاغل بت عمّي؟..

وزي ما مقتنع، أشيل وألكز فيهو بالعكّاز:

– تاني تشاغل بت عمّي؟ وهم، كرور..

فجأة يدّين جرتني من ورا أنا وعكّازي الإتنين سوا، عمّتي وسوما وبكري كلهم إتلمّوا حلقة حوليني، عمّتي تكورك وسوما وشيها مخطوف وترجف زي القصبة، بكري منطط عويناتو ويعاين لي بدهشة، إلا عبدو ماني شايفو في اللمة. بصوت حاد صرخت فيني عمّتي:

– سجمي، سجمي، يا حسين. عملت شنو؟ كتلت ود الناس!..

في الساعة ديك يادابها خشّتني خوفة، عارف الشاب ما مات لكن فكّرت لو مات حيحصل شنو؟ حيسجنوني؟ حيعدموني؟ أبوي وناس البلد يقولوا على شنو؟ وأمي؟ إيك، ما حتقعّدهم ليك تاني لحظة في البلد، حتكر الحِلّة كلها وتجيبها الخرطوم.

***

اللّمة ماشة تكبر كل مرة، والموضوع كبر، فجأة ظهر بوكس كُحلي راكبين فيهو ناس البوليس المّا بغبوني، مكتوب عليهو تلاتة تسعات واضحة وكبيرة، نطّو منو تلاتة عساكر كانوا راكبين ورا، ونزلوا إتنين تانين كانوا راكبين قدّام واحد منهم السوّاق، والتاني كان حاشر كابو تحت الشريط في كتفو وسأل:

– الحصل شنو يا جماعة؟ الزول ده الضربو منو؟ فيكم زول بعرف الشاب ده؟..

الناس كلها صنت وسكتت، وفيهم الهز راسو يسوي في اللأ، بعد شويّة كنا أنا والشاب في ضهر البوكس. الشاب ممدّد تحت على ضهرو يقند، وأنا قاعد جمبو مربّع يديني فوق ركبي، وعسكري ورا ضهري حارسني وماسك العصاية بتاعتي، والإتنين التانين قاعدين قدّامي عينهم ما نزلت مني لحظة:

– إنت يا جنا قدرت تضرب الزول الأكبر منك ده كيف؟ كدي أحكي لينا الحصل شنو؟..

وأنا ساكت ما عايز أرد.

– ما عايز ترد مش؟ بالله شوفوا الشويفع أب رويّس ده! أصبر لينا لمّا نصل القسم، اللّيلة تشوف النجوم عز الضهر!..

كان تهديد العسكري واضح زي الشمس دي نصت نهار، ما عايزة ليها فهم، إتذكّرت قلة أدب الشباب مع سوما، ركبت في راسي زيادة، إلا سوما دي اليحصل يحصل، قايلني بخاف ولا بخاف؟.

نزّلوا الشاب اللسّة مغبي في الحوادث مع عسكري، لقوا في جيبو بطاقة فيها عنوانو، شالوها معاهم، ومن هناك على القسم عدل. اليوم داك أول مرّة أعرف إنو القسم فيهو حبس، كنت قايل القسم ده بكون مكاتب وبس، يكون فيهو ترابيز كده يقعِّدوا فيها الضبّاط، ويكونوا العساكر ديل مشدودين في إنتباه طوّالي، وكل ما يجي ضابط مارّي يرفعوا ليهو يدينهم ويدقوا ليهم الواطة برجلينهم تحية عسكرية زي ما كنا بنعمل في البلد لمّا نلعب عساكر عساكر، وحتى لو قبضوا حرامي يدخل القسم في الأول عشان يسألوهو، حتين بعدّاك يودوهو السجن. أها كنت متخيل لمّن نخش القسم حيقعِّدونا في كراسي محترمين وحسيقوني موية، ولمّن يجيبوا الشاي للضابط يقول ليهم وين حق الزول ده؟ تاني لا في عسكري بقدر يسألك ولا في زول بهبشك.

لمّن نزلت من البوكس الواطة كانت مغربت وأنا لسّة ما صليت، بي يميني عسكري وشمالي عسكري وفي واحد ماشي وراي، أظنهم متخيلنّي حأقوم جاري ولا شي، الزول القبيل قال لي أصبر داك كان ماشي قدّامنا، شايل ليهو كلاشنكوف مدلدل بإهمال بي يدو اليمين، مكفكف أكمامو لحدي فوق الضراعات، نحيفوني زيبي لكن طويل وأكبر مني في السن، وعندو نقزة كده في المشية بعملها لمّن يرفع رجلو اليمين زي الزول البرقص.

أول ما دخلنا القسم بقيت أتلفّت، أول مرّة أخش لي قسم بوليس في حياتي، أول شي جاني إحساس ما مريح نهائي، ريحة القسم كريهتن تحس بي نفسك كأنك بتشم ريحة مجرمين مجرمين ولا شنوما عارف، حاجة كده ما بتقدر تنساها تاني، زي لمّا تمشي المستشفي تلقى نفسك حفظت ريحة المطهّر، وتكره أي حتة تانية تشم فيها ريحة مطهّر، بس ياهو نفس الشعور. مشينا دغري لحدّي ما وقفنا قدّام تربيزة وسط لا هي كبيرة ولا هي صغيرة، مدقوق فوق ليها على الحيطة،

لوحة بالأبيض واللبني الفاتح، مكتوب فيها "البلاغات" بي خط عرض وشين، الزول البنقز ضغطني من كتفي قال لي أقيف هنا، خلاني واقف قدّام البلاغات ومشى يسلّم على صحبانو زي كأنو راجع من دافوري مع الفرد، قرقرة وونسة وضحك، وأنا أعاين ليهو لحدّي ما في النهاية شحد منهم سفّة صعوط(8)، مسك السفّة وتكلها.

فجأة سمعت حركة جمب المكتب، عاينت كان في باب حديد بي طبلة كبيرة، كنت لمحتو أوّل ما جيت خاشي، لكن ما لفت إنتباهي، أظن إفتكرت الحتة مخزن ولا حاجة بالذات مع الضلّمة، أها لمّن ركزّت، أشوف ليك يدّين ماسكة السيخ من جوّة، بعد شويّة أشوف ليك جوز عيون، بسم الله!.

الناس البسملت منهم ديل بعد شويّة لقيت نفسي مجدوع في نصهم، لمّا عيوني بدت تتعود على الضلام زي الكديس، لأنو ناس القسم كانوا ما شغالين بالحتة دي تنور ولا تضلم، ما مهم، لقيت في تلاتة أولاد قدرى تقريبا وتاني في أربعة، تلاتة رجال كبار وشاب شكلو أكبر مني شويّة، أو صبي ما قادر أحدد في الضلام، أها قمت سلّمت على أول ولد جمبي، عرفت إنو إسمو ليدو، أسئلتي ما وقفت لكن بعد شويّة الأسئلة قلبت ونسة، ونستنا هي الحاجة الوحيدة الكانت سمحة في الضلام داك!.

عرفت من ليدو إنو بسمّوهم الشماشة، والشماشة فيهم أولاد وبنات ومرّات شفّع صغار، ممكن إتنين يعرسوا بعض يجيبوا جنا، مرات يجيبو جنا بدون عرس ذاتو، ليدو قال لي:"بت زي ده ينوم مع ناس كتار". مشيّت الموضوع لأني ما فهمت حاجة، أو ما عايز أفهم ذاتو طالمّا فيها نوم ولد مع بت، دي عيب ياخ!.

كانت حالتهم بتحنن، على الضوء البسيط الخاشي على غرفة الحبس بدل يقوم شارد بإتجاه الحرية، كنت قادر أشوف هدومهم المقطّعة، وصحتهم التعبانة، أها قمت سألت ليدو الدخّلهم السجن شنو؟ يعني عملوا شنو؟ قال لي مرات بنخش السجن لأننا بنكون سرقنا، ومرات بنخشو لأنو الناس مرات ما بتدورنا. قلت ليهو ما بدوروكم كيف يعني؟ قال لي مرات بس يخافوا مننا، يقوموا يدّوا البوليس قروش عشان يطفِّشنا، وسألتو إنتو ساكنين وين؟ قال لي في السوق.

في الأول كان التفاهم صعب مع ليدو، عندهم كلمّات كده صعبة، وصعب تعرف معناها بسهولة مرات إلا تسأل، أول كلمة عرفتها كانت "الرّج"، ودي معناها الحبس، وتاني "الطارة" ودي معناها البوليس أو الكشّة، وتاني "المجازفة" وعندها

كم معنّي منها النشل أو المحاولة الخطرة، ونضميهم ده ذاتو لا ورا عرفت عندو اسم بقولولو "الرندوك".

لحدّي ما الساعة عملت إتناشر بالليل حتين أخيرا عمّي قدر "يجازفني" يا قول ليدو ويمرقني من القسم، لقيت ناس الحِلّة ملمومين ومعاهم ناس كده ما بعرفهم، وقالوا كان في لمّة زيها في المستشفى كان فيها ناس عمّي وناس من الحِلّة برضو ومن أهل الشاب المفلوق، ده كلو ما كنت شغال بيهو، كان همّي كلو أطلّع ناس ليدو وصحبانو كيف من القسم؟ كنت وعدتو إنو ما حأخليهم وحأطلعهم من الحبس، بس كيف؟ إستأذنت من عمّي برّاحة ورجعت لمكتب الضبّاط أسأل منهم، كان في ضابط صغير أول مرة أشوفو مساهر مع العساكر في القسم، شكلو جا متأخر لأنو ما شفتو قبل كده، دقيت ليهو الباب، أشّر لي إتفضل، قمت طوّالي سألتو ناس ليدو ديل أطلّعهم كيف؟.

هو صراحة كان ظريف، أو يمكن بالو كان رايق، بدا يسألني في الأول إنت بتعرفهم من وين؟ وعرفتهم كيف؟ وحاجات زي دي، لكنو ما إتبايخ معاي زي ما العساكر كانوا بيتبايخو، عرفت إنو مفتوح فيهم بلاغات. وزي ناس ليدو ديل مافي زول بضمنهم في الغالب لحدّي ما يحولوهم الصباح لقسم تاني تخصصو صبيان وأطفال صغار عندو إسم كده براهو، قلت ليهو طيب بعملو ليهم شنو هناك؟ قال لي ديلاك ناس متخصصين في الصغار ديل وبعرفوا يتعاملوا معاهم، المهم لو عايز أتصرّف وأخارجهم، مفترض أعمل الحاجة دي قبل الساعة إتناشر ظهر اليوم التاني، سألتو السؤال الأهم، وهو المطلوب مني شنو؟ عاين لي مسافة، أظنو شكّ أقدر أفهمو، قال لي عندكم محامي في العائلة؟ قلت ليهو لأ، قمت إتذكّرت فجأة إبراهيم المحامي في الحِلّة، قلت ليهو لكن عندنا محامي في الحِلّة، قال لي بس خلاص، أمشي أحكي ليهو الكلام القلتو ليك ده كلو وهو حيفهم ويعرف يعمل شنو!.

اليوم داك عمّي أول مرة يجلدني، هبرني هبر الجن، طلع مدكّن ليهو سوط عنج قديم قدم، أظنو ليهو عشرين سنة ما شاف شمس، وما شم ليهو ريحة زيت بالغلط، لمّن جلدو مكرّمش. قدر ما حاولت عمّتي تخش في النص تحامي لي، إلا عمّي كان بنهرها كل مرة تزح بعيد، لمّن الشغلانية سخنت معاي، بقيت أصرّخ بطول حسي. والغريبة زول من الجيران قال كدي النشوف الحاصل شنو مافي رغم إنها كانت واحدة ونص صباحا، ديل أصلو ما عليهم تكل. ولا ناس مروّة،

بكوري وعبدو واقفين بعيد يعاينو في الجلد، ما راضين لكن ما قادرين يقولو شي، سوما واقفة جمبهم دموعها نازلة مطر من سكات.

***

الحسنة الوحيدة من اليوم داك ولحدّي ما الإجازة إنتهت ودخلنا المدرسة، مافي زول تاني شاغل سوما نهائي، ولا في زول كان بقرّب من عبدو برضو، ومافي زول بقل أدبو في الحِلَّة على أولاد حاج أحمد، بالعكس يا زول أخر إحترامات، إحترامات كميات كده من الصغار والكبار، ولصقو ليك فيني كمية من الألقاب، مرّة حسّو، ومرّة الراستا، إنتو راسكم ما يجي إلا كده؟.

تاني يوم صحيت متأخر وقمت بعد تلتلة من السرير، معسّم على الآخر وجسمي كلو كان بينتح من الألم، عمّي يدو ناشفة ياخ هبرني هبر الجن، ريحتى زيت زيت والملاية كلها مبقعّة، لو ما عمّتي مسحّت جسمي كلو بزيت السمسم ما كان قدرت أنوم ذاتو، البيت صاني الجماعة كلهم مافيشين، سامع صوت كركبة من جهة المطبخ، دي أكيد عمّتي، لمّا مشيت أخدت لي دش وإتسوّكت وجيت، لقيتها ختت لي صينية الشاي فيها ثيرموس وكباية وملعقة وسكرية وصندوق بسكويت، والملاية إتغيرت بملاية مكوية سيف تشيل هم تقعد ولا ترقد فيها تقوم تخرب المّنظر.

ختيت ملعقتين سكر وبديت أكب في شاي اللبن، أكيد اللبّاني جا الصباح زي عوايدو لكن المرّة دي ما صحيت بيهو، بتكون عمّتي إستلمت منو الرطل. إتخيلتو نقنق ليها زي كل مرة "رطل واحد بس؟ ما عايزين زيادة؟"، ما قادر يفهم الرطل الواحد ده ذاتو في تلتلة، أها بديت أسوط في الكباية، عمّتي جات داخلة:

- صباح الخير..
- صباح النور عمّتي..
- أصبحت كيف؟..
- كويّس أنا، مافي عوجة تب!..

نان هي العوجة دي تاني كيفنِّها؟ قلتها في سري، لكن بدور أجامل عمّتي ساي لله.

- ما عايزاك تزعل من عمك يا حسين..
- مافي سبب يخليني أزعل منو يا عمّتي، عمّي زي أبوي واحد..

إنبسطت كده من كلامي و وشيها فرهد بعد غمة حسيتها فيهو..

– بالمّناسبة، سوما وصّتتني أصبّح عليك، كانت عايزة تنتظرك لمّا تصحى وتطمئن عليك، لكن عندها محاضرة صباحية مهمة ما قدرت تقعد..

– الله يخليها بت عمّي دي، دايما حنينة. لكن أقول ليك قول يا عمّتي؟ لو تاني لحق زول شاغلها والله برضو ما بسيبهو.

ضحكت بعفوية:

– دمّك حار يا حسين، لكن دي برضو حماقة منك، الولد ده كان ممكن يموت على يدّك، المهم هسي عمك مرق من الصباح مشى يطمئن عليهم في المستشفي ويرجع..

كنت خلّصت الشاي بالبسكويت، قمت أستأذن منها:

– عمّتي!، ماشي مشوار قريب في الحِلَّة وراجع..

– ماشي وين؟..

– لا قريب ما تخافي ما بتأخر، بس مشوار مهم لازم أعملو..

رضت بعد تلتلة، ما فكّتني إلا بعد ما وعدتها ما أخش في أي مشكلة أو شكلة تاني. أديتها كلمتي وإتخارجت، كان في بالي أصحابي التلاتة المرزوعين في "الرج"!.

***

"كو.. كو.. كو"، دقيت باب الشارع بتاع ناس المحامي إبراهيم خيري المعظمو يخيل لي حاجة كده زي البلاستيك الشفاف، بيتو على بعد شارعين من بيت ناس عمّي، بس قادر الله، البيت عبارة عن فيلا زي ما بقولوا أولاد الحِلَّة من طابقين لونها أخضر فاتح تدي فيها ربك العجب، والحيطة من برّة عالية ماخدة نفس اللون.

صنّة، مافي حركة، تاني كررت الدقة، المرة دي ضرباتي كانت شديدة وقوية، جاني صوت زول جاي من جوّة بعربي مكسّر:

– أيوة، أيوة، مين؟..

والصوت مقرّب من الباب، سامع صوت برطعة نعلات.

– حسين..

– حسين مين؟..

بدا الباب يكركب وإنفتحت ضلفة، ظهر زول عجوز أخضراني باين عليهو الغفير.

– السلام عليكم..

– وعليكم السلام، عايز شنو يا ولد؟..

– عايز إبراهيم..

– إبراهيم منو يا ولد؟ قول أستاذ إبراهيم، عم إبراهيم، إبراهيم ده قدرك ولا قاعد يلعب معاك في الشارع؟ بعدين ما شايف الجرس المعلق فوق ده؟..

يا الله أنا من اللمّاضة، هسي الزول ده أرد عليهو؟..

– خلاص ياخ عايز أستاذ إبراهيم..

– وعايزو لشنو؟..

أنا بزهج ونرفزة المرة دي:

– ياخ إنت مالك؟ قلت ليك عايزو، وعايزو ضروري جدا كمان، عندي ليهو وصية مهمة شديد..

فكّرت في الحنك ده سريع وإلا ما حأتفك من لئامة الغفير دي وما حينادي لي المحامي، عاين لي من فوق لتحت زي المّا مقتنع، لكن في النهاية قام حسم أمرو:

– خلاص إنتظر هنا..

خلاّني واقف قبلي ودخل على البيت، لكن كان خلى لي باب الشارع متاكي، عاينت جوّة قلت في نفسي يا سلام!، بالله شوفوا الحدّيقة دي عاملة كيفن؟ منسّقة بشكل مبالغ فيهو، ريحة النجيلة زي ريحة الدعاش، باين الغفير كان بسقي فيها لمّن دقيت عليهو الباب، وعربية المحامي بتلمع من النضافة، وجمبها جردل وفوطة وبواقي موية على البلاط، طوّالي سألت روحي، زي الغفير ده بياخد كم؟ بعد شويّة الغفير جا راجع بيرطع تاني:

– تعال معاي..

بدون أي كلمة باريت الغفير لحدّي ما دخّلني صالون كبير عريض و وهيض، هدوء تام، جو بقولو عليهو شنو؟ جو فول مدنكل بالجبنة وزيت السمسم! خلاّني الغفير براي بعد ما أشّر لي على كنبة:

– إنتظر هنا..

قعدت على الكنبة، الجو ينعّس، تراهو الصالون نص مضلّم، لا تعرفو صالون ولا أوضت نوم، رفعت راسي عاينت للساعة المعلّقة في الحيطة، كانت عاملة عشرة

صباحا. بعد شويّة سمعت صوت نحنحة، وزول جاي على الصالون. لمّا ظهر المحامي، مثّلت الدور وعملت فيها الود خرطومي وتفتيحة على الأخر، قلت في نفسي هسي لو عرفني جاي من البلد يمكن يطنّشني أو ما حيشتغل بي الشغلة.

– إزيك يا إبني..

ياخي باين عليهو راجل لطيف و ظريف المحامي ده، إتذكّرت حواري مع الغفير، قمت على حيلي وقبضت إيدو الممدودة شديد وسلّمت عليهو بحرارة. طبعا بعد ما ختيت لي إبتسامة حدّها الضرس، ما الود ظريف وكده:

– السلام عليكم يا أستاذ إبراهيم!..

***

بديت أرغي للمحامي بحماس، وأحكي ليهو عن تفاصيل الأولاد المساكين ديل، وأنا شغال ليهو.."كان شفتهم، كانوا حنّنوا قلبك، ديل أولاد مساكين". وهو شغال لي "أيوة، أها، وبعدين؟ طيب! أيوا، لا كويّس والله"..

خلاّني أرغي زين لحدّي ما كمّلت كلامي كلو، وبقيت قاعد أعاين ليهو أتبسّم زي نار القصب، أول سؤال سألني ليهو:

– هو بالله ده إنت الأمس عملت الشكلة وحبسوك في القسم؟ يعني إنت ود ناس حاج أحمد الجاي من البلد صاح؟..

ياخي هسي الزول ده الجاب ليهو سيرة شكلة ولا حبس منو؟ الناس دي خبارا مالا شمشارة كده؟ حتى ناس الفلل الكنت فاكرهم راقين، طلعوا زينا واحد؟ ياخ كل الموضوع جيت أسألو بس يساعد لي صحباني وبس!.

غايتو بعد قعدة كده معاهو، لا كانت بالطويلة ولا هي بالقصيرة، حاجة بين بين، وكان هو في معظمها مستمع، في النهاية أخد ليهو صنّة كده وعاين برّة في الغفير الحايم في النجيلة قبل ما يقول لي:

– شوف يا إبني، المحامي الشاطر ما بقول بتغلبني حتى لو ما عارف يحلّها كيف في نفس اللحظة، وموضوعك ده أبسط من بسيط، لكن هل عندك فكرة عن أتعاب المحامي؟ هل إنت جاهز تدفع؟..

كان زي البكلم نفسو في الأول، لكن لما جا في حتة "تدفع" طوّالي سألتو:

– أدفع شنو؟ قروش؟!..

–طبعا يا إبني..

نضميهو بقى لي كبار كبار، ويمكن يودّرني في الكلام، محامي شاطر وبتاع، كدي خلينا في المهم، قصة قروش دي ساهلة وقعت لي تب! بس دي ذاتها كانت رايحة علي، أنا هسي أجيب ليهو قروش من وين؟ أشحد مثلا؟ لا..لا، دي أصلو ما بعملها أكان كسروا لي رقبتي دي، لكن قلت كدي النسأل من باب العلم:

– كم يا أستاذ؟..

– يعني، في الأول بنشيل منك شويّة مصاريف للورق والخطابات الرسمية، غايتو كلها على بعض بتعمل ليها حوالي تلتمية لأربعمّية جنيه كده!..

طبعاً ولا قلت ليهو البغم، كضمت وبحلقت عيوني وأنا بعاين ليهو، كيف؟ معقولة؟. هسي أجيب ليهو مبلغ زي ده من وين؟ لكن المشكلة ما عندي أي خيار تاني ولا زول غيرو، لازمن أحنكّو يعني لازمن أحنكّو، ما بقدر أخلي صحباني الجداد ديل محبوسين في "الرج".

في الأخير المحامي قبل بعد لجلجة ومحاحاة، كان بيدخل لي بي هنا ويمرق لي من هنا، وأنا مرة أحنّس ومرة أحنّك ومرات الإتنين نسكت نصنصن، تعّبني جنس تعب، لكن في النهاية وصلت معاهو لإتفاق.

قبيل لمّن جيت دقيت الباب، كنت قايل الشغلانية ساهلة، حنك حنكين سنان سريعات مع تمثيلية بارعة، تقوم تقسّم في المحامي وتشيل فيهو، لأ وكمان نقوم نشد عربيتو السنينة دي سوا نمشي نفك الحلوين ديل مع بعض حنية وإنسانية ساي منو لله لله.

لكنو طلع محنّك وهو الكسبان، وعشان يعمل لي الشغلانية دي، حأشتغل ليهو جنايني بالمجّان لمدة شهرين، بالذات بعد ما عرفني جاي من البلد و ود مزارعين وكده، طلعت أنا الداقس، لكن في النهاية صحباني حيكونوا حُريّن، وده هو الكان مهم بالنسبة لي في اللحظات ديك.

***

– يا عمّك ياخ..

واحد من فِردي الجدد شدّاني من قميصي من ورا، فرحت جنس فرح لمّا سمعت صوتو، إتلفت لقيتو ياهو ذاتو ليدو الما بغباني، بنفس هيأتو وملابسو الوسخانات ديلاك، ورداهو المشرّط وخرايط التراب من وشو لحدّي ساقينو وكرعينو الحفيانة تحت. دوّشوني لحدّي ما لميت فيهم، لأ عشان ما أخاف الكضب هم اللمّو فيني، قدر ما باريت وصفهم الأدوني ليهو في الحبس نهائي ما لميت فيهم، حمت

السوق ده شارعين شارعين حولين وصفهم ما لميت فيهم، لمّن شكيت في نفسي وقلت يمكن خايفين منِّي وتاني ما حيظهروا ولا حأشوفهم:

– وين إنتو ياخ؟ دوّختوني لي ساعة بفتش عليكم؟..

– وين يا أصلي!، تعال أكتل معانا ملف من هنا..

كتلت معاهو الملف زي ما طلب، بعد شويّة دخلنا في زقاق ضيق بين عمارتين وأنا مباريهو، الزقاق ده ليه ما شفتو أنا؟ إنتهينا من الزقاق، كتل ليهو ملف تاني زي ما بقول، لفّيت وراهو لحدّي ما فجأة لقيتو مافي، بسم الله!، وقفت محتار أتلفّت، يعني بلعتو الواطة ولا كيفن؟ الود إختفى وين فجعتن؟ مرقني صوتو تاني من حيرتي، بعد ما طلّع راسو من تحت كبري في الشارع، أتاريهو محشور جوّة خور، إتلفّت يمين شمال، وتوش إنزغمت معاهو جوّة الخور!.

– ديشاك، ده شنو ده؟ وديل منو ديل يا ليدو؟..

كنت بسألو عن ستة محشورين معاهو تحت الكبري في خور مضلّم، بعد ما عيوني إتعودت الضلام، قدرت أميز فيهم صحبان ليدو الإتنين الكانو معانا في الحبس، أما الباقين فكانوا ماخدين راحتهم على الأخر ما إشتغلوا بي الشغلة، كان فيهم بتين كمان.

– ديل الفرد يا أصلي..

– فردك؟ فرد يعني شنو، أهلك؟ أصحابك؟..

– نحنا كلنا أهل يا أصلي..

يلا، أصلي..أصلي، أصلو ما فارقة. لمّا رجعت البيت نص النهار، كان شكلي عجيب وكرعيني مخرخرات زي كرعين ليدو وصحبانو بالضبط، ويا دوب راسي بدا يرجع طبيعي بعد شفيط السِلِس(9)، وماسكني صداع صداع، عايز يشق لي راسي نصين ويطير نافوخي، الكويّسة إنو مافي زول بلاقيك نص النهار في البيت، وعمّتي بتكون نايمة زي الوكت ده، طوّالي إحترمت نفسي وإنقشطت في الحمام أخدت لي دش كارب طيّر لي الكوفير.

***

حاجتين عملو لي دريبات وتخريمات، جنينة المحامي، وفرد الخور البقو يثقوا فيني ثقة عمّياء، وإعتبروني واحد منهم، وكل ما ألقى طريقة بقيت أمشي ليهم شايل معاي حاجة، مرة عيش ناشف، مرة كسرة بايتة، بواقي الأكل. عمّتي بقت تستغرب لمّا لقتني مهتمي بمضايرة السفرة كل مرة، بعد شويّة بقى الموضوع

عادي، وكل ما تحن علي وتلكز سوما عشان تبدّلني، كنت بصر شديد، أصلو دي فرقتي الوحيدة أشيل فيها بواقي الأكل قبل ما تترمي أو تمشي الكوشة.

بس بعد جربّت السلسيون زي تلاتة أربعة مرات، وقّفتو براي وإعتذرت ليهم، أصلو ما كان عاجبني من الأول، فكّرت أجربو ساي، وبرضو خليت الحشّير والنزول تحت الخور، بقيت لمّا أجيهم بقعد في ضل حيطة جمبهم، يقوموا يجاملوني ويمرقوا لي برّة، ونقعد نتونس، ألقى الناس بتعاين ليهم وتعاين لي معاهم بي نظرة غريبة، وأحيانا بإشمئزاز، ومرات ولا حتى بجيبو خبرنا، أو زي كأننا ما موجودين، نهائي ما كنت شغال ليك بيهم الشغلة، حريقة فيهم، وأصلا ناس ليدو هم ذاتهم طبيعي ما شغالين بالناس.

أخر أيام الصياعة والعطلة بقت زهج وملل، كمّلت الحوامة واللف. ما كان مصبّرني عليها إلا المدرسة البقت خلاص فينا وش، هي نفسها المدرسة الكنت في يوم من الأيام لا عامل ليها حساب ولا يحزنون لو لا عمّي وإصرارو، ولا قايل نفسي حأواصل وأخش الثانوي في يوم من الأيام، لكن بعد قعدتي باقي إجازتي في الخرطوم، بقت عادي ولا كأنو الزول ده ما كان حاريها، بقيت منتظرها زيي وزي غيري الفي سنِّي.

حتى ناس بيتنا كلهم في الحِلَّة الكانو متيقنين تخلص من الأساس يا جنا، وتشق دربك في الحوّاشات، ياها الراجياك، أبوك يظبِّط ليك حمارة كاربة تمشي بيها السوق الصباح تبيع البرسيم، وتشوف حاجاتك الناقصة وتطلّب الله، تتعلم الحساب ومسك القريشات، وحش الحوّاشات وتبقى مسؤول براك، تقلّب أرضك، وتنوِّع زرعك حسب مواسمك، ترفع مويتك وتختار تقاويك وتخزِّنها للموسم، ياها شغلانية الحِلَّة كلها من الأزل، بالمسا تقوم تزوغ من أبوك تمشي النادي، تلعب كشتينة مع أولاد الحِلَّة، تسرق كم سفّة صعوط من حقة عمك بخيت ولا سلامة الأطرش، لحدّي الساعة عشرة تجي قالب تشوف عنقريبك بي وين عشان تتخمد تنوم لي يوم تاني جديد.

أظنو الحنين للبلد، لي يومين متذكّرها شديد، شادّاني، بقيت أخش من أوضة لأوضة، ماسكني قلق ما عارف أعمل شنو، بفكّر يا ربي بلقى فرصة أنط سريع البلد وأرجع قبل المدرسة بيوم؟ المدرسة خلاص باقي عليها أيام بسيطة، عمّي برضى؟ أقول ليهو شنو؟ وأنا حايم دخلت الصالون عدم شغلة، إتلفّت يمين شمال، سوما قاعدة بتذاكر في ركن، البنيّة دي أصلو ما بتطمِّن، الشي شنو؟ القراية

القدر ده شين لزومها اللمّن يقدقدوا ليها العوينات دي؟ طيب ما ليها حق تلبسلها نضارة؟!.

عاينت وراها ركزّت على المكتبة، كل مرة كنت بمر بيها مرور الكرام، شايفها زيها وزي الكنبة واحد، يعني عبارة عن قطعة أثاث بس ما أكتر، منها منظر ومنها لامة كتب عمّي الكتيرة دي، ما شايف فيها أي شي جاذب بالنسبة لي، وأنا كمان مالي ومال الكتب؟ هو أنا ناقص؟ بس مع الزهجة، لمّا عاينت للمكتبة قلت يمكن ألقى لي كتاب مصوّر ولا مجلة مصوّرة أقضّي بيها وكت لحد الواطة ما تبرد، أقوم بعدّاك أمشي أدق لي كفر مع أولاد الحِلَّة قبل ما أمشي على جنينة أستاذ إبراهيم المحامي بالمرّة أديها طلة كمان قبل المغارب.

أول كتاب وقع في يدي كان إسمو موسم الهجرة إلي الشمال، قلّبت ورقو فررر زي الكشتينة، وعايز أفننو أشوف لي شوفة غيرو لمن لقيتو ناشف بلا صور. عايز لي حاجة فيها فايدة تكون مليانة صور، بس في أخر لحظة رن في نهاية راسي جرس، أنا سمعت الإسم ده وين قبل كده؟ قمت برّاحة مسكت الكتاب وبديت أقلّبو، شمار ساي مني وكده، بعد شويّة قمت جرّيت لي كرسي وقعدت أقلّب فيهو، قبل ما أمسك الصفحة الأولى وأبدا أقرا. ما أديت سوما أي إهتمام لمّا رفعت راسها تعاين لي بإستغراب، بعد شويّة الكرسي بقت لي قعدتو حارّة ومملة وأنا منسجم مع الرواية، قمت مشيت الكنبة ورقدت فيها بمزاج وأنا مندمج بشكل غريب، والقصّة كل ما ليها ماشة تشدني أكتر وأكتر، عوالم من الدهشة كانت بين السطور.

أنا عمري كلو بقرا كتب مدرسة بس، حتى كتب أبوي في مكتبتو الصغيرة الفيها كتب تفاسير وكتب دينية تانية ما بجي جمبها، والجرايد دي حدّي معاها اللفوفة، كان بالغت بلف لي فيها حاجة للزوادة، يا لفيت فيها غرضا تاني، ولأنو قرايتي كانت بطئية، قضيت يومي داك لحدّي بالليل بقرا، ما عارف سوما مرقت متين، ينادوني للغدا، أتغدى وأرجع أقرا، واصلت بحالتي دي لحدّي تاني يوم وتالت يوم ورابع يوم لمّن خلّصت الكتاب في خامس يوم، الوحيدة الكانت مبسوطة مني للأخر هي عمّتي، والما كان مبسوط مني نهائي هو إبراهيم المحامي الجا دقّ لي الباب خامس يوم.

لكن المسألة دي كان ليها مفعول زي مفعول السحر في نفسي، حسيت بيها حاجة تانية خالص، زي كأني سافرت بعيد، بعيد، وجيت راجع تاني، وفي سفري

ده كنت بطير مرات وبحلّق بالخيال فوق السحاب، وبسرح بي لي مدن في حتات تانية بعيدة خلاص، القصّة فيها جاذبية عجيبة، الزول ده كتّابن، وحكّاين!.

لكن ما بس كتابتو الشيّقة الكانت شادّاني، كنت بحس في وجه شبه، كنت بلقى حاجاتي جوّة القصّة دي، حتي النخلة جمب الشبّاك، كانت واقفة هناك صامدة شاهدة علي ولادتي، وأكيد هسي منتظراني أرجع، بس الأكيدة، ما عندنا زولا ممكن يمد يدّو بالشباك يبعبص في موية النيل، هو الفيضان بدينا فرقة؟ لكن ده الكان شادّيني ليها أكتر من أي شي تاني، أها التجربة دي كشفت لي نهم مدفون، جوع من نوع خاص، رغبة في القراية، رغبة ملحة إني أقرا تاني وتالت ورابع، أصلو ما أقيف. من ديك ومكتبة عمّي جاها بلا، بقيت نادر ما أمشي أتسكّع بعيد منها، وهي ذاتها ما شاء الله تبارك الله، كان فيها كل الكتب المفترض إني أقراها من الأول، حسب إفتراضي بعدّاك. لكن أول شي عملتو، تميت المجموعة الكاملة بتاعت الطيب صالح، حتين قبّلت على غيرو. لمّا فتحت المدرسة، كنت حاسي إنو تفكيري إتغير، قرايتي الخراجية كان ليها تأثير واضح وكبير، وبان تأثيرها وقتي.

***

– يا حسين، أبوي بناديك..

جاني صوت عبدو اللطخ من جهة المطبخ، أصلو ما ممكن يسيبني مستمخ، كنت ماسك لي كتاب بقرا فيهو بمزاج، لكن خلاص طار لي:

– حاضر يا عبدو جاي..

علمّت الصفحة الكنت بقرا فيها وقفلت الكتاب ولزيتو تحت المخدة. لقيت عمّي قاعدلو قعدة سمحي بالحيل مع عمّتي النعمة، تحس بيهم صحبان وفرد ياقول الفرد، كانوا يتبسّموا براهم، باين الونسة كانت دقاقة، خفت أقطعها ليهم من حلاتها. قدّامهم على التربيزة صينية صغيرة فيها كم فنجان جبنة، عمّي ماسك واحد مليان للنص قريب خشمو وبناضم في عمّتي، إضطريت قطعت عليهم ونستهم الرايقة دي:

– صباح الخير يا عمّي، صباح الخير عمّتي..

إتلفتو على مبتسمين، ولسّة عمّي ماسك فنجانو:

– صباح الخير يا حسين، أمشي ألبس عايزك تمشي معاي الدكان..

دي أول مرة عمّي يعزمني فيها معاهو للدكان، عارفو تاجر قديم ومشهور في السوق العربي، لكن ما حصل يوم مشيت ناحية دكّانو ده نهائي ولا حتى فكّرت فيهو، بدون أي إعتراض مني:

- حاضر يا عمّي..

الشي شنو؟ إيه يا حسين، بقيت مهذّب ومؤدّب و ود ناس، شي صباح الخير، وشي حاضر، لو إستمريت بالحالة دي ياني تاني ماني مارق إلا متمسّح ومتلمّع كمان. أديت عمّتي نظرة إمتنان قبل ما أتخارج، رجعت لسريري لفحت الكتاب من تحت المخدة وما نسيت أشد الملاية قبل ما أخت الكتاب في مكانو في المكتبة، أبو الذوق ذاتو!.

عمّتي دي بتحب النضافة والنظام شديد، وبتخلي البيت كلو يرقش براهو زي حَلَّة الألمونيوم المجلِنّها، صحيح تعّبتها أول أيام جدا، كنت سبهللي ومتعب بصورة ما عادية، قادر أتخيّل. كنت بجدِّع هديماتي ونعلاتي محل ما يكون، أفنجط وأبرطع في السراير زي الشفع، بالأخص سراير الياي في الحوش، كانت بالنسبة لي عجيبة، لمّن نفضت لي كم ياي، إضطريت في النهاية أمشي أفتش لي زردية وأصلحهم بطريقتي قبل ما عمّتي تكتشفهم وتقوم تزعل مني.

ما ناسي أول يومين لي في الخرطوم لمّا جيت راجع قريب المغارب بعد ما عملت لي نبلة، لأ ما كده وبس، كمان علّمت أولاد الحِلَّة يعملو نبل، ومرقنا نكابس في شجر الحِلَّة ننيش في الطيور من طرف، مع الحماسة ديك جيت خاشي البيت بي براطيشي المليانة طين وتراب، وأي فرشة في البيت جلبطتها بالطين وأنا شايل لي جوز طيور فرحان بيهم.

من ديك إتعلمت لمّا تجي راجع البيت أول شي تمشي تستحمى وما تنسى تقلع نعلاتك برّة، وبرضو طيور في البيت ما معانا، والنبلة سلاح خطير ممنوع في البيت ده. كان في جنس قوانين وكبت حريات، طبعا الكلام ده كلو بعد تغسّل الفرشات الجلبطها كلها برّة في الحوش، وتفرشها في سراير الحدّيد تحت الشمس.

عمّي لمّن جا مارق من باب البيت، لقاني منتظرو جمب باب العربية، فتح باب البوكس وقال لي أركب، في الطريق بقى يتونس معاي ويسألني عن أحوالي وقعدتي في الخرطوم، إستفدت منها شنو وهل أنا مشتاق للبلد ولا ما مشتاق ليها؟ أتونّس معاي في كل شي إلا مشواري معاهو ده عايزني في الدكان ليه؟ ما قال لي عنو أي شي، وأنا ما سألتو.

لمّا وصلنا الدكان وفتحناهو سوا جا صبي شغال مع عمّي بقى ينفّض فيهو، الولد كان تقريبا قدري أو أصغر مني بشويّة، عمّي قال ليهو عاين لي معاك للدكان أنا مارق وجاي، سألت نفسي الولد ده منو؟ وما دام عمّي محتاج لزول معاهو في الدكان ليه ما بسوق واحد من أولادو خاصة وإنهم مؤجزين؟.

باريت عمّي، لفينا مربوع الدكاكين كلو بي ورا و وقفنا في الدكان التاني، برّة في البرندة كان قاعد ترزي، لمّا شاف عمّي قام على حيلو وسلّم عليهو سلام معرفة:

– أهلا وسهلا يا حاج أحمد، كيف حالك وأحوالك وكيف العيال وأمهم؟..

– بخير يا أدم، كيفك إنت وكيف عيالك؟..

– بخير والله يا ياحاج، فضلة خيرك، الأخبار؟..

– كلو تمام والحمد لله، بس عايزك تجيه لي حسين ولدي ده..

باين عم أدم الترزي كان بعرف أولاد عمّي كلهم، لأنو عاين لي بحيرة، قبل ما عمّي يفكّها ليهو:

– لا، حسين ده ود أخوي جانا من البلد ليهو فترة قاعد معانا..

– أها، أهلا وسهلا يا حسين يا ولدي، كيف البلد وناس البلد الطيبين؟ وكيف إجازتك في الخرطوم؟..

أنا همهمت بنضم كده أنا ذاتي ماني فارزو، عمّي واصل بدلي:

– حسين حيواصل قرايتو معانا هنا، عشان كده جيناك وعايزك تشيل مقاسو وتظبّت ليهو لبستين للمدرسة..

كان الإحتجاج واضح علي وش عم أدم:

– لكن يا حاج أحمد زي ما شايف الحبل الوراي ده، دي كلها إلتزامات مدارس وجيتوني متأخرين شديد، خايف ما ألحّقها ليهو قبل ما ينزل..

– معليش يا أدم يا أخوي، عارف جيناك متأخرين لكن عارفك برضو ما بتقصّر..

إبتسم عم أدم، شكلو الكلام ريحو، يخيل لي العلاقة بيناتهم هو وعمّي قديمة وبعرفو بعض كويّس من سنين، عم أدم رغم إنو ما عندو لي فرقة، لكن بكل أريحية وكأنو ما إحتج قبل شويّة، جاني شايل المتر وبدا ياخد لي في المقاسات.

– خلاص يا حاج أحمد، أنا بحاول بأي طريقة ألحّقها ليهو، خيرك واصل يا سيدي..

عمّي شكرو ورجعنا تاني بإتجاه الدكان. لمّا رجعنا، الود كان إنتهي من النفّيض وبقى يمسح في الأرضية، إنتظرناهو برّة لحدّي ما خلّص نضافتو والغبار راق شويّة حتين بعدّاك دخلنا، خلانا دخلنا وإنسل برّاحة مرق. شويتين جا راجع شايل ليهو حفّاظة موية نضيفة تنقط من برّة، ومعاها كوز ختّاهو من فوق ليها، وقلب تاني عايز يطلع برّة الدكان، وأنا متابعو ومركز معاهو، والشمار خلاص كتلني، عايز أعرف ده منو المشغّلو عمّي ده؟ هدومو بسيطة لكنها نضيفة، ملامح وشيهو لطيفة وبتقول إنو ود رايق ومسكين، قبل ما يطلع برّة الدكان، عمّي ناداهو:

– تعال يا أمين سلّم على حسين أخوك ده..

يكون عمّي لاحظ لي مركز معاهو؟ أمين جا راجع علينا..

– حسين ده ود أخوي يا أمين..

بدون أي تعبير، و وش جامد، مدّ أمين يدّو وسلّم علي بصوت مبحوح، صوت زي المّارقلو من جركانة زيت فاضية، تاني قبّل غادي وشتت بسرعة وخفة زي ود الغزال.

***

دكاّن عمّي واسع فيهو تربيزة كبيرة زي المكتب بقعد وراها في كرسي وهيض بُنّي جلدو باهت ومشقق، المكتب كلو مقبّل على الشارع، وعلى يمينو مكيّف موية مبرّد الجو وملطفو. الدكان الواسع ده كلو فاضي إلا من عينات مشتتة كده بتاعت بضاعة هنا وهناك، عرفت منو إنو ده دكان إجمالي، لكن عندو مخزن قريب فيهو البضاعة.

الدكان ما بفضى، حركة الناس البتخش وبتمرق كتيرة، ومعظمهم بعرفوا عمّي، ومرات كده صوتهم يعلا بالونسة والضحك، ومرات يتكلموا بصوت واطي، دحين النضمي الكتير ده كلو ما شفت لي زول فيهم مرقلو قريشات رصاهن فوق راس المكتب ده.

قدّام المكتب كرسيين أنا قاعد في واحد منّهم، لمّا يجي أكتر من زول بضطر أقوم وأمشي أقعد في شوال هناك قريب الركن لحدّي ما يتخارجوا، والود أمين دايما قريب، في ناس معيّنين لمّن يجوا عمّي بديهو إشارة، أمين فللي يجري يجيب الشاي ويجي.

لمّن جات الساعة عشرة ونص، عصافير بطني زغردت، ومصاريني عوّعت، قبل ما أنضم أمين كان شايل ليهو صحن كبير فيهو فول مجيه جنس جيهة، زيت

السمسم طافح بي فوق يقول يا ليل، والجبّنة والطعميّة والبصل الأبيض، أح خلاني أريّل، أمين ده الله يخليهو، بس التقول شغال زي الساعة أم زمبرك، أكان قلت ليهو ولا ما قلت ليهو، عندو وزنة ما بتجلِّي. فضّينا راس المكتب وقعدنا كلنا نضرب في صحن الفول المجيه وأمين ذاتو معانا، وكل ما يجي زول مارّي، عمّي يناديهو يفطر معانا يقوم يعتذر ويواصل طريقو، عيوني إتملت دموع من حرورية الشطة الخضرا، قالوا نوعها صعب خلاص مسمّنها إعدام محمود محمد طه. زولا مثير للجدل، كنت محظوظ وقريت عنو ما إحتجت أسأل هو منّو.

إنتهينا من فطورنا، بعد شويّة أمين جابلنا الشاي برضو براهو من غير زول يقول ليهو، بعد شربت الشاي مرقت برّة الدكان، لقيت أمين قاعد في كرسي مطرّف جمب الباب، فركت يديني برّاحة بخبث، آن آوان فلفلة الشمار وإحسان السحن، لمّن قرّبت منو كان عايز يقوم لي من الكرسي، أبيت نهائي، قلت ليهو أقعد قبلك بس تُرْ لي جمبك، حجمنا الإتنين قريبات من بعض، والإتنين الكرسي بشيلنا.

- إنت من وين يا أمين؟..

بنفس الصوت الطالع من جركانة الزيت بتاع قبيل:

- أنا من مايو..

مايو دي سامع بيها بس إتجاهها على وين ماني خابر، لكن أفتكر شيتن بعيدة كده، إحترمت نفسي وتجاهلت جهلي وتابعت:

- بتقرا في المدرسة؟..
- أيوة..
- في سنة كم؟..
- نازل تامنة..
- يعني ممتحن السنة دي؟..
- أيوة..

وأنا لسّة مواصل التحقيق وعايز أصل لراس الشمار والود تاعبني برد قدر السؤال بس:

- شغال مع عمّي من متين؟..
- دي السنة التالتة..
- تلاتة سنوات؟..

– أيوة..

– ولم فيك وين؟ ولا لميت فيهو كيف؟

– زمان عمّي الحاج قال لأمّي خلي ولدك يجي يشتغل معاي في الدكان..

– أمّك؟..

– أيوة..

– عمّي بعرف أمّك من وين؟ وإنتو قلت لي ساكنين وين؟ مايو؟..

– أيوة مايو، أمي بتعمل شاي في الشارع التاني داك..

قام أشرّ على إتجاه الشارع التاني، إتحرجت أسألو الشاي ده بجيبو منها ولا لأ..

لكنو واصل براهو المرّة دي:

– لكن لمّا قال ليها الكلام ده كان قالوا ليها لمّا جانا في البيت ما هنا..

– في البيت؟..

– أيوة، عمّي الحاج بجينا البيت مرة في الشهر، بجيب لينا حاجات الشهر كلها ويشوف باقي أخواني وأخواتي الفي المدارس محتاجين لشنو، أمي بتقول ما مقصّر معانا، من بعد أبوي ما إتوفى تاني ما خلاّنا نحتاج لحاجة وبعاملنا زي أولادو!..

أمين كان بقول في باقي كلامو ومدنقر راسو، تمتمت ليهو بصوت واطي:

– الله يرحمو..

هنا تاني غلبني النضم، إتأثرت شديد بكلامو، من ناحية حنّني ومن ناحية تانية عمّي كبر في نظري، أنا متأكد أولادو ما عارفين القصّة دي، والله أعلم عمّتي عندها فكرة ولا لأ!.

***

يخيّل لي عم أدم الترزي إتقطّع عشان يخلّص لي هدوم المدرسة في مواعيدها، لمّن قشرت بيها اليوم داك حسيت بإحساس مختلف، كان زول مبدّع بجد، عبدو أتاريهو كانت هدومو جاهزة من بدري، أما بكوري السمين ده زول قديم بس، هدومو كانت من السنة الفاتت، ما كان خاشي معانا في المولد، كلنا كنا شايلين شنط وكراسات وأقلام جديدة، وكمان معاها مصروف جيب، عمّي الله يخليهو، اليوم القبليها ساقنا كلنا بالعربية مشينا إشترينا حاجات المدرسة، وفي

الصباح وصلّنا، بعد نزلنا عبدو قال لي أصلو أول يوم كده، نظامو معانا يوصلنا المدارس أول يوم بس، بعدّاك حنرجع بطريقتنا، وتاني كل يوم حنمشي ونرجع من المدرسة برانا.

المدرسة ما بعيدة من البيت، بتتمشي كدّارى بس عايزة الزول ينكرب ليها بدري شويّة، لمّن دخلت المدرسة بقيت أتلفّت، المدرسة حكومية مشهورة وفيها كمية من الطلبة، كمية من الجوطة والإزعاج، الأولاد كلهم بعرفوا بعض وبيسلّموا على بعض بعد ما إتفرّقوا في فترة الإجازة. والداخلنها جداد زينا ديل تلاقيهم يتلفّتوا يمين وشمال براهم زي الضهب.

بعد يومين بس كسرت الحواجز، وبقيت أفرّد في الطلبة من طرف، عبدو في الأول كان شاميني، ما قادر يسنجم رغم إنو أخوهو الأكبر منو في نفس المدرسة، بقى حاسي بي زي البعتو، وأنا ما شغال كتير ببكوري، لكن بعد شويّة لمّا إنتبهت لعبدو بقيت أجرو ليك معاي أعرفّو بالغصب على صحباني الجداد لحدّي ما إندمج معانا شويّة شويّة.

في ظرف إسبوع واحد عملت لي شلة محترمة، معارف خرطوميين كتارات، والمدرسة لامة، فيها جنس شي، فيهم نوعية من الأولاد تلقاهم لامعين براهم زي الترتر، أنا ما عارف لمعتهم دي خلقة، ولا من الغذا يا قول حبوبتي، ولا الأولاد ديل بعملوا شي زي البنّوت؟.

في الأول كنت كاشي منهم، أصلو من قمنا قالولنا الناشف ما ببقا طري، والببقا طري ما بندار، بعد قرّبت منهم شويّة، لقيت فيهم أولاد قلبهم حار زي النار، عندهم راي زين وسمح بالحيل، اليشوفهم من برّة ما يشوفهم من جوّة، مع إنو فيهم كتيرين أخير تختا دربهم تب!.

وحتى الأساتذة بقوا يعرفوني ويفرزوني من بعيد، أكتر زول جايط في الفصول دي كنت أنا، وأول زول إتجلد في المدرسة دي كلها كنت أنا، من أول يومين كنت عملت لي شكلة مع ولد متحنفش، شايفنا دقدق وصغار عايز يفرد فينا أنا وعبدو أخوي عضلاتو، طوّالي ولا كضبت، نطيت في رقبتو وجبتو أرضا، بعد داك بقيت طالع من فوق ليهو وبناولو في البنج، في الأول حاول يسترجل وياكلها في حنانو ويقاوم، بعد شويّة لمّا لقاني مواصل في ضربو غلبو، وبقى يصرخ يفتش في المخارجة، ويعمل في الواي بأعلى صوتو، وأنا على الغتاتة العلي كمان أصلو أبيت أرحمو، زي ديل إلا تديهم العين الحمرا من الأول، وقولة واي دي كويّسة معاي لأنها بتكسر عينو، تاني نهائي ما برفعها علي ولا على غيري.

بسبب المشكلة دي جلدوني في طابور الصباح قدّام المدرسة كلها زي درس كده للطلبة بحضور الناظر، وبرضو لزوم هرشة للطلاّب مع بداية السنة الجديدة، لكن منو البشتغل بيهم؟ يا زول خلّهم، أهم شي الزول يظبّط سمعتو ويتحكّر كويّس في المدرسة أوّل بأوّل، الحاجات دي لا بعرف لها ناظر ولا مدرّس!.

***

المدرسة كل ما ليها كانت ماشة معاي زي الحلاوة، بقيت أصحى ليها من بدري صحيان زول مشتاق عشان يلاقي شلتو، وأقوم أصحّي معاي الشباب الكسلانيين ديل عشان نقطع المشوار ونصل بدري، أخ لو بس كانت بدون أساتذة، كانت حتبقى حاجة إنتيكة، ديل عاملين كده زي الهم في القلب ياخ، التقول ما جاين يقرّونا، جايين مخصوص بس عشان يعكّروا لينا دمّنا ويكرّهونا. كل يوم إختبار إختبار هرونا هري بإختباراتهم المسيخة دي، تلقاهم هسي مبسوطين شايفننا معذّبين بالقراية والهم، أوع بس يكونوا قاصدين يبرمجوا بينا عشان ما نلقى فرقة نتونس ولا ندق لينا كفر في الحِلَّة مع العصريات؟!.

أها من إختبار لإختبار، لقينا نفسنا وش في إمتحانات الفترة، يا الله عدّيناها متشوقين للإجازة والنوم رغم إنها قصيرة، كنت منتظر الإجازة دي بفارغ الصبر عايز أنزل فيها البلد أمشي أشوف أمي وأبوي، صادفت الإجازة جيّة خالي عبدالقادر للخرطوم، أها لو في زول فردة جد جد، ياهو خالي ده، أصلو علاقتنا مع بعض زي الأصحاب رغم إنو أكبر مني بكتير، خالي كان وضعو كويّس ومتعلم علام جامعي، بس ما بحب يجي الخرطوم كتير، كان قاري زراعة وعندو مشروع ممتاز جمب النيل، بعيد شويّة من حلتنا لكنّو ما بحوّجنا نقطع ليهو البحر.

ناس حلتنا كان بتكلموا كتير عن مشروعو، بقولوا مشروعو عموما بشبه زراعتنا في البلد لكنو عندو نظريات غريبة بطبقها براهو من راسو، شيتن ما وقعت ليهم في نافوخهم ده نهائي بس كمان الصراحة كان بحاول كتير يساعد ناس الحِلَّة في تحسين زراعتهم، مرّات بالنصيحة ساي ومرات يجيب ليهم أنواع غريبة من السماد ما بعرفوها ولا شافوها قبّال كده، كان معظمهم راسهم قوي وبرفضوها بفظاظة بقولوا زراعتنا دي ياها الورثناها من جدود أجدانا وبنزرعبها من يومنا ما ممكن نخليها أو نغيرها. والمّا برفضوا تلاقيهم بجاملوهو ساي يقولوا ليهو خلاص تمام حنجرّب بعدّاك يشيلوا السماد ويمشوا يرموهو بعيد، خالي

أصلو ما كان بزعل منهم، والحِلّة ضيّقة والخبارات بتصل، لمّا يجينا في الحِلّة ويسمع عملوا شنوا في سمادو يقعد يضحك.

هم عينهم في إنتاجية خالي شكلها كيف وكل ما ليها ماشة لا قدّام، وإنتاجو ماشي زايد، وعينات محاصيلو ما بتشبه الليلت محاصيلنا كلها على بعضها في الحِلَّة، حتى خضارو شكلو مختلف وطعمو مختلف، رغم كده حارنين وحالفين يمين ما يغيرو شي، لامن في النهاية قنع منهم وخلاهم بي راحتهم.

***

رغم إنو المرّة دي خالي إنقطع كتير من الخرطوم، وظنّيتو لو ما الشديد القوي ما كان جا ذاتو، بعرفو كويّس أنا، أصلو ما بحب الخرطوم، لكنو جا نزل مخصوص مع ناس عمّي عشاني، وجا في وكت مناسب معاي شديد، عارفو زول تفتيحة ومقدقد الخرطوم دي كويّس وما حيقصّر معاي نهائي، وفعلا، قلّعت هدوم المدرسة من هنا، وجدعت الكتب والأقلام، وإتفرغت ليهو وبقيت مباريهو محل ما يقبّل زي ضنبو.

الأيام القضاها في الخرطوم كلها كنت معاهو، كل ما نخلص من شغلانية يقول لي أها الليلة البرنامج وين؟ أول برنامج كان قاعة الصداقة، حلمي القديم، إتشعبطت ليهو في رقبتو، قلت ليهو يا خالي بس القاعة، لازمن القاعة. هي الصراحة كانت تجربة مدهشة، أصلو ما إتصورتها كده، لامن تبقى داخل تلاقي نفسك في عالم تاني، قاعة كبيرة واسعة عمري ما شفت شيتن زيها، أول شي يضربك هوا لطيف لطافة ما عادية، وبارد، لا هو بشبه الدعاش ولا هو شبه جو الشتا. قعدت أجرجر منو النفس وار النفس زي البقرة البتدور تلد، الهواء مش بارد ومنعش وبس، لأ وكمان فيهو ريحة حلوة حلاة ما عادية، بعد تملا خياشيمك زين تقوم تحس بيهو وصل جلدك.

أها بعدّاك بقينا محشورين في صف ضيق فيهو كراسي قماش عجيبة، أول مرة أشوف زيها، وإنت خاشي جمباي تلاقي الكراسي مرصوصة مصنقعة لا فوق في السما، إحترت في الأول يقعدوا فيها كيفن، صنصنت أتلفّت في القاعة لحدّي ما شفت خالي سحب ليهو كرسي وقعد، قال لي مالك واقف؟ قلت ليهو لا مافي شي، كنت خلاص عرفت بعملوها كيف، جريت كرسي الجن أب يايي وقعدت.

قدّامي هنوك شايفلي شيتن يشبه المسرح بي ستاير وحيطة من جوّة بيضا واسعة، خالي قال لي القاعة دي بتشتغل مسرح وسينما، أول مرة أعرف إنها بتشتغل مسرح كنت قايلها سينما بس، فضل يشرح لي ويونس فيني لحدّي ما الأنوار طفت والسينما إشتغلت، الفيلم كان هندى زي ما وصوني، نص الفلم كنت مسورح، من جوّة مبسوط وأتلّفت في القاعة، أها بعدّاك من نص الفلم بقيت أرجف زي القصبة، الشي شنو؟ بالله التقول حاشرننا جوّة تلاجة، وإتزنقت بول لحدّي حلقي، صبرت على زنقتى ديك خجلت أحدّث خالي، لمّا الفلم إنتهي غلبي وقمت كلمتو، أول شي أدّاني شكلة مدنكلة، قال لي تاني أوعك تحبس، بتضر كلوينك.

بعدّاك بقينا مرات نمشي مشاوير لأصحابو أو نمشي نتفسّح في شارع النيل، كنا بنشرب شاي الصباح في البيت، مصروفي بتاع رطل اللبن اليومي كان بكفينا الإتين، أما فطورنا وغدانا وعشانا ذاتو مرات بصادف يكون برّة البيت، شفت حتات ومطاعم عجيبة، لو ما خالي ما كنت حتى سمعت بيها أو شفتها، لمّن بقى خلاص على السفر، أها أخليهو؟ طوّالي كرّبت شنطتي الصغيرة الإشتراها لي قبل كم يوم في حوامتنا، قال لي إنت بعد ده بقيت زول خرطومي خلاص، بقج شنو ولا قفاف شنو ليك؟ إنت بقيت زول شنط خلاص! كيفني بكلامو ده كيف، زي كيف شاي الصباح، حسيت بنفسي خلاص بقيت شبه ناس الخرطوم تب.

أها قمت رتّبت هديماتي الجديدة والقديمة في الشنيطة، يا حليل البقجة والقفة، وما نسيت طبعا أشيل معاي كتابين كان واحد فيهم إشتريتو براي من مصروفي، والتاني إشتراهو لي خالي من مكتبة لمّن كنا حايمين وقامت عيني وقعت عليهو وعجبني. والأهم، والزاد من حماسة السفرة دي رغم كل شوقي للبلد وناس البلد، إنو سايق معاي عبدو.

عبدو بعد تحانيس كتيرة وجرجير حتين رضى يمشي معاي البلد، قلت ليهو يا زول يلاكا أمرقاكا شويّة من الخرطوم دي، كنت بستفزو بقول ليهو إنت لمتين حتبقى زي السخلة تناطح جمب أمها؟ متين حتمرق من الخرطوم تشوف برّة في شنو؟ ما عايز تتعرّف على أهلك؟ حيفرحوا بيك شديد لمّن تجيهم، أها غايتو بعد تلتلة رضى.

عمّي إقتنع أسوق معاي عبّودي، أظنو شاف مباراتو لي ما كلها شر، فعلا هو إتغير كتير بعد مباراتو لي، لكن يخيل لي الأهم في نظرو عايزو يمشي معاي

البلد ويتعّرف على أهلو برضو، ما نسى يعصر لينا مصاريف للسفر، طبعا أنا وأخوي الكاشف عبدو.

***

غلبني أقرا كتير في الكتاب الشايلو في يدّي، كنت بضطر كل مرة أقفلو وأخت أصبع محل واقف، مرات أتونّس مع خالي شويّة، ومرات يقلّني منو عبدو لّمن يشوف ليهو حاجة فجأة يلفتني بصوت عالي، مسكين أول مرة يطلع برّة الخرطوم، إتذكّرت حالي لّمن طلعت أول مرّة من الحِلَّة وماشي على الخرطوم، الحاجات دي كلها رغم إنو الطريق ناشف نشاف العيش البايت كلها غريبة عليهو، وحتى لّمن يصنّوا الإتنين ولا يقوموا يدقسوا، كنت بسرح براي أتأمل لحظة نصل، كان شاقيني الشوق للحِلَّة وناس الحِلَّة، وكاتلني الحنين خاصة لناس البيت والجيران وصحباني والفرد، الحشايش وريحة الخضار وضل الشجر وريحة الطمي وصوت الموية في الجداول، وريحة الأرض الناشفة لّما تجيها الموية ترويها، وأصوات العصافير والقمري، وصنّة نص النهار ديك لّمن يعكرها نهيق حمار، ولا يدّور بابور فجأة يشق السكون، حتى مشتاق لريحة الروث، وقعدة الرملة مع الشلة ساعة المغربية، والعوم في البحر ومقالب أولاد الحِلَّة البريئة، و.. و.. إيك، أتاريهو شاقيني الشوق شق وما قال طق!.

لّما وصلنا، كان للسفرة طعم ولون تاني، يمين بص الجكو بقى لي أجمل من كل البصات والحافلات الركبتها في الخرطوم، ما فضل لي إلا أبوس صفيحو المصدّي لا يوم الليلي، كل التراب الخشا علينا اليوم داك كنت بقول ليهو حبابك والله، حبابك عشرة بلا كشرة، ما تراهو إنت ذاتك أنا فاقدك، صوت بوريهو العجيب البضربو كل ما يخش الحِلَّة، بقى لي أجمل لحن وأجمل غنا زي غنا الطمبور الكنا نسمعو زمان، ولا يجيك شاقي نص الليل ومن هناك تعرفو، ده طمبور طيفور، ودي دقة أب راس، وصوت الكوز يناغم في القوز، إيك يا زمن، فيك المحن، كنت زي العايز أمرق من هدومي وأتجدّع بي عرّاقي ماهل وسخان زي وساخة زمان ديك الكنا ولا حتى بنجبلها خبر، أقوم كده أمشي أتمرغ بيهو في الرملة والتراب.

أعاين كل مرة لعبدو ألقاهو ممكون وصابر، بالذات لّمن ركبنا بص الجكو، البص أبى يرحمو كلو كلو، كل مرة يكشح ليك فيهو التراب الناعم، والمسكين يشيل ويقحقح، ما فاضل ليهو إلا يمرق من هدومو، أقوم أضحك فيهو، يتغاظ مني. قام

خالي أداهو عمّتو يتلفّح بيها من التراب، حتين المسكين راق شويّة، لكن عيونو بقت حمر زي الجمر، وزعلان زعل يعاين لي بحرقة وغيظ، لو ما خالي جمبنا متأكد كان نبّذني ما خلى لي جمبة أرقد عليها.

قالدت أمي زين، وبكيت، أيّا بكيت لمّا هي بكت، إنتو ما عارفين أمي دي حنينة كيفن وقدر شنو؟ وأبوي الله يطوّل عمرو، والطول عمرو كان راكز، الليلة سلّم علي سلاما عمري ما شفت زيو، بعدّاك سلموا على خالي عبدالقادر وعبدو ود عمّي ودخلنا كلنا لا جوّة، شربنا عصيرنا، ورقدنا نرتاح شويّة، مهما كان شوقك للبلد، بص الجكو ما حيتغير أبدا، حيهد حيلك يعني حيهد حيلك!.

بعد إرتحنا شويّة وغيّرنا هدومنا وإتغدينا، سقت عبدو أفسِّحو في البلد عشان يتعّرف عليها، أول شي ركبّتو حمارة كاربة، أخد ليهو وقعة وقعتين جامدات وأنا أضحك فيهو، أخيرا قدر يتماسك شويّة ويطوّل على ضهرها من غير ما يقع، رغم الزمن القصير الفضل لحدّي المغربية كنت لفيت بيهو على كل معالم الحِلَّة الرئيسية بما فيها الحوّاشات ومحل بنقيل ومحل نشرّك للطيور والحتة البننزل منها على البحر. فرّجتو على البوابير والجداول وشاف الزراعة والنخل وأنواع الخضار، غايتو فهّمتو حاجة.

بالمسا، لميتو بالشلة، إستقبلونا إستقبّال حافل ولعبنا لينا ألعاب مخصوص عشانو كبرنامج ليهو، إتكيف للدين، وفي النهاية رقدنا في الرملة نتونس بعد ما هدّانا التعب، قعدنا نحكي في قصصنا ومقالبنا في الحِلَّة زمان، عبدو كان بيسمع في قصصنا بإندهاش تام، لكنّو ما كان مندهش من القصص وبس، كان مندهش من كل شي، أولها من طبيعة حياتنا البلا كهرباء دي، وكمية النجوم الفي سمانا المّا بتشبه سما الخرطوم، حتى لمّا تقطع الكهربا في الخرطوم ما بشوفها بالدقة والشفافية دي، والعجب الهمبريب، حاجة كده ما قادر يوصفها لينا رغم إننا كنا شايفنها عادي حتى بالنسبة لي أنا الجاي دابي من الخرطوم.

قبل ما ننكشح نمشي ننوم، غشيّتو النادي يتفرج على اللّمة بتاعت ناس الحِلَّة بالليل، وقبل ما نطلع من النادي مشيت سرقت لي سفة من حُقّة سلامة الأطرش، تكلتها بمزاج وجيت مارق، عبدو كان بعاين لي بكل إندهاش الدنيا:

- بتسف؟..

- أسمع يا كرور، الحاجات البتشوفني بعملها أوعك تكلم بيها زول، فاهم؟..

شايفو زي طنشي كده:

- بتسف من متين؟..

– عشان ما شفتني بكيس ولا حقة قايلني ما بسف؟..
سكت ما قادر يعلّق. شايفو زي المصدوم..
– أسمع، أقول ليك حاجة؟ الحِلَّة دي كلها بتسف، حتى الأولاد الشفتهم ديل كلهم بسفو، حلتنا دي غير الزراعة والكشتينة والصعوط فيها شنو تاني؟..

***

رغم ده كلو، ما قدرت أستحمل أقعد في البلد أكتر من تلاتة أيام، باين الخرطوم إستهوتني شديد، ما قايل نفسي حأشتاق أرجع ليها بالقدر ده أو السرعة دي، والشجعني أكتر عبدو أصلا كان تاني غلبو يتأقلم كلو كلو مع جو البلد، بعد يومين بقى يحاحي لي زي العتود، وإتجرّس لي جرسة شديدة، وأنا نهائي ما حاولت ألاويهو، بقيت أعاين ليهو وأتذكر ليالي الخرطوم المزعجة وأقارنها بحياة البلد المصنصنة، يمكن لو جيت براي كان إتيقنت و والفت عادي، ما أظنها كانت حتفرق معاي كتير، لكن جرسة عبدو خلّتني أتشجع أرجع معاهو بداري وأتم اليومين الفضلو لي في الخرطوم.

رجعنا الخرطوم تاني، بعد ما شيّلونا القفاف والخيرات بالكوم والردوم لينا ولناس عمّي، عبدو عايز ينطط لمّا شاف حواشي الخرطوم من جديد، بقى لي زي العجل الفارق أمو يومين، يفنجط وينطط ساي، أنا سألت روحي، وإنت خبارك يا حسين ما فنجطّت زي عبدو لمّن خشيت الحِلَّة؟.

عدّت سنة أولي كلها بسراع، ما جدّ فيها جديد غير زيادة شعبيتي، بقى عندي كمية كده من الفرد في المدرسة، ومشروعي بتاع القراية الخارجية ماشي كويّس خالص، وحسيت بروحي بقيت مثقف وأفكاري بقلت متبلورة وبعرف أتكلم أحسن وأتناقش كمان. ولكنتي بتاعت البلد بدت تتصلح شويّة شويّة، والكلام بدا يستعدل زي كلام ناس الخرطوم ديل، الود ما خلاص قرّب يبقى خرطومي وكده، نظام خرطومي إلا شعرة أو شعرتين.

وهاك يا اللّفحي، ضيوف عمّي البجونا بقيت بستلمهم أنا وأنزل فيهم قد من طرف، والعجب العجاب لو عمّي مافي أو متأخر، بفتّح ليهم المواضيع وأبرمج بيهم من مافي، لداحة شديدة. فيهم ناس بتضحك وتتونس و حتى تستلطفني، كانوا بحسوا بي فعلا ود ظريف ودمي خفيف، وفيهم ناس بياخدوا الموضوع شخصي جدا جدا، والأعصاب بتبوظ والعروق بيتطاير، والغريبة عندي برود أعصاب ما إعتيادي إكتشفتوا من النقاشات دي، نهائي ما بعرف أنفعل مع أي زول في

حوار، وبعرف أنسحب إنسحاب تكتيكي في الوكت المّناسب، شين لازمتو الإنفعالات المهببة دي؟.

كمّلنا سنتنا الأولى ونزلنا الإجازة الكبيرة، المرّة دي كنت مرتب أموري كويّس ما عايز أرجع البلد طوّالي، الإجازة طويلة وفي نفس الوكت، عندي مشاريعي الصغيرة في راسي، عندي فكرة لفة كاربة للخرتوم مؤجلة ليها زمن.

لكن بدت تحصل لي تغييرات ومفاجآت شخصية، كنت بلاحظ لروحي، بدت تظهر فيني علامات الرجولة، الموضوع ده كان حدث وإعلان هام ومهم بالنسبة لي بصورة ما إعتيادية، لحسن حظي كنت قريت كتير عن المراهقة، وزي كل حاجة جديدة وتحولات مرحلة بقيت خاتي بالي مع التغييرات دي، شعيرات كده مزعمطة مشتتات بقن يقومن لي في سيقاني وصدري ويديني، وشعر شنيبات يا دوبها منبّتة تقول راسمنهم لي بي كحل، وحبوب ضاربة كدة في الوش واحدين صغارات و واحدين كبارات، والأهم من ديل كلهم، جسمي فجأة بدا يطول، أي زول يلم فيني بعد زمن بدهشة يقول لي يا زول إنت بالع ليك قناية؟ ياخ ما تقولوا ما شاء الله ياخ الله أكبر عليكم، بتدورو تطقوني عين مش؟ الشي شنو؟ سحاحير إنتو؟ زمان حاقرين بينا تقولو دقدق، وهسي نطول ما عايزين تريحونا؟.

الأعجب من الفوق ديلاك كلهم طبعا الصوت، ياخ مبالغة عديل، بس الراديو الحارق ليهو كم لمبة صوت، مرة صوتي ده يجيك نغمة واحدة، فجأتن يقعد يقطِّع براهو يطلع في العالي وينزل في الواطي، حاجة محرجة خلاص، ما تقدر تقول ليك كلمتين ورا بعض زي الناس، أو تعمل عليهو كونترول، ياهو إلا يطلع ضارب كده، كل ديل طبعا مع إعجاب الواحد بجسمو شديد، كل مرة لمّا أكون براي أفك القميص أقعد أفتش في عضلاتي قدّام المراية، بقيت أربّي فيهن زي الجريوات.

***

من ضمن شلة المدرسة كان معانا ولد أخدراني إسمو أتيم من الإشلاق، والإشلاق نفسو ما بعيد وما قريب مننا يعني زي جبدة كده بالكرعين، أيام المدرسة الولد ده كان طوّالي بيعزمنا أنا وعبدو نمشي معاهو البيت، كنا كل مرة بنعتذر ليهو. لكن وعدتو قلت ليهو أول أيام الإجازة تلقانا وش قدّامك، وقد كان.

بعد يومين من الإجازة قضّيناهم كورة في الحِلَّة ولف في الفارغة والمقدودة، قررت أزور أتيم وأقنعت عبدو يمشي معاي، الود وعدناهو وتلبية الدعوة واجبة، أها تاني يوم من الصباح دردقنا بإتجاه الإشلاق، بعد مشوار بتاع ربع ساعة لقينا

الإشلاق قدّامنا، وبينا وبينو فسحة ميدان كورة، والإشلاق ذاتو مسوّرينو بسلك شايك مقدقد كلو، أول مرة أشوف إشلاق في حياتي، وتصوري للإشلاق كلو طلع ضارب، طلعت بيوت الإشلاق غريبة شديد ما وقعت لي من أول مرة، من برّة البيوت مبنية بالحيط زي كل البيوت لكن الغرف عبارة عن قطاطي(10) طوب، أول مرة أشوف لي قطيّة بالطوب، بعد شويّة لقينا نفسنا جوّة الإشلاق بعد ما دخلنا بي فتحة زي البوابة كده.

البوابة عاملة زي حتة كبيرة فاتحة في السور قصاد شارع شاقي الإشلاق النص بالنص، تلاقي البيوت فيهو مرصوصات صفين، صف واحد على يمينا والتاني على شمالنا، بتديك إحساس إنك خاشي حتة تانية برّة الخرطوم.

الساعة كانت عملت تسعة ونص صباحا، والشمس اليوم داك كانت حالفة علينا إلا تنفقع من صباح الرحمن، عرقنا شرّ من المشوار والكّتاحة والشمس المصاقرانا محل ما نقبل دي، لحدّي ما ريحتنا بقت طير طير.

أول ما خشينا بالشارع الرئيسي البقسّم البيوت على إتنين، شوفنا الحليلة الصغيرونة دي فيها هرج ومرج غريب، أول شي مستّفة شفّع فل لعين أمها، ما بتفرز فيهم شافعين أخوان، جت عليهم شبه بعض، تاني في كم جلك كده قاعد قدّام باب بيتهم في كرسي تحت ضل شجرة ولا ضل لوري هكر ماسك عصاية وبعاين في الشفّع، وفي حاجّة فارشة ليها طبلية، فيها شويّة حلاوة وفول حاجّات وتسالي وحفّاظة فيها داندرمة باين.

واحد هناك شكلو ميكانيكي شغّال يعفرت في عربية حكومة، وواحد تاني بغسل في موتر باجاج، وأصوات النسوان من جوّة البيوت تلعلع، الحليلة الصغيروني دي كلها تنضم، والحيوانات، المافي شنو؟ من الجداد لحدّي الكلاب، جداد، بط، غنم، وحتى لمحت لي ديك رومي، أبراج الحمام فوق البيوت، بقر، تيران، عجول، وفي شجرة ناطة بي حيطة شايف لي فيها قرد طلح مربوط مرة مرة بنطط فيها، وديل جت عليهم أول ما دخلنا الحِلّة صنّوا.

أول زول فرزنا ليك كان عمّك جلك، مسك الكرسي زي العايز يطير وهو ببحلق فينا، صلّح نضارتو المربوطة بي خيط غليد كويّس ورفع راسو وبقى يعاين لينا فاتح خشمو لحدّي الأضراس، أنا متأكد بكون ما فارز لينا شي بس شلاقة منو ساكت، حتى الغنم صنصنت يدورن يلوكن الشمار، الكانت بتجوغم ليها في كيس نايلون ولا كرّاس إنجليزي ولا الكانت بتتحكحك ليها في حيطة، كلهن بقن يعاينن

فينا، حتى إنتو بتعرفوا تميزوا؟ والكلاب بقت تهوهو فينا، أي شي حايم هناك بقى مركز في الغربا ديل.

الشفع الغيّاظين خلوا لعبهم وختونا في النص وبقوا يلفوا حولينا صينية ويصرّخوا بأعلى صوت عندهم، عملونا لعبة، وأنا أشيل وأصرصر ليهم، "يا ود قنّب ساي! يا ود إتخمد، يا ود ما تبطِّل"، وكلو ما نفع فيهم، مافي زول فكّانا من البهدلة دي إلا الحجّة البتبيع ورا الطبلية، بالله لمّا قالت يا أولاد بأعلى صوت، الأولاد ديل فررر، كل واحد شاف ليهو زقاق، حتى الغنم جفلت، قامت نادتنا:

– تعالوا يا أولاد، عايزين شنو؟..

رديت ليها أنا:

– بندور أتيم..

صنت شويّة كده وقاعدة تعاين لينا بتركيز:

– إنتو بتقرو معاهو في المدرسة؟..

– أيوة يا حجّة..

قامت أشرت لي على باب زنك أخضر مهلهل:

– أمشي دق الباب داك..

– شكراً يا حجة..

شكرتها وأنا رامي عيني في الصينية الليلتها، شايف لي جنيهات ورق وفكّة خمسينات تحت جريدة خاتة فوق ليها حلاوة وتسالي، نص التسالي مكشوف ونصو التاني مفروز بأكياس صغيرة بالمقاسات، شكلو التسالي أب جنيه هو الأكتر، وشويّة فول حاجّات وترمس وحلاوة سمسمية وحلاوة فوفلية، حاجّات الفول والتسالي طوّالي بعملوا الحركة دي محل ما تمشي تلاقيهم بنفس المّنظر، كنت لمّن أمشي مع خالي شارع النيل بنقوم نشتري الفول والتسالي والترمس، والحاجة العجيبة اللقيتها عند ناس الخرطوم بالذات في شارع النيل هي البدرة بتاعت الدوم والقنقليز، دي ما مرت على قبل كده، عندنا في الحِلّة الدوم بننيشوا بالحجّار من شجرتو طوّالي، ننزّلوا طري، وأحلى لمّن يكون لسّة لين، أحسن من كدّو لمّن ينشف ويجهجه السنينات، بس طاعم ما زي بتاع الخرطوم ده ما عارفو بجيبوهو من وين؟ بس شجر الدوم عالي شديد وعايز ليهو خبرّة وتنشين مظبوط، لأنو زاوية ميلانو صعبة. تلقى نفسك شبه مصنقع وعايز حجرك يمشي بكل قوّتو لا فوق، التنشين بالطريقة دي حار عديل كده يقوّس الضهر ويجب الفلايت والقطايع.

مشينا على إتجاه باب ناس أتيم نفطفط في المويات المكشوحة في الشارع، مويات حمّام ومويات صابون ومويات غسيل عدة، كل الأصناف، تبكي بس، وقفت قدّام الباب متشبح عشان ما أعفص الموية الإتكشحت فجأة قدّامي تحت الباب وجات مندفعة زي السيل بالمجرى جمب كرعيني، قبل ما أدق الباب لقيت أتيم فتحو قدّامنا، قام نطط عويناتو الدقاق ديلاك لمّا شافنا، كان شايلو جردل لسّة ينقط، واضح إنو هو الكشح مويتو قبل شويّة، ما صدق لمّا لقانا في وشو، قبل ما يقول بغم، طوّالي مديت يدي دفرتولا جوّة:

- زح يا كرور.

وبقينا داخلين أسياد بيت!.

***

بقينا أولاد إشلاق رسمي وشعبي، من تصبح لحدّي ما تمسّي تلقانا كاسرين ركب في الإشلاق، والساعدنا أكتر إنو عمّي كان مسافر، ومرت عمّي مسكينة وطيبانة، بتتحنّك بسهولة، كل يوم ملصقين ليها حنك وبمشي فيها عادي، المهم راسها بقى خالي مشاكل، مما مرقت ليهم من الحِلَّة تاني مافي زول جا وراي يخبّط ليهم الباب بسببي، ناس البيت أخيرا أضانهم بردت.

قدقدت بيوت الإشلاق ديك بيت بيت، وصاحبت ليك الجماعة هناك جت عليهم، نسوانهم على رجالهم على شفعّهم، بقيت مما أجي خاشي أول الحِلَّة، أرفع يدي فوق وبأعلى صوتي:

- السلام عليكم!..

ولا سائل في رئيس الجمهورية ذاتو، الشفّع يجوني طايرين، وتسمع النسوان من جوّة يكوركن هيّ حسّو جا، وأعمامك ما شفتوا الإنبساطة دي كيفن والضحك للضروس، هيء، هيء، أمانة ما عز، حتى الكلاب بقت بتعرفني وبترجاني من برّة الحِلَّة، وترافقني لحدّي ما أبقى داخل تهز في ضنيباتها.

غنم الحِلَّة ديل حفظتهم كلهم زي ما هم، غنماية غنماية، سخلة سخلة، عارف ياتا بتاعت ناس منو، وياتا القرّبت تلد، وياتا البتدورلها تيس، ولمّن تقرّب الولادة أول شي يقولوا ليهم نادولنا حسين، تلقاني منبرش في واطة الله دي أوّلدلهم في غنماياتهم، وحتى حبوبة سعدية أم طبلية اللاقيناها أول مرة ديك وهارشة الحِلَّة كلها رجالها على نسوانها على شفّعها، يا زول فرّدتها ليك بمزاج، فردة للطيش، بقيت مرة مرة أجيب ليها معاي شويّة بضاعة من السوق، ومرات مرات لمّا أرجع

البيت مع العصيري ولا قبّالات المغيرب بشويّة بكون شايل معاي جوز ولا جوزين حمام، والجيوب بكونن مليانات فول وتسالي، وعشان مرت عمّي ما تجهجهني كتير، بضبحهم قدّام خشم الباب وبمشي بشد الموية السخنة براي، وبنتف ريشهم وبنضف مصارينهم، حتين بعدّاك بجيها:

– بالله يا عمّتي شوربة حمام من النوع الإنما..

أصلو كنت بموت في شوربة الحمام أنا!.

***

قرّروا الشباب الحلوين في الإشلاق يعملوا رحِلَّة، رحِلَّة ساي كده بدون أي مناسبة، أنا طوّالي وافقت، عبدو غنج قال ما بمشي، قلت ليهو يا زول بي جازك أنا غايتو ماشي ماشي، قاموا عفوني ليك من الشير بإعتبار إني لسّة ضيف عزيز وكده، ولأنها كمان أول رحِلَّة في حياتي، رحبت بالفكرة شديد وإتحمست ليها جنس حماستن، عايز أشوف الرحل دي ذاتها شكلها كيف وعبارة عن شنو؟.

أها اليوم داك صحيت دغش الشمس لسّة ما شرقت زي الناس، قشرت قشرة اللي هي، وكمان أديتها ريحة وجلّطت شعري وسبسبتو، ويا الرحِلَّة جاك زول، اليوم داك شباب الإشلاق كلو إدفس في حافلتين سعة خمستاشر راكب، ورفعوا العدة فوق في سباتة العربات، لمة كده بتاعت أولاد وبنات أهل وأصدقاء من وين ووين، الناس دي كلها تضحك ومبسوطة وفرفشة شديدة.

الحافلتين ما شالاتننا، كنا كتار شديد، والبنات أكتر من الأولاد، لمّا جينا نركب، ركبّنا البنات في الأول، بقت المشكلة فينا نحنا الأولاد، نركب وين؟ ولأني لسّة ضيف، الشباب حلفوا دينهم وإيمانهم إلا أركب أنا أول زول فيهم، إختاروا لي واحدة من الحافلات كان مسجلها يلعلع في السما، صوت واحدة كدة بتهنق "البابور جاز، خلّو اليشتغل الشغل بالجاز، خلو اليتحرق"، ياخ يحرق جازي أنا ده! هم يدفروا وأنا ألاوي وأرازي لا ورا:

– يا جماعة، كدي دقيقة، إستهدوا بالله، كدي أصبروا، أركب ليكم وين؟..

وهم يشيلوا ويدفروا فيني، ما عارفيني بخجل قدر شنو من البنات:

– يا زول خش، خش ساي..

وأنا أشيل وأقاوم:

– يا ناس وين؟ مافي حتة ياخ!..

وأنا أعاين في أتيم عايزو ينجدني، السّجم يتبسّم ساي عاجباهو زرّتي، هو فعلا مافي حتة، يعني أقعد ليهم وين مثلا؟ البنّوت كلهم حاجزاتنّ المقاعد، واحدة من البنات لمّا شافت المّناتلة والجهجهة الحاصلة، مدّت يدها جبدتني من كم قميصي، وبدون ما أشعر لقيت نفسي محشور في نصهم، شيتن كده يقطعني ويقطع سنيني، عمري ما حسيت ولا جرّبت متل التلّصق ده، ماني خابر الكان بحصل لي في اللحظات ديك، والليلة سجم أمك يا حسين، هسي نان ناس البلد لو شافوك في متل موقفك ده يقولوا عليك شنو؟. رغم التِخجِّل الفيني، جوّاي كان في إنبساطة شيطانية كده، شعور لذيذ ودغدغة ما حصل خبرتها قبل، البنّوت ديل خبارن بضات كده متل الجلي؟ يا دوب كده قاعد أستشعر في الوضع الغريب جوّاي بالدس وبحرّية، قومي إنتي يا هناية اللي باليمين، مدِّي يدّك في نصي وأقرصيني، وأنا ناطي لا فوق على السقف أسمعلكم تقول لجارتها، حلاتو. وفرد ضحكة فكنّها البنّوت كلهم، يقطعكم ويقطع سنينكم ياخ، خرابات، اللحظة العايز أقوم على حيلي أتفكفك أو أهرب، قام السواق شد العربية رجعّني تاني وقعت قبلي في نصهم من جديد.

غايتو المتأكد منو أنا ما لاحق قاعد زي الناس، قبّلت لا غادي على الباب زي الزول العايز ينط جاري، وعرقت عرق اليوم داك، بس صبت فيني مطرة، أول مرة أنا أتلحم مع بنات غريبات علي في حياتي، كتوفي مع كتوفهم ونصي مع نصهم، ورجولي مع رجولهم، والقصّة باظت، أنا نسيت الرحِلَّة ونسيت الحاصل والزحمة ويطرشنى الجوطة ديك كلها وحتى البت البتحرق في الجاز بقيت ما سامعها، بقيت بحرق في جازي براي، أنا في اليحلني من الموقف البايخ الإتختيت فيهو ده!.

بعد ما الشباب كلهم ركبوا وإتوزعوا على العربات، المشنوق لا فوق، والمسحوق، والمتشعبط والمحشور زيي واحد، حتين شويّة نزل مني، بالذات لمّن لقيت أربعة منهم راكبين معاي أو بالأصح محشورين معاي في نفس العربية ومتقّليني.

البنّوت بدوا يغنّوا مع المسجل، ويدقّوا في الباغات، والأربعة المعاي بقوا يهيّصوا معاهم، وأنا ساكت ساي، ما عارف أندمج معاهم كيفن، لا بعرف أغنِّي ولا غناهم ده سمعت بيهو قبّال كده، إستعدلت شويّة في قعدتي، أصلا قبيلك كنت متحسس ومقبّل على الباب، وهسي متضايق وبدور أريّح كرعيني، يا دوب قدرت أشوف البتين الأنا قاعد جمبهن بي طرف عيني، بالذات الجريئة فيهن القرصتني

في نصي دي، أول ما إستعدلت، طوّالي مدت لي يدها وبصوت عالي عشان أسمعها:

- سلاااام، أنا إسمي ندى.

قبّلت عليها، عاينت ليها بخجل، التقول أنا القرصتها ما هي:

- أهلا وسهلا، أنا حسين.

هي لمحة بس، وخمّت نَفَسِي، البنيّة شديدة ولضيضة، عويناتها كبار، وش مدوّر، ورموش كتل كتل، والشعر ده منعّماهو ولا كيفن ما بعرف، مع إني كنت لسّة متحسس، لكن سلامها ريحنى في حناني، وعرقي الكان شاري بدا يتبخر، وإتمنيتها تتونس ما تسكت، وأنا قاعد جمبها زي البوم مقبّل قدّام زي الفي حصة، متوتر وما عارف أنضم معاها كيفن، هسي الزول لو عايز يناضم البنّوت ديل يقول ليهم شنو مثلا؟ تقول ليها كورة أمس كيف؟ ولا عندك نبلة؟ جرّبتى تصيدي قماري؟.

أها وكمان عشان الموضوع يستحمى أكتر، بعد ما نسيت، رجع لي إحساس الدغدغة الغريبة ديك تاني براهو، أكيد الشياطين إتفقوا يلزو لي كبيرهم الذي علّمهم السحر في اللحظات ديك، لقيت ليك نفسي مركز معاهو من جديد، أوّل مرّة أميز ريحة الأنوثة في البنات، وأول مرة أحس بالأنوثة نفسها بالشكل الجديد والغريب علي ده، عمري كلو مع البنّوت ديل كان قريباتي ولا غريبات علي، ما يفرزني منهم إلا كلمة ولد وبت وبس، لكن الأحاسيس دي، شي جديد، حاجة ما طبيعية، حاجة بتمشي في جسمك زي خيوط الكهربا لمّا تهابشك بشويش من غير ما تصقعك أو تجيب أجلك.

المهم هسي يا حسين ما تقعد تسورح مع الكهرباء دي، بتجيب أخرك، كدي ركز شويّة، ما تضيع الفرصة، طالمّا هي بدت معاك الونسة مفترض أواصل معاها مش؟ أها، طيب أقول شنو؟ أقول شنو؟ قمت إتلفت عليها فجأة:

- عمرك كم؟..

إتلفتت على مخلوعة لمّن سمعت سؤالي، وعيونها الكبارات ديلاك وسعن زيادة بقن زي شاشة سينما قاعة الصداقة ديك، وسوداهن بقى لي زي مهرّجين إتنين في فقرة رقيص مفتوح، وفجأة قوماك أضحكي بصوت عالي، أضحكي، وأضحكي، وأنا بقيت أتضاير لمّا الشباب بقوا يعاينو لينا ولسّة غناهم مدور، قام واحد منهم غمز لي، قبلت منو غادي وطنشتو، والبنيّة لسّة بتضحك، بعديها قرّبت من أضاني شويّة:

- إنت ما قالوا ليك ما تسأل بت تقول ليها عمرك كم؟!..

وتاني رجعت واصلت ضحك، أظن ضحكاتها التانية دي بتكون بسبب شكلي البقى ملوّن وعجيب بسبب الحرج والزعل المكتوم المّا قادر أمرقو ولا أعبّر عنو، وإنتي؟ أضحكي يا سجم، وليه ما تضحكي؟ أكان الخروف الجمبك ده من هبالتو شين عرّفو؟ صحي شن عرّفني؟ لو كان موقف تاني ولا برانا كان سألتها ليه؟ أنا هسي في اليسكّت البت الفضيحة دي.

رغم الموقف، بس برضو كانت خلّت في أضاني وشوشة عجيبة، حاجة كده رفعت الكهربا في جسمي كلو دفعة واحدة لمّن كشّيت وصوف جلدي قام من أضاني لحدّي فرد أصابعيني تحت، يقطع سنينك ياخ، أضاني قعدت ترجف براها لمّن عوجت ليها رقبتي عشان تخمد.

لمّن ندّوية هدأت من الضحك، وإتجاوزت فكرة سؤالي المحرج، بقت تفتح لي في المواضيع في شكل أسئلة، وأنا أجاوب مبسوط ماسكاني أم فريحينة زي الشافع، المهم تتونس ياخ، ما مهم الموضوع يكون شنو، وأنا كل ما أعاين ليها، أغرق في عويناتها الكبار ديلاك، جوّة، جوّة، وأغرق، أغرق، وتوقد جوّة صدري نار ليها حمم، نار زي نار التقّابة(11)، تحرق في قلبي الصغير.

والعوير يقعد يرقص فيها وعاجبو الكي والحريق. وكل ما الونسة تجر، كل ما أحس بإلفة أكتر، إتمنيت العربية ما تقيف، والمشوار ما ينتهي، إن شاء الله الرحِلّة كلها تطرشق ما مهم، المهم ندّوية ما تسكت، ولا تزح من جمبي ياخ، أتاريها ونسة البنّوت دي لذيذة خلاص وسمحى بالحيل!.

***

لمّن وصلنا الجنينة، أنا ما كنت فاهم شي، كنت زي الحالم، أو الزول المدروخ كده، كنت زي في رحِلّة للمريخ وإنتهت بسراع، ولمّن هبش السواق الفرامل، زي النزل بينا من السما ودق بينا سطح الأرض فجأة، لكن أول زول نط وتلّب بالباب من عربيتنا كنت أنا، خفة شديدة خلاص، حاسي ليك بروحي وزن الريشة وقليبي طربان يضرب ساي، ما عايز أتلفت وراي أشوف وش زول تاني، بس ترا قليبي معلّق مع البنيّة وبدورها تنزل وراي، وبدور نرجع نتونس تاني وتالت ورابع، ندّوية دي بالرحِلة وبالإشلاق وبكل شي، فيها حنان لذيذ.

طلعت ندّوية أشد بت في الحافلتين، ومن محاسن الصدف إني أقعد جمبها، في لحظة ما في الطريق حسيت معاها بالأمان، إحساس غريب إنك ترتاح لبت،

بختلف عنو لمّا ترتاح لولد، بقيت أتبسّم براي، وهسي البت دي لازمن أفرّدها بأي طريقة، لازم أستفرد بيها باقي اليوم، شكلها حتقبض الجو، لا دي أكيدة، وقبل ما يظهر لي خازوق أخير أفتش لي طريقة!.

أول مرة أميل لي لبت، المشاعر كلها كانت متناقضة ومشتتة، مبعثرة ومتضاربة زي البلي كل حبة في إتجاه، وحسيت بروحي جبان وشجاعتي كلها خايرة ومنهارة، إتلحست وإنحشرت في جحر ضب وخذلتني، بس كيفن أعمل؟.

دقشت على الجناين لا جوّة لحدّي ما إختفيت وأنا بفكر، عايز أتمالك أعصابي البايظة، وعايز أفكّر في نفسي شويّة، بديت أهدأ وعرقي كان خلاص نشف، خليت الشباب وراي ينزّلوا في العفش وأنا ما شغال بزول، أنا في رويحتي دي، بفكر في الحصل مما إتحركنا من الإشلاق، لأول مرة أشعر بإنجذاب غريب نحو البنات، عمري ده كلو البنات ديل ما شغلتي بيهم، بالعكس زمان كنت بتضايق لمّن يفكروا يلعبوا معانا.

ذكرياتي عن البنّوت في الحِلَّة كلها ما فايتة مغتصتن ومضايقتن لينا في لعبنا، ولأنهن ضعيفات وشكّايات ولسانن حاد، وما بتنفع معاهن الهرشة، الواحدة لو هبشتها ساي تسل فيك لسانها تلم فيك الحِلَّة كُلّها، وتلقى عندها أم سليطة، لمّن تكوّع يدينها في نصها وتقول ليك هيبي، تقول يا الله تحلّني، لكن مع ندّوية دي بالذات المسعلة مختلفة تب، بعدين شين جاب لي جاب؟ ديلاك كانوا صغار زي السواسيو، أما ندّوية لو ما قدري، حتكون أكبر مني بشويش كده!.

أكان من ناحية شبه، نهائي مافي شبه، بنّوت الخرطوم ديل نهائي ما بشبهن بنات حلتنا، جريئات وفيهم قوة عين، أما بناتنا في البلد حالن حال الغنيمات المخلوعات خلقة، الواحدة كان يا الله لاقاها شاب براها في السهلة وقام شاغلها ساي بعيد من عيون الناس، إن شاء الله عايز بس يرفعلها روحها المعنوية، أم الحسين إتنفخت، تعالوا شوفو التِخجِّل، والبراءة والبسيمات ونطيط العوينات وكشحة الوشيش في التِلِفِّت، بعد شويّة يغطّنوا ليك بالطرحة حدو العيون بس، من جوّة بدورن جنس النضم المعسول ده، ومن برّة تعملك فيها البت خجلاني، وزعلاني ومتضاقِي، وأنا بكلم ليك، وأنا بعمل ليك وبسوي ليك.

لكن زي ناس ندّوية ديل، الواحدة تحشرك في جمبتها تدخّلك في أضافرينك، وتعاين ليك جوّة عويناتك الرقاق ديل لمّن قلبك يتخنق من الرفرفة، لكن هي أمانة ما ندى، أنا شين كنت بعرف للبنوت أكان ما ندى؟ أنا مما قعّدتني جمبها بقيت تاني

مانـي واعـي، ما فوّقني من سرحتي ديك وأنا لسّة داقش فـي الجنينة إلا أحمد كدوس لمّا فجأة خت يدو في كتفي من ورا، حتين صحيت وإتلفت عاينت ليهو..

– ماشي وين يا حسّو؟..

– هـه؟..

أتاريني كنت لسّة مودّر شديد وما جايب خبر، سرحان سرحة من أمها.

– يا زول إنت فارقت الجنينة حقتنا ومرقتها في حقت الجيران!..

أنـا الـوكت داك لا فـاضــي لكدوس ولا لـي شـبهو، لا فـارز جـنينتنا ولا جـنينة الجيران، أنا في ندّويتي دي، وعيون الغزال، الرّيلة.

فـكّرت شـويّـة، لـقيت نـفسـي بحـلم وبـتغزّل فـي صـورة وهـمية عـملها راسـي الفاضـي ده، أنا البت شفت ليها شنو؟ حرّم أنا عيونها زي الناس ما كشّفت ليهن كويّس، الباقي كلو تِخجِّل مني ومحاحاة وفتيش للمخارجة ساي!.

كدوس السّجم إتلايق فيني شديد، أنا عايز أنفرد بروحـي شويّة، عايز أرتب الجوّاي وأشوف خباري مع البنيّة، وعاجباني سرحتي دي كيف! ما دايرة ليها أي تِحشِّر من أي زول! يمين زمان لمّن كنت بسرح بالغنم وأدندن بأغانـي الطمبور ما كنت بستمتع قدر متعتي الهسي دي. ما لاحظت للسجمان ده عندو برنامج فـي راسو لمّا تاني قام يعلّق:

– مالك عامل كده زي الضارب ليك سجارة؟..

ولأني طبعا، يا حليلي، وارد من البلد، ما فاهم ضارب سجارة دي يعني شنو بالضبط؟ طوّالي بشلاقتي ديك ردّيت:

– ومالا السجارة؟..

أولاد الخرطوم الوهم ديل كمان قايلننا دقوسات للدرجة دي ولا شنو؟ قايلننا ما بنعرف للسجاير؟ يا زول هـا، نحنا بنشربها من زمن نمرقلها فـي الخلا شـايلين قش الكبريت بالدس في جيب العرّاقي ومعاها حتة من الورقة البشخطوها ديك، نقطعها من طرف علبة الكبريتة، ونمشي نجيب سيقان الخوص المجوّفة من جوّة مخصوص، والخوص ده ذاتو لو ما عملناهو سيجاير بنقوم نقلبو بحرفنة شديدة لي ناي. أهـا، نقوم نكسّرو حتت حتت لمّن نملالنا كم علبة برنجى فاضيي نكون لقّطناها من الحِلَّة قبل، طبعا ما بنشيل الكبريتة كلها عشان ما يكشفونا، هسي بقت السجارة بتسرح بالناس؟ ناس الخرطوم ديل خبارهم راسهم خفيف كده؟ تاريهم ناس البلد مو هينين.

- وإنت السجارة بتدوِّخك يا كدوس؟..

ضحك فيني ضحكة غيّاظة مشهور بيها، أكلتها في حناني.

- سجارة شنو يا وهم! ما بتعرف السجارة الخدرا؟..

أخدت لي صنّة صغيروني، قلّبت عويناتي هنا وهناك، حسيت بجهلي، خبارك يا حسين، عامل فيها تفتيحة وفي سجارة لونها أخضر ما شفتها قبل كده! السجاير طلع أنواع يا عمّك! راسي ودّ وجاب، ودّ وجاب، الكلام أبا يتبلع لي، أخير النسأل:

- أها العادية شنو والخدرا شنو؟..

- تعال، بوريك هسي دي..

كدوس الملعون طيّر لي اللحظة الحلوة من راسي وشغلني، شدّاني معاهو في موضوع السجارة الغريبة دي، قلت إلا أشوف النظرية شنو، كل يوم نكتشف لينا حاجة جديدة. أها، قمنا مشينا قعدنا تحت ضل شجرة كبيرة، أصلا كنا بعيدين شديد من الناس ومافي زول جايب خبرنا، تابعتو بدقة شديدة، وكرّهتو بالأسئلة، غايتو صبر على جنس صبر، وباقي لي الزول ده متمرس شديد، لأنو شايفو ظابط الموضوع كويّس، وبلف الورقة دي بطريقة مغرية خلاص، تشهيك تجربّ طوّالي بعدو.

لو قال لي من الأول الموضوع بنقو كان فهمت الحاصل، ويمكن كان شردت منو، لكن ود الذين مقنع، بعدّاك لورا فهمت ليه كدوس ده مرات كده بتكون عيونو سرحانة نص نايم نص صاحي، وهو كلو كده ما على بعضو تلقاهو خاتي ليهو إبتسامة على الماشي طول الوكت بمناسبة وبدون مناسبة، ما تفهم ذاتو معاها الحاصل شنو، وكيف ممكن الزول يكون مبسوط طبيعي، أتاريهو بكون عايش في عالم تاني وعندو جو براهو.

مع أول نفس حسيت بصدري وحلقي ولّعوا نار، نفسي إتحبس وإتكتم قبلو بسبب ريحة الشي العجيبة دي، الشي ما بتشبه السجارة العادية نهائي، ولا شجيراتنا الكنا بندق ليها الخلا ديك، ريحتها زي صفق النيم لمّا يتحرق، حاجة كده بس نار الله الموقدة، وريحة تكتم النفس، عندها طعم كده كيف كيف في الحلق، خفت كدوس يضحك فيني، كتمت القحة، حاولت أطلّع النفس بشويش من غير ما أقح، غلبني، راسي من أول كتمة طوّالي بدا يلف، وبطني طمّت فجأة، حسيت بنفسي عايز أستفرغ، كدوس الفقر مسكني من يدي وقال لي أقعد، أهم شي تكون مسترخي بتستكين بعد شويّة.

عاينت ليهو مسافة، الكلام باقي لي زي الجايني من نهاية صالونا في البيت هناك في البلد، الودّاني هناك شنو؟ غلبني النطق، الدروخة لذيذة ومغرية، غايتو أقنعنّي إنو الدوشة دي ما بتفوت إلا أواصل، قال لي ده حلها الوحيد، وإنو ما أشرب موية بس أكون قاعد ما أتحرك، هو أنا ذاتي قادر أتحرك؟ بعد شويّة شال مني السجارة وبقى يجبّد فيها شويّة، تاني قام نصحني، قال لي خليك مرطّب كده وإنتظرني هنا! ما عارفو زاغ قدر شنو، ما كنت قادر أحس بالزمن كويّس، حاسي بطشاش شديد، إتّكيت في الشجرة الوراي، ويدي بترجف تبحّت براها في الواطة، تفتش في شنو ما عارفها.

فجأة لقيت كدوس جمبي، قال لي هاك، جا متين وكيف ما عارف، مد لي قطعة جوافة، قال لي ما تاكلها قطعة واحدة، مزمز بيها، بتريحك شويّة، وتاني أدّاني السجارة، وتاني بديت أجبّد، جرّيت نفس طويل وإستمرت النعنشة من جديد وأنا في شبه غيبوبة.

يا زول، القصّة جرّت معاي وبقت ظابطة تب، بقيت أجبّد في الأنفاس وأنا حاسي ليك بنفسي حاجة تانية، كل ما أخد لي نفس وأدّيها صنّة، الدنيا دي بتاخد ليها لفة كاملة وترجع تاني، ومرات أشوف الأشجار دي تطوطح كده براها، ومرات أشوفها تنقز لا فوق، ومرات تانية تقوم تجري مني وتطاقش براها قدّامي زي البتتعلم في المشي. إتكيفت ليك من روحي كيف، كيف ساي بدون أي سبب، في اللحظة ديك ما كان في أي شي في بالي إلا ندّوية، شكلها بعد ما ظبطت، قامت ربطت!.

***

قوم كده بعد ما إستمتلت زين، دردق على اللمة، خليت كدوس قاعد قبلو بعاين فوق شيتن معلّق في الشجر يحدثني بيهو لكن ماني شايفو وماني خابرو، كل الشايفو الشجر الكتير البلعب معاي غميضة غميضة ده، أها لمّا وصلت الناس لقيتها كانت راقت والتستات بتاعت الساوند لسّة مدوّرة، والفنانة الجايبنها شكلها يا دوبها عايزة تهنق، وأنا ما سائل في زول، مشيت من دربي طوّالي على ندّوية، مسكتها من يدها، وجرّيتها مع بداية الغنية، البت إتخلعت، وبقت تضحك بهستيريا.

غايتو قالوا لي اليوم داك ما بتعرف ترقص كلو كلو، أشتر شتارة ما عاديّة، الفنانة أول غنية بدت بيها كانت "الذكريات"، ندى تصفق برواقة ومخلوعة فيك،

وإنت شغال تعرض وتنطط، الغنا وندى في وادي، وإنت وفنجيطك في وادي تاني خالص، قرّبت أقول ليهم الوادي الواحد ده؟ كنت أنا وندّوية بس في راس جبل، برانا فوق ما معانا أي زول غير السحاب، والباقين ديل جت عليهم تحت!.

السيجارة الملعونة ديك أدتني دفقة مجنونة وشجاعة مغشوشة، وغطت على خجلي، بقيت ما سائل في منظري ولا شكلي، الجراءة دي ولا شيتن تاني؟ ياني زولها تب، إنتهت الغنية متين ولا كيف ما جايب ليها خبر، بالي كلو كان مع ندويتي اللسّة مخلوعة فيني، وأنا مسورح وغرقان في عيونها، مع إحساس الخدار المسمم جسمي ما فارز مشاعرها من مشاعري، ولا ياني قادر أستوعب إنطباعاتها راضية ولا ما راضية، مبسوطة ولا متضايقة، متجاوبة ولا بتجامل. الحاجة الوحيدة المركزّ فيها إني مكنكش في يدّها زي الخفّاش الخايف طريتدو تشرد، وما شاعر بمقاومة تذكر منها، أول ما الربربة إنتهت والفنانة أخدت ليها صنّة، إنتبهت إنو الجوقة دي كلها كانت بترقص في الدائرة، العربيتين بسلامتهم قاعدة تنقّز، والعجاجة قايمة فوق ريسينا، ونفسنا مكتوم وما شاعرين بالكتمة، والفرفرة دي كلها والطقيش والدفيّر ده كلو أنا ما حاسي بيهو، إلا أخيرا حسّيت بالشي الليّن في يدي التانية لما إنتبهت، لقيت باقي الجوّافة معفّصة في يدي.

قمت بعدّاك جرّيت ندّوية من يدها وشاققت بيها الناس لحدّي ما مرقناها برّة الدايرة، وندّوية بتحاول تفتح ليها في مواضيع ولا تقول ليها في شيتن، إحتمال كانت محرجة وعايزة تمثل فيها الموضوع عادي، لكن أنا ما مركز معاها نهائي، عايز بس أمرق بيها من الزحمة ديك، أفضل أنا وعيونها وبس، تاني ما معانا أي زول.

خليّنا الزحمة وناسها، الغنية التانية كانت بدت طوّالي، وأنا لسّة ماسك ندّوية من يدها وهي مرّة مرّة تضحك بخجل، هي بقيتي تخجلي؟ طيب ما أهو أنحنا كويّسين! المهم لسّة كاريها لحدّي ما لقيت لي ضل شجرة سميحوني كده، إتبرطعت تحتو وجرّيتها معاي قعدت جمبي. وفي عيونك عالم تاني، وحلاة السرحة فيك، وما عارف شنو، حسيت بنفسي عايز أغني ليها، والنضم غالبني، عويناتي تقال ما قادر أرفع جفونن، والعجب اللسان، كل ما أدور أنضم، زي البدفر لي في شوال بصل، اللسان ما بدور يمرق كلمة كلو كلو، النضم غلبني تب، الشي شنو؟ خليت النضمي لندّوية، البنيّة شديدة ولضيضة وما عندها عوجة، وباقي لي بتكون نقشت نومتي من قبيلك، وشكلها ما عندها ما مانع أتسطل ولا أتهطل، مسكت النضمي هي، إتكلمت كلامات كوتارات، شي في الحفلة، وشي في صاحباتا

ومرة تخرّم على الطبيخ، ومرة تمرقها في لبسها وبرنامج الهديمات والكريمات والسهرة والحفلات، وباين علي كنت بتكوشم وبتبسم براي، والبت نضامتن، وأنا مستمتع، ومستمع جيّد غصبا عني، الله لا كسبّك يا كدوس.

***

ما عارف اليوم داك إنتهي كيف في المزرعة، مرت علي حالة من الغيبوبة اللازمكانية، مما كانت ندّوية في نضميها ولحدّي ما رجعنا الإشلاق راحت مني تفاصيل كتيرة في النص، بعد نومة عمّيقة قمت ناطي من السرير ما فاهم أي شي، قمت بصداع عنيف عايز يشق راسي نصين، عاينت وراي وقدّامي في شكل الأوضة ما فهمت شي، لكن الريحة الدخلت خياشيمي بتقول لي دي أكيد ريحة الإشلاق.

ركزّت كويّس في أركان الأوضة في الضلام، شفت شماعة في الركن جمب دولاب ضلفتين، وريحة الأرض تحت بتقول كانت مرشوشة ومرطبة، عرفت الأوضة في بيت ناس كدوس، بعد شويّة الباب فتح، جهرني نور الحوش الجاي من ورا شبح، عرفتو كدوس طوّالي، غطيت عيوني بطرف يدي وبعاين في شبح كدوس من تحت يدي، قبل ما أسألو طوّالي هاجمني:

- وين يا فردة يا منقرضة!، عارفك حتكون مصدّع هسي..

- ياخي إن شاء الله يقرضك فار، قول آمين!..

هو كدوس ده بعرف أي شي؟ هسي عرفني كيف مصدّع؟ إعترفت بيني وبين نفسي إنو زول خبرّة. قدرت أتعود شويّة شويّة على الضوء، لقيتو شايل لي بندول وموية في كباية قزاز، بلعت الحبوب على طول ولا كلمة، شربت الموية لحدّي آخر جغمة لأني حسيت بنفسي عطشان شديد، قبّلت عليهو صاري وشّي، مرق صوتي زي الطالعلو من بير غريقة:

- دي عملية تعملها فيني يا مرض؟..

كدوس فك ضحكتو الغيّاظة ديك تاني، عايز ينفتح فيني ضحك ويحكي لي عن شكلي وبهدلتي، لكن بالي كان بعيد في حتة تانية، بالي بقى في البيت، الوكت إتأخر شديد، والواطة ليّلت، دي أول مرة أقعد في الإشلاق لحدّي الوكت ده، قمت مدروخ وهمي في التأخير والحنك حيكون شنو؟ وسامع لي من بعيد دقة دلوكة.

- ماشي وين؟..

عاينت لكدوس بطرف عيني ما رديت عليهو، عتّبت برّة الأوضة وبقيت أعاين وأقلّب في منظري من فوق لتحت، هدوم مكرفسة تحلف تقول مارقينها من خشم بقرة، وعليها أثار تراب كل الجهات، ونعلاتي التقول كانن مدفونات في سفّاية رملة، والعجب كرعيني، زي الكنت بضقل بيهم في فرناغة، بهدلة شديدة، إتذكّرت ندّوية فجأة، بديت أتذكّر تفاصيل اليوم الغريب ده زي الطشاش طشاش، من الصباح لحدّي هسي بقى لي بعيد زي الكان أمس، أول شي كتلت ملف مع الحيطة ومشيت للمّاسورة والحوض راس، كنت حافظ مكانهم كويّس، إتشطفّت زين، كدوس كان واقف وراي ساكت ساي ما قال ليهو كلمة تاني، الموية نعنشتني شويّة، أخيرا نضم:

- دقيقة..

ما إتلفت عليهو، لكن عرفتو إتحرك، مشى وجاني راجع شايل ليهو مزيل عرق ومشيط صغيروني، إستحميت بالمزيل إستحمام، لحدّي ما طيرت بيهو ريحة العفنة الفيني، وسبسبت شعري بالمشيط ولسّة حاسي وشي مليان تراب وطعمو في خشمي، الشغلانية دي ما بنفع معاها إلا دعك بالليفة والصابون، وعايزالا دشّا كارب! أديتو الحاجات في يدو:

- يلا، أنا ماشي..

وقبّلت على الباب.

- ماشي وين؟..

إتغظت من سؤالو الغبي، أو البقى لي غبي في لحظتها، وأصلا أنا كنت مغيوظ ومفروس منو ومن نفسي من البرنامج السخيف بتاع المزرعة والبهدلة الإتبهدلتها، بزعلة كده رديت عليهو:

- ماشي البيت يا كدوس يعني حأكون ماشي وين مثلا؟..

- لا لا دقيقة، ندى دي من قبيل منتظراك تصحى، موصّياني أوّل ما تصحى عايزة تلاقيك..

عيوني برقت براها فجأة في الضلام، أتاريهو شابكني من قبيل ماشي وين ماشي وين ويحاحي جمبي عايز يوصل لي وصية ندّوية، حيلي كلو برد فجأة، والزعلة طارت وإتبخّرت، صوتي مرق مفضوح، وبكل حنية رديت:

- ندى؟..

ما إنتبهت لنفسي والكرور قعد يضحك فيني.

- آي ندى، مالك؟..

صرّيت ليهو وشي تاني وعملت فيها جادي، لكن الموضوع كان أصلا باظ وإنتهي، وما ظنيتو يشترى تمثيلتي، هي أصلا بقت ما فارقة، بيناتنا بقى فيها بنقو يعني بقت على ندى مثلا؟ سألتو:

- أها، وين هي هسي؟..

- تعال معاي..

أخخخ أنا من تعال معاي دي، تعال معاي دي بتجيب الكفوة، طلعنا برّة البيت على إتجاه الدلوكة وغنا البنات، لمّا أبيت أخش جاتني ندى مارقة برّة، تلمع تحت القمرا، البنيّة اسم الله عليها، كانت إرتاحت وإستحمت، رطّبت وغيرت وبقت ترقش.

صراحة ونسة الضلام ديك كانت حلوة ورايقة، وبقينا نتاكي من حيطة لحيطة ومن خور لخور، والواطة ضلومة، وصوت صراصير حايمة بالليل داك، ومرة مرة يجيك صوت ضب شكلو بهلوان ناطي من ركن لركن، والبت ماشة جمبي مستكينة لي ومزاجها بقى راكب معاي عدلة وقلبة، وأنا بي وساختي وعفنتي، غير صوت الدلوكة المزعج وضحكات البنات والأولاد البجيك شاقي الليل مرة مرة، الجو ممكن يقولو عليهو رومانسي..

ونحنا لسّة بنتمشى زي أحلي إتنين، مرة مرة أغوص أعفص لي حفرة صغيروني فيها باقي مويات مكشوحة، لكن بقت ما فارقة، اليوم كلو زي الواحد كان قاعدلو في حوّاشة، أجمل ما في الحفيرات ديك، كل ما ندّوية تجي جمب واحدي تتكي في يدي وتاخدلها نطيطة صغيروني، يقوم قليبي المّاسكاهو أم هلة هلة ينط معاها ويتقافز بأعجوبة.

مرقنا برّة الإشلاق شويّة، برّة في الفسحة الكبيرة بتاعت الميدان، قعدنا مع بعض في طرف حجر كبير، النجوم واضحة فوق في السما، هنا كانت أوضح مما لمّا أكون في حوش البيت، أصلو ما بتذكّر يوم رفعت راسي في السما شفتها بالوضوح ده، وقمنا كبينا الحنان، من جميع الإتجاهات، والكلام بقى دقاق، فتيتو ليها وفتتو لي، وقلبي رفرف، وبقا من جوّة دافي زي المّاخدلو دش، والدم ده بقى يدافق في عروقي زي النغم الجميل، في اللحظات ديك، حسيت إنو بقى عندي حبيبة.

اليوم داك بالليل شديد أول مرة مرت عمّي تهيج فيني، أدتني شكلة مدنكلة ليها ضل ومعاها تهديد و وعيد، "أصبر لي لمّا عمك يجي"، ما إهتميت بالموضع

كتير، كنت مبسوط وعايز أعيش مع القلب والحنان، ما عايز أعكّر صفو اللحظة بسيرة جلد ولا سوط عنج يمحّط فيني، وعشان ندّوية، حبابو الجلد، تحت الدش كنت بغني ومبسوط، أتاريها الخرطوم دي فيها عجايب ما بتنتهي!.

***

الجزء الثاني

أول أيام إجازة السنة التانية وماشين سنة تالتة، وعدت سوما أرجع بدري أحضر معاها عرس صاحبتها سهى، كانت مصرة ما أمشي البلد إلا أحضر العرس في الأول، أصلها بتعز صحبتها شديد. سهى دي بعرفها كويّس، بتجي لسوما كتير في البيت، ولمّا سوما تكون ماشة ليها بمشي معاها أتقّلها، صحيح مشوار ضارب بالنسبة لي وما فيهو أي نوع من أنواع الإثارة، لكن مرات الزول يضغط على نفسو ويلغى برامجو عشان خاطرها، الكرور ناس عبدو وبكري ما بجاملوها، ولا بتقع ليهم مشاويرها، أما أنا، فكنت بشوف سوما دي أصلو مافي زيها إتنين، وما بقدر أرفض ليها طلب.

أما مشاويرها المسائية برّة البيت، فدي ثابتة، بكون أنا المرافق الأساسي، لو مارقة مشوار، أي مشوار، أو ماشة السوق، أخوانها بزوغوا طوّالي، ما شغالين بيها كتير، بتكون عليهم زي العبء، أما أنا، فبكون زي اللاعب الأساسي في ملعبها، وكمان بلعب معاها ضاغط أحيانا، بقوم مرات بكرّهها عيشتها وببقى ليها في حلقها، جنِّي وجن لطيخ الوش بالبدرة والعجب أحمر الشلاليف، وكتير كنت بقول ليها شوفي، أصلو أنا وإنتي بلبستك المشلهتة دي ما بنمرق سوا، وتجي عمّتي النعمة تأكد كلامي، تقوم تتأفف وتزهج ومرات تحرد المشوار ذاتو، أقوم أمشي أحنّسها لحدّي ما أجبر بخاطرها، تقوم تقول لي إنت حكّام شديد ! أفو؟ مش ياهو الشارع البرّة ده ولا شيتن تاني؟ أسأليني منو أنا ده! بعدينك المشاغلات والله لا بنرضاها لا بندورها، وهي عارفة كده كويّس، فأحسن لا تجيبو لنفسها ولا تجيبوا لينا تجهجه باكاتنا.

رغم ده كلو كانت مصرّة إني أحضر العرس معاها وحتكون عايزة تطلع وتنزل كتير، بس كان لسّة العرس باقي ليهو زي إسبوعين، فقلت خلاص، أحسن أكسب الزمن أقضي إسبوع في البلد على الأقل، أصلو طوّلت منهم شديد، وغير كده، كمان راجيني كورس صيفي إستعداد لسنة تالتة.

أها اليوم داك قررت نقوم نمشي زيارة إستباقية للعروس قبل ما أسافر، لزوم الصداقة البينها وبين صحبتها والواجب، وتشوف إستعدادات العروس وصلت وين والذى منو، قلت ليها خير.

سهى دي نهائي ما كانت بتلفت إنتباهي، بت عادية جدا جدا في نظرى، ندّوية الجكستها في الإشلاق كانت بالنسبة ليها قمر لو جابت ليها مقارنة، المهم، بقيت كل ما تجي سيرة سهى أقيف محتار مع نفسي وأسألها كل مرة كيف وليه؟.

العقل الباطن ده مرات عندو شيتن كده بعرفو براهو، أها وأنا في غمرة غيبوبتي ديك بتاعت الإشلاق بعد الرحلة المّا بتتنسي وجكيستي لندّوية، في قمة إنفعالاتي وتضارب عواطفي في سلم المراهقة، تجي تجربة لازمن يمر بيها أي مراهق، إحتشاد التجارب دي بتتخزن شكلها وتندفس في الرويس المدوقس ده لحدّي ما تنفجر فجأة بالإحتلام وتعلن أول خطيئة في حياتك، وبكدا تبقى يا معلّم إتخطّيت مرحلة الطفولة والصبا لمرحلة الرّجولة وكده، وتتويج نهائي برضو للشنيبات والشعيرات القامن زمان ديلاك، ويكون صوتك خلاص بدل عامل زي الرادي الضارب لمبة صوت، بقى أقرب لصوت الرجال وشكلو النهائي الحتتوصّم بيهو.

أها ده كلو بحصل كيف؟ بسمّوها بت إبليس الله يلعنها المسخوتة، تكون نايم في أمان الله تقوم يوم تجيك في منامك وتعمل ليك حركات كده ما بتاعت بنات ناس كلو كلو، لحدّي ما تنتهي منك وتوديك التوج، تقوم مخلوع تلقى نفسك ودّرت خالص ولخبت الدنيا، تقوم خجلان لكن من جوّة فرحان، خجلان من الحصل بدون إرادتك وبهدل هديماتك، وفرحان لأنك قطعت الزلط وبقيت ضكر بط، تضّاير سريع وتفكر بإستعجاب الحصل شنو وحصل كيف؟.

حاجة كدة تفضل في الذاكرة ما بتتمحي بسهولة باقي العمر كلو، وتحس بيها كانت تجربة حقيقية حتى لو عمرك ما مريت بيها، بس الحاجة الوحيدة المّا لاقي ليها تفسير ومحيرة ميتين أفكاري، ليه سهى المّا عندي معها شيتن ولا غرض؟ وليه ما بقت ندّوية مثلا الكانت مدشدشة أيمان صليبي؟ أكيد دي وهمة من وهمات إبليس وبتّو الملعونة!.

أها من الوكت داك كل ما أشوف سهى تلقاني مرات أتخجّل من نفسي براي بلا سبب، ومرات أسورح فيها وأفتش إجابة للسؤال، ليه سهى؟ إشمعنّي هي؟ قدر ما قلّبت الموضوع في راسي ما لقيت ليهو تفسير، أصلو البت دي الشدة

ساي ما جاية بجمبها، شكلو العريس ده عندو حول في عويناتو، لكن ما مهم، وكلو قسم. ولو لا إختلاف النظر لبارت السلع.

أها المهم، رغم إني حاولت مية مرّة أشيل الفكرة من راسي لكن بت إبليس الملعونة خربت لي أفكاري، وطمست ذاكرتي للأبد، الذاكرة الوحيدة المّا حتتنسي بقت للزولة البتعزّها سوما وفي نفس الوكت هسي عروس، واللي ما عندي بيها أي شغلة ولا كان ممكن.

كنت بقلّب الموضوع ده في راسي شديد ونحنا ماشين على بيت العروس وتراني شايل همّ، يا الله حأسلّم عليها كيف الليلة؟ يخربك يا حسين، مالك ومال الهم؟ لو حنّست عبدو يمشي مع أختو ما كان أرحم ليك؟ بس لحسن الحظ لمّن وصلنا البيت لقيت العروس حابسنها، قالوا لازمن تتحبس قبل العرس، إتكيفت من الفكرة، مشيت إتجدّعت في صالونهم أتونّس مع ناس البيت والضيوف لمّن دقست قبلي في الكرسي، سوما المرض من الساعة تمانية ونص مسا ما مرقت لي إلا حداشر ونص بالليل.

***

مشية البلد للإجازة المرة دي مختلفة، سفرة شكلها حتكون رهيبة، كنت قررت أسوق معاي أتيم، الود الأبنوسي أبو عيون دقاق ده، الود ده نهائي ما قصّر معاي، دخلت حلتهم ودخلت بيتهم وبقيت ولدهم. "ماري"، أمو، لمّا حدثتها إنبسطت شديد وعيونها رقرقت من السعادة والفرح، كانت بتحبني شديد وحاسة إنو أتيم بقى عندو أخو مش صاحب، بس لمحت مسحة قلق على وشيها، ما فهمتها في وكتها، وهي ما عبرت عنها.

أبوهو راجل عسكري قديم، رغم بساطتو إلا إنو تحس بيهو راجل حكيم، وبوزن الأمور بعقلو، ما صغير في السن لكن بنيتو الجسمانية بنية عسكري جد جد في عز شبابو، النوع الداسي عمرو في بطنو داك وبالعو، لمّا يخش في الكاكي تحس بهيبة العسكرية ويشهّيك ليها، بزيدها بنظراتو الثاقبة وكأنو بلبس شخصية تانية ما زي وبس، ببقى زول حازم ورسمي جدا جدا، حتى أنا بقيت لمّا ألاقيهو في الزي العسكري، بتعامل معاهو برسمية شديدة وبالمختصر المفيد، أما لمّا ألقاهو في البيت لابس هدوم بيت عادي، طوّالي باخد راحتي على الأخر، تعال وهاك يا ونسة وضحك وقرقرة، سبحان الله، حاجة تحير، الأمة دي كل زول فيها عندو فهم براهو.

عبدو قدر ما حنستو يمشي معانا تاني البلد أبى لي كلو كلو، قلت ليهو ياخ معاي أتيم المرة دي، أرح خلينا نمشي نغير جو شويّة ونرجع، قال لي يا زول بي جازك، سفرت المرة الفاتت باين لسّة ما طلعت من بالو، وما عندو أي رغبة يكررها تاني، بس حنستو حنيس ما دام ما ماشي معاي، ما يقصّر مع سوما، في الأول قعد يتلولو عايز يزوغ كالعادة، قلت ليهو أسمع يا كرور، أنا لو قاعد ما بجي أسألك وإنت عارفني كويّس، لكن أنا مافي أصلو ما تقعد تنقنق لي، حتمشي معاها يعني حتمشي معاها، بعدين كلها إسبوعين وبجي أستلم منك الراية، وبالكتير حيكون مشوار ولا مشوارين لو بالغت، يبقى مافي داعي تبطبط لي، غايتو في النهاية رضى على مضض.

أما بكري ده فمويتو من يومو ما معانا، عندو نظام شلّتو وأصحابو براهو، وشايفنا لسّة شفع ولا شنو ما عارف، كان فاكيها في روحو حبّتين، شكلها من خسائر المراهقة برضو، ما حصل يوم كده قعدنا مع بعض قعدة زي الناس عشان نعرف حاجات بعض، من يومو غير السلام وكلمتين هنا وكلمتين هناك ما قاعدين نكترها، ما بقول بنكره بعض لكن بس ممكن أقول ما مقسمين شديد مع بعض، صراحة ما فضيت ليهو، زمان كان بغيظو وبطلّع عينو، دويرتو ساهلة خلاص، أخليهو يسكني الحوش كلو، لكن بعدّاك رخيتو وبقيت أنا ذاتي ما فاضي ليهو، بقت عندي مواضيعي براي الشاغلاني، عارف روحي لو فضيت يمكن أنظمو كويّس وأنجّمو.

ياها تاني ما فضلت غير سوما، وسوما دي فردة ومنقرضة، يوما ما أكيد حأسوقها البلد، بعدين سوما دي رايقة وهادئة، يعني ما حتعمل لي طابور قلق، لو قلت ليها نقعد شهر أنا متأكد حتقعدها وتوالف البلد كمان، أصلها نفسها من زمان تمشي، لكن جامعتها دي شغالة كيف كيف ما عارف، نحنا نأجز هي تشتغل، هي تأجز نحنا نشتغل، مدكنها لي قدّام لحدّي ما نشوف يحصل شنو!.

***

اليوم داك صحيت مع النباه التاني، إتوضيت ولحقت الركعة التانية في الجامع ، رجعت إستحميت وجيت شلت شنطتي الكانت جاهزة ومرتّبة من أمس بالليل، نفسها الشنطة الإشتراها لي خالي في جيتو الزمان ديك، ختيت فيها فرشة الأسنان في جيب برّاني، سنة يا أنا؟ بقيت ود مرتّب ومنظّم، ونضيف، بس

أبيت أجلّط شعري، الحركات دي ما بتنفع مع ناس الحِلّة، مش كفاية بقيت خرطومي بقميص وبنطلون؟ رفعت شنطتي وبقيت مارق.

– حسين!..

جاني صوت عمّي من البرندة جمب المطبخ، ما كنت متخيل حألاقيهو الصباح بدري في البيت، شفتو قبيل في الصف الأول في الجامع، أحيانا بعد الصلاة ما برجع طوّالي، بقعد شويّة مع شباب الحي، يا قروا شويّة قرآن لحدّي ما تشرق الشمس، يا قعدوا يتفاكروا في مصالح الحي.

– نعم عمّي..

لمّا جيت عليهو لقيت عمّتي النعمة برضو صاحية، بس كانت مضارياها مني التلاجة، سلّمت عليها:

– صباح الخير يا عمّتي..

– صباح النور حسين، أجي يا ولدي؟ مارق من غير ما تودعنا ولا تشرب الشاي؟..

أنا بشويّة خجل كده:

– والله يا عمّتي معليش، قلت ما أزعجكم الصباح، عشان كده ودّعتكم بالليل، كان مفترض أمرق أبدر من كده شويّة..

أصلا كنت ناوي فعلا أطلع أبدر من كده، أكسب زمني وأصل بيت ناس أتيم بدري ونبقى مارقين على الموقف.

عمّي قاطعنا:

– كدي جر كرسيك ده وتعال، ما تشيل هم المشوار، حأوصلك الموقف..

عاين لي مسافة قبل ما يواصل:

– إنت صحي صحبك أتيم ماشي معاك البلد؟..

رديت عليهو وأنا بتبسّم بحماسة:

– أيوة يا عمّي..

ما لامني لأني ما كلمتو، وفي نفس الوكت ما رد علي، صنصن مسافة كده، قام أدى عمّتي بعدها نظرة لمحت فيها مغزى، ما فهمتها، لكن جلّيتها، قلت عادي!.

***

أوّل ما خشينا الميدان الفاتح على ناس الإشلاق، عيني وقعت على أتيم المّا بغباني، كان قاعدلو في حجرا برّة في الميدان قريب من البيوت، شكلو منتظرنا مقبّل علينا، أها أول ما لمحني جوّة العربية جرا على البيت، لمّا وصلنا لقيناه خاطف شنيطو واقف بيها قدّام الباب مع أبوهو وأمو.

أبوهو كان لابس رسمي ومتحزّم ماشي على الشغل، أها طوّالي خطر في بالي دي معناها سلام رسمي وكده، ونقوم نخش في الدور الجادي وحاجات بالشكل ده، لكن الغريبة المرة دي سلم علينا سلام حلو، شكلو وداع ولدو ليّن قلبو ونسّاهو الدور البخش فيهو كل مرة لمّا يكون لابس رسمي.

عمّي قعد يونّس فيهم، في المسافة دي قمت خطفت شنطة أتيم من يدو، شلتها وختيتها في العربية، أتيم كان عايز يطير من الفرح، أول مرة في حياتو يسافر، مسبوط جنس إنبساطة، فرحتو وإنبساطتو دي ذاتها فرّحتني وخلتني أتفاءل بالسفرة دي.

في طريقنا للموقف أتيم كان منشرح على الأخر، وعيونو بتلمع من الإنفعال زي الأطفال، لمّن نزلنا من العربية، عمّي طوّالي جاني مسكني من يدي زي العايز يمنعني أفر، وقام عصر لي قريشات، قدر ما حاولت أرفض أشيلها أو أتملّص منها أبى، أدّاني ليها بنهرة كمان، أصلا كان معاي قروش أدّاني ليها خالي في واحدة من جياتو دكنّتها للسفرة دي.

أها زيادة الخير خيرين زي ما بقولوا، وزي ما عمل معاي برضو عمل مع أتيم، برضو ألح ورفض لكن عمّي أصرّ، أصلا كنت ناوي أقطع ليهو معاي، يعني متكفل بسفرتو من الأول للأخر. لكن عمّي زول بعرف الواجب برضو، كتر خيرو. أها أصرّيت على عمّي إنو يقوم يمشي لأنو وراهو شغل، وحنقوم نتصرف نحنا برانا بطريقتنا، وفعلا قبل أخيرا، ودّعناهو وشلنا شنطنا مشينا على الأكشاك نشوف لينا تذكرتين في بص كويّس.

أول ما قرّبنا على الكشك بتاع التذاكر، فجأة في زول سحبني من قميصي من ورا، إتلفت سريع، كانت مفاجأة، ألقى ليك ليدو واقف وراي يتبسّم.

– وين يا أصلي..

– أوه ليدو؟ إيه المفاجأة دي؟..

سلمت عليهو وأنا ذاتي بتبسّم، قمت سألتو بإستغراب:

– إنت يا زول الجابك هنا شنو؟..

قام ضحك بعفوية ظهّرت لي سنونو الصفراء المايلة على البني ديك من أتر شفّيط السلس، كانت عيونو ذاتها فاضحاهو، بتقول عليهو مسلِّس للنيفة:

– أي حتة فيها مجازفات بنمشيها، لكن ما نقدر نقعد هنا كتير..

– وليه؟..

– المربّع ده مكرتن..

– مكرتن كيف يعني؟..

– يعني ماسكنو ناس تانيين ما نحنا، زي ما نحنا ماسكين مربّع الخور في السوق هم ماسكين المربع ده..

– أها، طيب كويّس فهمتك!..

بعد عشرة ونسة والسؤال من باقي الفرد والذى منو، إنسحب مني برّاحة وخلاني مع أتيم الكان في عيونو مية سؤال، فعلا عايز يفتح خشمو ويسأل بس قلت ليهو صنصن يا عمّك، بشرح ليك قدّام.

***

أها البصات ذاتها بقت كل ما ليها ماشة في حداثة، البص الركبناهو كان مجيّه جنس جيهة، نضيف وكراسيهو نضيفة ومعطرِّنو وفيهو شاشات تلفزيون، وقالولنا كمان فيهو وجبات وبارد، ده الكلام!، حجزنا كرسيين مع بعض أنا وحبيبي أتيم وبقينا منتظرين البص يتملي ونشتت، شكلو قرّب يتملي لأننا لمّن ركبنا ما لقينا إلا كرسيين قريبات نهاية البص ورا، كنا بالجمبة اليمين المقبلة على الكشك، في ركّاب حاجزين وفي ركّاب زيّنا كده بجوا يقطعوا تذاكرهم وكتي.

أها في اللحظات ديك شايف لي راجل ومرتو، أكيد السميحوني الملظلظة المعاهم دي بتّهم، يقطع سنينك يا حسين، بقيت ما راكب عدلك، كل ما تشوف ليك بت تعاين ليها بنظرات تانية، الحصل عليك شنو؟.

الحاجات دي زمان ما كنت بنتبه ليها، هسي يقطع عويناتي الرمدانات دي، بقيت أشوف تفاصيل ما كنت بخلي ليها بالي، الشكل، اللبس، الحلاوة، القوام، وأكتر حاجة بتكسّر ضلوعي وبتنتف ريشي هي العيون، وقليبي بقى رهيفوني وما بستحمل، بس ما أشوف لي بت سمحة، بقت تمسكني أم هلة هلة، ويقعد قليبي يرفرف براهو ويتحت زي ورق الشجر، أها وكمان لو بقت عيونها بقاق ومن النوع العجيب داكا، تراها غرزت في قلبي سهم تدخلو من هنا وتمرقوا بي غادي.

قال كده وسرحت مع البنيّة، أها وأنا بعاين ليهم وبعاين في شنطهم، إنتبهت لّمن المراة بقت تكورك فجأة وحصلت جوطة ، حاولت أركزّ أحاول أفهم الحاصل شنو، من شكلهم وشكل الكلام البصلنا ورا قزاز البص، زي الفهمت إنو المراة فقدت شنطة اليد حقتها، الراجل إتجهجه وبقى يتلّفت وما عارف يتصرّف كيف، والبنيّة السميحوني مربّعة يدينها ومقلّعة عويناتها ومخلوعة، ساكتة ساي ما عارفة برضو تتصرّف، الوحيدة الجايطة وبتلعلع هي المراة.

– أتيم..

– أيوة..

– إنتظرني هنا، ما تمشي أي حتة..

عاين لي بإستغراب:

– ماشي وين؟..

– بس إنتظرني..

قمت سريع نطّيت من مقعدي ومشيت بسرعة على باب البص، لمّا وصلت الباب نزلت برّاحة لحدّي ما إتأكدت إنو الراجل لمحني وأنا نازل من البص، بس خفتو يكون سرحان ساي وما مركز، المهم قمت مشيت عليهم وطوّالي سلمت على الراجل، المراة كانت لسّة بتكورك، شكلو شنطتها فيها حاجات مهمة، "شنطتي..شنطتي"، طنشتها، لكن طبعا ما قدرت أطنش البنيّة، أديتها نظرة كده سريعة بتاعت تقصّي، والليلة، والليلة، البت شايلة ليها عيون، أماك، ده الهناي البعمل هناي ذاتو، إتربكت ومسكتني رجفة مسكتها سريع قبل ما تفضحني، وبسراع قبّلت على الراجل وسألتو:

– فقدتو شنو؟..

– شنطة يد..

سكت وعملت فيها بفكر، ما عايز كمان شكلي يبقى زي الحشرنجي، هو ذاتو كان بعد ما رد على قبّل مني لا غادي، شكلو لسّة محتار وبفكر يعمل شنو، يمشي البوليس ولا كيف؟ بالذات وهو على وش سفر، قمت نفضتو من حيرتو:

– أسمعني..

رد على وذهنو شارد:

– نعم..

– أنا عندي محاولة، إحتمال أقدّر أرجّع ليكم شنطتكم..

إتفاجأ قبّل علي بجسمو كلو وعاين لي بإستغراب، قلت أحسن ألحقو سريع قبل ما يظن فيني الظنون:

– هي محاولة..

– كيف؟..

قمت ختيت لي إبتسامة لذيذة كده:

– كيف دي خليها علي، إنتو مسافرين بالبص ده؟..

قمت أشرّت على بصنا.

– أيوة..

قلت في نفسي الحمد لله، أهو الواحد برضو لازم يعمل لنفسو ساتر في الأول:

– أنا برضو مسافر فيهو، أديني عشرة دقايق ربع ساعة وبرجع بنتيجة إن شاء الله..

بتاعين كشك التذاكر كانوا بسمعوا في كلامنا، قبّلت عليهم مع نهاية كلامي، يعني الكلام ده ليكم برضو ما تعملوهو توم وشمار ساي وتحرِّكوا البص وتضيعوني، ما علّقوا بي شي وأنا ما سألتهم، قام الراجل لحقني متشكك قبل ما أتحرك:

– عايز تعمل شنو بالضبط؟ أنا شايف أحسن بس نفتح بلاغ وننتظر البوليس يقول شنو!..

سريع رديت عليهو وأنا مشتت:

– لا لا، ما تفتح بلاغ ولا حاجة، قبل ما تفكر تعمل أي حاجة إنتظرني، أديني دقايق بس!..

***

ما كنت عارف ذاتي أقبّل على وين، أول هم كنت عايز أختفي من الراجل ومرتو القامت سكتت بعد سمعت كلامي وبقت متابعاني، طنشت البت البتشده دي، أبيت ما أعاين ليها تاني، ما عايزها تجوط لي حساباتي وتركيزي، كفاية القليب اللسّة برفرف زي اللستر ده، لكن حاسي بيها متابعاني بنظراتها وبي عيونها الزي الجلل الموقدة نار، شاقة بيها ضهري من ورا لحدّي صدري، لكن نظراتها خلّتني أحس بالزهو، وبالبطولة، قمت كمان أديتها كوز، شدّيت ضهرى

كده وفردت لي عضلات من مافي، عاد نمرقها من وين العضلات دي؟ من الجسم الكحيان والمعصص ده؟ كان ماليني إعتقاد جاني من وين ما عارفو، إنو البنات بحبن الأولاد المفتّلين، وأنا لحظتها كنت أتوق أكون في زمرة المفتّلين.

المهم، بعد ما إطمأنيت إني بقيت بعيد من نظرهم، وقفت وبقيت أتلفّت في الموقف، بفتش على حاجة معيّنة، حددت إتجاهي ومشيت، فعلا تحت شجرة نيم كبيرة في طرف الموقف كان في شلة كبيرة من الأولاد والبنات الشماسة متكّلين، ولحسن حظى لمحت ليدو، فكّرت أقيف بعيد ما أصلهم تحت شجرتهم، فعلا من بعيد رفعت صوتي وناديت على ليدو:

– ليدو.. ليدو..

أول ما لمحني جاني طاير يجري ويتبسّم زي عوايدو، ما ضيعت زمن:

– ليدو، عاين لي جاي وركز معاي كويّس..

كنت خايفو يكون مطشش بسبب السليسيون..

– أيوة، مركزين معاك يا مؤلم "معلّم"..

– أسمعني، في شنطة يد إتنبلت من قدّام كشك تذاكر هناك..

قمت أشرت ليهو بإتجاه الكشك قبل ما أواصل:

– وعايزك ترجِّعها لي هسي دي..

– شنطة كبيرة؟..

– لأ يا ليدو، شنطة يد، جزلان بتاع نسوان، فهمتني؟..

– أيوا، "مضبغة" يعني؟..

نطق المضبقة(12) "مضبغة"، بس حيرني، ما عرفت نكت كلمة المضبقة دي من وين؟ ما كنت قايلهم بعرفوها:

– بس ياها ذاتها، فهمتا؟..

– أيوة فهمتا، لونها شنو؟..

– والله ما عارف يا ليدو، لكن هي واحدة بس الإتنبلت، جيبها لي سريع قبل ما نسافر..

– خلاص "تيب"، إنتظرني هنا..

فضلت واقف في محلي وليدو رجع جرى على الشجرة وأنا متابعو بنظري، وقف شويّة وسط فردو، وشويتين كلّهم قاموا وإتشتتوا في الموقف، ما عرفت أتابع منو ولا منو لحدّي ما كلهم إختفوا وسط الناس..

فضلت واقف منتظر زي عشرة دقايق، بعد شويّة شايف ليدو جاي طاير، وراهو تلاتة من شلّتو، شايل ليهو شيتن أحمر كده باين عليها ياها شنطة اليد، قلبي إنطرب، بس فجأة إنقبض، في مشكلة، ليدو وشيهو كان مليان دم!.

– ليدو مالك؟..

وهو لسّة بياخد في نفسو، وما شغال بالدم النازل من وشيهو قدر ما هو فرحان بالإنتصار ومبتسم:

– المؤلمين "المعلّمين" ديل أبوا يدونا ليها بأخوي وأخوك..

– يا زول؟ أها والحصل شنو؟..

– قلت ليهم لو ما رجعّناها كلنا حيدخلونا الرج..

– طيب، أها؟..

– نصهم كان موافق، لكن النص التاني قال ما يرجعها كلها إلا ينبل من الفيها..

– أها!..

– أنا كمان أبيت ليهم، وقلبناها أضل "عضلات"..

– يا الله، معليش يا ليدو ياخ، أنا آسف!..

– ليدو يجيب الإتنبل، لكن تاني مافي لينا قعاد هنا..

حسيت بالأسف على ليدو، وكأني إتسببت في طردو من عملو، مش من حياة هي أصلا علي هامش حياة الناس في أطراف السوق.

– متأسف والله يا ليدو..

رد على أسفي بإبتسامة ولا مبالاة، في اللحظات ديك شلّتو كلّها كانت إتلمت حولينو، واحدة من البنات المعاهو مسحت ليهو الدم النازل بطرف كمّها رغم وساختو. في سر غريب وعجيب بيناتهم، عندهم ولاء وإرتباط ببعض ما شفت زيو، حاجاتهم نادرة، وأنا معتبرني واحد منهم، بتعاملوا معاي بدون أي توجس أو تحسس، ما زي بقية الناس البعتبروهم غرباء ومنبوذين.

جرّيت ليدو على جمبة وقطعت فيهو خمسيناية، عايز يطير من الفرح، قرّب يهجم على يشيليني فوق لو ما رجعت لي ورا سريع وثبتو بيدي وأنا بضحك من الفكرة، مشى فرّجها على الباقين، كلهم هللوا وجروا برّة الموقف، شكلهم راجعين خلاص أراضيهم، كنت عارف الخمسين الشايفنها كتيرة دي، ويمكن ما مسكوها

في يدهم بالحلال قبّال كده، ما بتساوى عندي قدر الأسف الكنت حاسي بيهو في اللحظات ديك، لكن على الأقل قدرت أفرّحهم ودي كانت براها بالدنيا.

عاينت للشنطة في يدي، منظرها وأنا شايلها بلونها الأحمر الفاقع كان غريب وشاذ، والناس بدت تعاين لي شذرا، سريع رجعت بإتجاه البص، كانت مرّت زي خمستاشر دقيقة.

***

بالله المراة لمّن شافتني شايل شنطتها عايزة تزغرد، فرحت فرح ما عادي، إبتسامتها من الضرس للضرس، أها أخيرا هلت إبتسامة مفرهدة في وش البت الملظلظة، أخ أنا، أحب المّا كده ذاتو، ناس الكشك بقوا يتبسّموا، شكلهم كانوا محرجين بطريقة ما، وسواق البص كان خلاص وصل الحد، يشيل ويضرب في البوري ويدوس في الأبنصات ويرقّص في البص من جمبة لجمبة زي رقيص العروس، حركة القلق دي بعملوها كتيرين بالأخص ناس المواصلات قبل ما يتحركوا من الموقف، كل السوّاقين ديل في النهاية طينتهم واحدة، نفس الطبايع، بص الجكو هناك في البلد برضو بقعد يتراقص كده قبل ما يتحرّك، بس داك حركة لا ورا و لا قدّام، لو حاول جمبة جمبة زي ديل أكيد حيتفرتق حتة حتة!.

أها، المشكلة بقت في الراجل الشبكة، شكلو ما عايز يعدّي الموضوع، بدا يسأل تاني بتشكك:

– لقيتها وين؟ لميت فيها كيف؟..

كنت مديت الشنطة للمراة القامت خطفتها خطف، فكّرت سريع، أي إجابة غير مباشرة حتزيد شكوكو وما حينزّلني من راسو، فكّرت أتكلم بطريقة توحي ليهو إني أكبر من سنّي:

– شوف بكل بساطة، أي سوق أو موقف عام أو حتة فيها لمّة كتيرة بتاعت ناس، عندها ناسها المتخصصين فيها من الحرامية، وغير الحرامية في شماسة، والشماسة ديل ما بتفوت عليهم أي حاجة تحصل في منطقة هم قاعدين فيها، وهم ذاتهم الساعدوني أرجِّع ليكم الشنطة..

وعشان أتفكفك من الراجل إتلفت على المراة وسألتها:

– أها، إن شاء الله تامة؟ فيها أي حاجة ناقصة؟..

الوكت داك كانت لسّة بتقلّب جواها حتة حتة.

– الله يباركك يا ولدي، الحمد لله كل شي في محلو، القروش، خاتم الدهب، البطاقات، الموبايل، الـ ..، لأ كلو تمام!..

إحتمال كانت عايزة تقول المراية ولا الكريمات ولا مصيبة تانية قامت مسكت نفسها في أخر لحظة، يلا، ما علينا. الراجل أخيرا قلبو إرتاح وإطمأن شويّة، رغم إنو عيونو كانت بتقول لسّة عندو باقي أسئلة كتيرة عايز يسألها، لكن في سؤال غلبو كلو كلو:

– عندك علاقة بالمباحث؟..

قمت ضحكت ضحكة لذيذة أنا ذاتي كيفتني:

– عليك الله يا عم أنا هسي شلكي ده شكل زول عندو علاقة بالمباحث؟ لا أبدا، أنا طالب ثانوي في إجازة وماشي سنة تالتة يادوب كمان!..

أنهيت اللقاء بنظرة خطّافية لبنيتهم السميحوني الملظلظي، لقيتها بتتكوشم وتتبسّم، ديني أنا وفرحتي، أكيد بتكون شايفاني هسي بطل، أو دون جوان، وإحتمال تكون سورحت بي وركّبتنى هناي، قصدي بتاع، أقصد حصان أبيض، ولبّستني بدلة بيضا زي بتاعت الحكيم العندنا في الحِلَّة زمان، وأكون جاري، وجاري، وجاري، وهي منتظراني ولابسالا فستانا أبياض برضو، وفاكة شعرها لا ورا شايلو الهوا، وأقوم أقرّب منها بحصاني الأبيض من غير ما أرخي سرعتي، وجبّ جبّ أقوم أخطفها بعضلاتي المفتولة ديك، وأطوِّحها فوق في الهوا قبل ما أجدعها وراي في الحصان، بعدّاك نقوم جارين كربك، كربك، كربك، هو الفارس ده بجي من وين الله أعلم، وبمشي بيها وين الله أعلم، القصّة كلها بتبدا هنا وتنتهي هنا.

بادلت البنّوتة إبتسامة الود بواحدة زيها، من قريب بلا شك البت ملهلبة، مولّعة نار بلا منقد، الجسم ده ناعم واللون خمري، أكان مديت يدك يخيل لي جلدها ده حينقط عسل براهو، قادر الله في خلقو! إتذكّرت بنّوتنا في الحِلَّة، الغبيانات يقومن من النوم مغبّشات ومنكّشات، لا بعرفن يتجيهن ولا شغلتن، كل همهن يحلبن الغنم ويلملمن الحطب ويوقدن النار ويرمن القرّاصة ويعوسن كسرتن، الواحدة لو خلاص شافت روحها تقع البحر، تنزل بي هديماتها جملبغ وتاخدلها عويمي وتبقى مارقي.

نفضت روحي من أحلام اليقظة، وبقيت طالع على البص، بوراي طوّالي كان عمك ومرتو والبنّوتة الملظلظة، لمّن قعدت كنت لسّة بتبسّم، أتيم عايز يفتح خشمو، كتمت نفسو سريع:

- ولا كلمة..

بقيت شغال ليك في المسكين قهر وهجر بس، لكن أعمل شنو أنا؟ بدور أسورح مع البنيّة، أنا كنت لسّة مع الخشيم الباسم، والعيون البقاق، والرموش الكتل كتل، البتدي فيها ربك العجب دي.

رجعت بخيالي محل ما كنت واقف قبيل، رجعت أسأل نفسي، يا ربي؟ أها الفارس بعد يخطفها ويردفها معاهو في حصانو اللبيض. أها، بدور يمشي بيها وين؟ هسي عليكم الله زي البنيّة دي يمشوا بيها وين؟.

***

أتيم ذكّرني بسفرة عبدو معاي أول مرة، نفس الملامح والشبه، كنت أديتو الشبّاك خليتو يتفرّج، فيي شنو ماني عارف، المهم قال عايز يتفرّج، كرّهني بالأسئلة، البلد شكلها كيف؟ والمحطات الحتلاقينا شنو؟ حنقيف وين؟ وشندي على بعد كم؟ وعطّبرة على بعد كم؟ وحنصل متين؟ رغم ده إندحت معاهو وجاوبتو، كانت عاجباني فرحتو وإثارتو دي لله لله، بعدّاك قعدت أمهد ليهو جو البلد، وأشكّرها ليهو، وأوري فيهو البرامج الموعود بيها مع أولاد حلتنا ناس عبد الرحيم وحمدان والدخين، غايتو شغلني من الطيران التقيل الكنت مسورح فيهو، أصلو البنيّة ذاتها من حتتي ما كانت بتتشاف.

إستمرينا نتونس كده لمّن بدوا يوزعولنا في الحلاوة والبارد، بعدّاك جابولنا سندوتشات شنو كده ما عارف يتخيل لي لحمة بايتة، وراها جات التحلية الليلت كيك جاهز، ضربنا الوجبات بتاعتنا وعملنا غمرانين.

البص لعب بينا لعب لحدّي ما إتدروخنا تب، شويتين وأتيم إتكى على القزاز وشخر، أنا ذاتي ربعّت يديني في الكرسي القدّامي وتكلت راسي و.. ماني عارف نمت متين، ولا نمت قدر شنو، ما أصحي ليك إلا على صوت رهيب وبجسمي ده طاير براهو محلّق في الهوا لحدّي ما إتكومت في الممر نص البص ، لمّن بديت أستوعب لقيت ليك نفسي راقد تحت زول وحاسي بألم عجيب ماني خابرو وين، وعندي يد محشورة تحت زول تاني ورجل خشت تحت كرسي.

ما فاهم الحصل شنو بالضبط، لمّن الطنين بدا ينزل شويّة شويّة من إضنيني، بديت أسمع أنين، في ناس بتتألم! طوّالي عرفت نحنا حصل لينا حادث، حادث؟ إتذكّرت أتيم، حاولت أتنفض أقوم، لقيت نفسي معرقل، بقيت أكورك، "أتيم...أتيم!"، لكن مافي رد، والأصوات بقت تزيد، وفجأة في مراة بقت تصرّخ،

بعد شويّة النسوان الفي البص كلهم بقوا يكوركوا ويصرّخوا، وفي أنين رجال هنا وهناك، قطعوا قلبي، قلت خلاص، معناها البص من جوّة بقى زي السلخانة، والقطع قلبي أكتر كمان، لقيت في دم في قميصي، قرّبت أصرخ أنا ذاتي من الخلعة وتأثير كواريك النسوان، بعد شويّة إتحسست نفسي برّاحة بيدي الفاضية، ما لقيت أي حاجة، برضو ما إقتنعت، تاني قعدت أفتش، لمّا إتأكدت فعلا مافي شي، حتين بعدّاك بقيت ألكز وألز في الزول الراقد فيني:

– يا أخينا، يا أخينا، هوي!..

زولك راقد سلطة تب، وعلى العليهو كمان تقيل تقلة! وصاحبنا لا حس لا خبر، قلت أوع يكون الزول ده مات! ركزّت فيهو كويّس، لقيتو بتنفس، طيب أعمل شنو؟ قمت سحبت يدي المعلّقة في الكرسي برّاحة، الحمد لله ما جاتها عوجة، فجأة في زول شات قارورة موية دقت في كتفي، طوّالي جرّيتها وفتحتها وجملبغ جمبلغ كبّيتها في راس زولي المّنبطح فيني، قام ناطي رافع راسو:

– أنا وين؟..

– إنت وين شنو ياخ، كدي قوم مني كاتم لي نفسي يا عمك..

بدا يتحرك بصعوبة، لقيت كتفو مجروح ومسّيل دم من قميصو لحدّي قميصي، بس الحمدلله كان الجرح ما حاجة مخيفة، قام على حيلو ماسك محل الجرح، بعد ما إتحرك يا دوب قدرت أتنفس زي الناس، الممر كان ضيّق شديد، لو ما قام براهو مافي لي أي طريقة أزحزحو لأي حتة.

كنت راقد ومواجه نهاية البص، أول ما قمت على حيلي وإتلفّت، خلعني المّنظر جد جد، قبيل كان البص شبه مضلم بالستاير والتظليل البالجمبات، فجأة البص بقى كاشف من قدّام وضو النهار كلو خاشي علينا جوّة، والناس مبهدلة بهدلة شديدة و واقعة فوق بعضها، جزو بكورك ويولول، وجزو مكوّم صامت، وفي واحدين مجدّعين فوق الكراسي وتحت الكراسي، وفي كراسي نايمة على الباقين، بالذات القدّام، وفي منظر تاني مرعب، الدم في كل مكان، دم وتراب وموية ولا زيت ما عارف، صورة بتذهلل بالواحد، حاولت أركّز مع الصراخ الشديد والكواريك.

أول حاجة إتلفت وراي محل كان قاعد أتيم، ما لقيتو، بقيت أكورك ليهو تاني، "أتيم...أتيم!"، فجأة سمعت صوتو، كان بحاول يرد علي، لكن صوتو كان طالع أنين ساي، شغال يقند، إتلفّت، إتلفّت، لحدّي ما شفت كرعينو معلّقة فوق في الهوا، لو ما كان الموقف صعب كان ضحكت على المنظر، كان رافعلو كرعين زي

المفاريك فوق تاكلهم في القزاز، شكلو وقع في كرسي في نص البص، وصل هناك كيف ما عارف، إتجاوزت فكرة منظرو الغريب، بقيت أترنّح وأنا ماشي عليهو، لسّة كنت حاسي بآلام في جسمي، قمت لكزتو وقومتو:

– أتيم، أتيم..

زولي فتّح عيونو برّاحة.

– أنا وين؟ في شنو؟..

لقيت ما عندو أي عوجة، بس قصة الناس البتقوم طشاش دي شنو؟ أي زول تهبشو يقول ليك "أنا وين؟".

– أتيم قوم، في حاجة واجعاك؟ حاسي بي أي حاجة؟..

قام مسك راسو، شكلو خبت راسو بحاجة، في ورم لكن مافي أتر دم، قلت أطمنو:

– قوم ما عندك عوجة تب، قوم..

قام دلّى كرعينو وإستعدل في كرسيهو:

– حصل لينا حادث؟..

– أيوة، لكن كدي قوم عايزك تساعدني!..

***

أول حاجة عملناها، مشينا نكابس في الباب الورا، عافرناهو معافرة شديدة لحدّي ما فتح معانا، بعدّاك بدينا ننزّل في الناس القادرة تمشي، كل ما ينزل زول نوديهو غادي نقعّدو برّة في واطة الله ونرجع قالبين جوّة البص، أها بقينا في الشغلانية دي لحدّي ما جا الدور على البنيّة القبيل كتلتني بعيونها، لقيتها قاعدة جمب أمها، وأبوها موازي ليهم في الصف، كنت نسيتهم خالص خالص، مع النومة والحادث كانت طارت كل عصافير أحلام اليقظة.

كانت هي الوحيدة المتحرّكة في أمها وأبوها، الوكت داك بدت العربات المسافرة البتمر فينا كلها تقيف، وأي زول ينزل من عربيتو ويجينا جاري يساعدنا، فيهم ناس شهمين، قوّوا قلبهم وبدوا من قدّام، محل صعب، بقوا يلملموا في الأشلاء ويسعفوا في الجرحى، ما كنت عارف لمّن أصل هناك حأتصرف كيف؟ وهل كنت حأقدر أستحمل المناظر ديك ولى لأ؟ أها قمت لقيت نفسي جمب الأبو ومرتو والبت، الأبو كان دايخ حبتين، أما الأم شغالة تسكلب ساي بنفس واحد، والبنيّة كاضمة كضمة من أمها، وشيها مليان خلعة ومحتارة ما عارفة تعمل شنو، عاينت

ليهم زين، غير دروخة الأبو ما فيهم زول عندو عوجة تاني، أها أتصرّف كيف؟ أتصرّف كيف؟ الأم تعاين في الناس القدّام تشوف المّنظر وتقعد تواصل سكلبة، المنظر كان مخيف فعلا.

أها، وأنا في حيرتي، ربّك رب الخير واحد من الناس الجو يساعدو كورك لي من قدّام، "أقشطها كف!"، في الأول ما فهمتو قاصد شنو، بعد شويّة إنتبهت، طوّالي إستعدلت ليك نفسي، وفرِد كف، كف جا للأم صاموتي، المراة طوّالي راسها رجع ليها، في اللحظات ديك البنيّة السميحوني ذاتها راسها رجع مع أمها:

– ليه تضرب أمي كف؟..

هبلني صوتها، وبقيت معلّق فوق مع رنين الصوت الحنين رغم الأسى، سكت ما رديت عليها، بس ساعدتهم ينزلوا وأنا ماسك الأبو المدروخ.

بعد فضيّنا البص كلو هدأنا شويّة، إنبطحنا في الأرض لأنو التعب كان هدّانا، كنا فترنا وحيلنا مات، قطعنا تب، كل المتوفيين مغطغطين بالمتوفر، تياب، ملايات، عمم، أي شي، أبيت أمشي على الحتات الراقدين فيها نهائي. الناس اللسّة فيها حيل كانت واقفة في راس الجرحى والمعوقين يضمّدوا في جروحهم، أو الفضل منهم، لأنو فيهم ناس كتار رفعوهم في العربات وجروا بيهم، كانت مرت زي ساعة كده، لحدّي الوكت داك ما جات لا عريبة إسعاف لا عربية نجدة ولا يحزنون، الناس كانت شغالة تسعف وتنجد براها زي التقول البلد دي ما فيها حكومة، والحتة حولينا ملانة عربات لعين أمها، البجي كلو يقيف، منظر البص من برّة كان مخيف، لمّا تعاين ليهو ما بتصدق في زول طلع منو حي، وقدّامو طوّالي شاحنة جزو منها مهروس، وش البص مطبق لا جوّة، أو الفضل منّو.

– أها، حنعمل شنو؟..

سألني أتيم المّنبطح جمبي، فكّرت في الخطوة الجاية شنو؟ أول شي نشمي نفتّش شنطنا وين! تاني هم، نشوف لينا شيتين توصلنا باقي مشوارنا الإنقطع ده:

– كدي بعد نرتاح شويّة، نقوم على شنطنا ديل نمرقهم وبعدّاك نشوف لينا حاجة نركبها..

في تكيلتنا ديك قاعدين نتفاكر، أقوم أتلفت لمّن أحس بحركة زول جمبي، ألقى ليكم البت السميحوني الملظلظة واقفة فوق راسي، طوّالي قمت رفعت ضهري من الأرض.

– السلام عليكم..

تاني قمت نسيت الحادث وتعبنا والحصل كلو، البت كان سحرها طاغي حتى في أحلك الظروف، وفيها صوت، يا إلهي، صوت الجَرس البجيب الجِرس.

– وعليكم السلام، كيفكم وكيف أمك وكيف أبوك؟..

إنتبهت إنو بعد نزلوا تاني ما عاينت ليهم ولا سألت منهم.

– كويّسين، بس أبوي لسّة دايخ حبتين، أظن سُكْرِيهو وضغطو مرتفعين حبّة، في عربية منتظرانا حتشيلنا، لكن ما لاقية حاجاتنا ومحتاجين موية شراب ضروري، تقدر تساعدنا؟..

بقليبي رديت عليها، أفو؟ أساعدكم بس؟، قمت على حيلي أنفّض في التراب بدون ما أرد عليها بنعم أو لأ:

– مقاعدكم كانت كم؟ متذكّراها؟..

– خمستاشر وستاشر وسبعتاشر..

– جداً، يا.. منو؟..

– مها..

مها، مها، مها، قعدت أردد في الإسم في راسي وأنا مقبّل علي ركام البص، صحي ما مها، وعيون مها، دي الأسامي ولا بلاش!..

***

لمّا وصلنا البلد لقينا الخبر وصل قدّامنا، البلد دي الخبر يصل فيها أسرع من البرق ذاتو، أمي الله يديها العافية ما إطمأنت إلا بعد شافتني قدّامها وقالدتنى زين وبكت ما مصدّقة، أبوي كان فرحان شديد بجيتنا وبسلامتنا، والحِلَّة كلها كسرت فينا تحمدل لينا في السلامة، حمدلله على السلامة، حمدلله على السلامة.

طوّالي أبوي من وكتو ضبح لينا خروف ماكن كرامة لله، البهجة كانت كبيرة اليوم داك والفرحة بقت فرحتين، ضربنا الخروف بمزاج لحدّي ما دخنا، لقيت أمي كانت عاملة ليها شربوت(13) بدون أي مناسبة، جات معانا ظابطة شديد، اليوم داك نحنا نايمين أنا وأتيم من قبل المغرب لحدّي تاني يوم الصباح، كنا زي السكرانين، كل ما يجي زول عايز يصحينا ويحمدل لينا بالسلامة يمنعوهو يصحّينا، أول مرة أكون في البلد وأبوي ما يتوّرني للفجر، بكون غايتو قال الناس ديل مارقين من موت كدي النخليهم يرتاحو في عضمهم.

صحينا نشيطين زي الحصين، التكح ولا العوجة دي ما عندنا، بعد ما شربنا الشاي وعشرة ونسة ظريفة مع أمي في الراكوبة قدّام التكل، دقشنا على

الحوّاشات، لقيت أبوي يحرت في الأرض، قلت لأتيم، تعال بالمرة يلاك جرّب وإتعلم ليك حاجة ومنها نكون ساعدنا أبوي شويّة.

أها القصّة دي شدتنا من الصباح لحدّي مواعيد الفطور، أتيم كان مبسوط جدا، بعد شويّة بقى شغال براهو يقلّع في الحشايش ويفتّح في المجاري، إندمج في الشغلانية، لقيت فرقة أتونّس مع أبوي شويتين، أصلي كنت مشتاق ليهو ولي زمن ما قعدت أتونّس معاهو زي الناس.

سألني عن أحوالي وعن القراية وعن ناس عمّي، معظم الحكاوي الكنت بحكيها ليهو أصلا هو عارفها كويّس، بس الحكمة كانت في الونسة نفسها، كان بتكلم معاي بهدوء ومودة ظاهرة، أدّاني إحساس إنو بقى يتعامل معاي كزول عاقل وكبير محترم وليهو مكانتو، الحاجة دي دخلت جوّاي سرور عظيم، ونزلت على قلبي بدفء وحنان، كونوا لأبو يدي ولدو مكانتو ويحسسها بيهو، دي شيتن ماهي ساهلي تب.

أها بعد فطرنا الحِلَّة صنصنت زي عوايدها، ده الوكت الناس تبدا تقل فيهو حركتها لحدّي مواعيد صلاة الضهر، بعدّاك تقيّل وتنوم لحدّي العصير حتين يرجعوا للزراعة تاني، ما كنا شاعرين بأي تعب رغم إننا إشتغلنا من الصباح في الأرض، قمت قلت لأتيم يلاك معاي، مشينا نفتش على ناس عبد الرحيم والدخين لحدّي ما لقيناهم في المزارع.

كنت متشوق ألاقي ناس الدخين بأتيم، عايز أتيم يستمتع بإجازتو معاي في البلد لأبعد حد ممكن، لقيناهم قاعدين تحت ضل نيمة، أول ما عبد الرحيم شافنا جايين طوّالي وقف على حيلو وإستقبلنا إستقبّال حلو، من ساعة وصلنا ما كنا إتلاقينا، لكن الدخين إتداغل ورفع نخرتو لا فوق بلا سبب، في الأول أبى يقوم على حيلو كلو كلو، تاني قام برّاحة وسلم علي ببرود، لمّن لقاني بحمّر ليهو. ويا الله الله سلّم على أتيم بطرف يدّو وهو بعاين ليهو من فوق لتحت نظرة حقارة، اللحظة ديك شياطيني كلها إتلمت وهاجت، حسّيت بالحرج والغضب في نفس الوكت، كنت غضبت غضب شديد خلاص، لكن قلت مافي داعي أسألو هسي قدّام أتيم، بدكّنها ليهو لا بعدين، ببيّتها ليهو لحدّي ما ألم فيهو براي، وبعدين بعرف أنظمو كويّس، أتيم أكيد لاحظ، لكن لأنو مهذّب و ود ناس أكلها في حنانو وقطّم.

رغم إنو الشي حرقتني لكن قلت يا عمك دحين مافي داعي هسي نتور المشاكل ومعانا ضيف، النقوم نتجاوز هسي، فعلا عرفتّهم بأتيم وإنو من

الخرطوم، ومن ياتو حتة في الخرطوم وبقرا معاي وكده، وقلت لأتيم أقعد، وكلنا إنبرشنا في واطة الله دي، لكن كنت بعاين للدخين بطرف عيني، شايفو برضو ما راضي، ما عارف بالضبط مالو الزول ده والما عاجبو في صحبي شنو بالضبط؟.

بدينا نتونس عادي، وأتيم بدا يتكلم زي العايز يكسر الحواجز، الود الأبنوسي كان ذكي، عبد الرحيم إندمج معاهو في الونسة، وأنا كنت شادّي لي إبتسامة في وشي نظام مبسوط ومتابع وعيني مرّة مرّة في الدخين المدنقر في الواطة ويسوط فيها بي عود، شويتين وإتلموا علينا باقي أولاد الحِلَّة، بقينا سبعة، مع الونسة والفرفرة والجوطة نسيت الدخين وبياختو، في الأول كنا هادين، ونسات خفّافي، بعد شويّة إندمجنا في ألعاب زمان، وهاك يا مقالب وضحك وفرفشة، كنا جايطين جوطة شديدة وماخدين راحتنا على الأخر، أصلنا بعيدين من الحِلَّة ومافي زول حينزعج من كواريكنا.

أها قوماك كده فجأة الأولاد بدوا يصنصنوا بالترتيب، ما فهمت الحاصل شنو، إتلفت لقيت محمد أحمد الترباللي أب شنبا عجيب جاي علينا وعيونو مولّعة زي الشرر، ما عارف ليه إتذكّرت فجأة يومي الكنت مسافر للخرتوم أول مرة؟ يمكن عشان نفس العيون الحمر الزي الجمر دي، لكنها أمانة ما موقدة نار المرة دي، رغم إنو الموضوع ده طوّل بس قلبي أكلني، في شنو؟ الزول ده مالو؟.

***

أول سؤال سألتو روحي، يا ربي جاي عشان تارو القديم؟ زمان صحي كنّا شياطين وأولاد لذينا، بس خفّينا، وكمان كبرنا ياخ، ما معقولة يكون لسّة متذكر لينا بلاوينا الزمان ديك؟.

أصلو كان مرّة إتلمّينا أنا وعبد الرحيم والدخين بعد سهرة كاربة في النادي مع الكشتينة، لطشنا حقة سلامة الأطرش إليلت الصاعوط بتاعتو، كالعادة، أصلو كان حيطتنا المايلة، وقمنا مرقناها جمب الحِلَّة، كنا مرات بنحب نتكّل في كوم تراب ما بعيد من كنتين حاجة سكينة بت ضيف الله، المراة العاملة زي العلم فوق رسها نار دي، أي زول في الحِلَّة بعرفها كويّس، أكان صغير ولا كبير، مراة ولا راجل. بالنهار زولا كده يسترجل يجي مارّي جمب كنتينها مافي، علا تراهو زولا ولا زولة جابتو الجبرية ساي، أو يكون مغروض فيهو شديد، وصاحب حاجة ما لقى ليهو حل تاني غيرها، يبقى خلاص في الحالة دي معروف قاصدها عديل، ويشيل شيلتو مع لسانها السليط.

لوجيت لحدوت عنديها ياكا الإنكربت تب، ياكا الإدردقتا ياكا الإتدردقتا، أو شالت شماراتك غصباً عنك، عندها نظرات كده لمّن تعاين ليك بيها، يا لطيف ألطف، تقدك من قدّام لا ورا، أصلو ما بتقدر تكضب عليها. أكان قلت أتخارج ساي وما أديها أي شي مفيد، ياكا التعبت معاها، خوف ساي حتفك ليها حاجة حاجتين عشان تتحل منها وتطلّق كرعيك، أو يا إمتن تداهمك هي، تتعابط فيك وتتشعلق في رقبتك ما تفكك لمّا تخليك تقول الروب وتفرشلها في واطة الله، وبعد داك تصقعك بالكلام الحار زي النار لمّن تهري فشفاشك تخليك تتلفت تفتش في اليسكّتها.

أها في لمتنا ديك كنا قاعدين نتونس ونكتل في الوكت، والقمْرة دي فوق مدلدلة من السما، قام الدخين المسخوت إقترح:

- يا جماعة رأيكم شنو نعمل مقلب في محمد أحمد الترابالي أب شنب؟..

عبد الرحيم نخنخ قبل ما يسمع المقلب ذاتو شنو، وأنا عارفو ليك زول ما بحب الشبك، يمكن أنا ذاتي أكون إتفقت معاهو في اللحظات ديك، أنا رديت للدخين:

- يا زول هوى، أرعى بي قيدك، نشاغل سلامة الأطرش ممكن، أولاد الحِلّة ممكن، عمّك بلة العموش ذاتو ممكن، لكن محمد أحمد؟، إنت الله ما ليك ولا شنو؟..

- لا لا، يا زول كدي أسمعني، أنا كل يوم بلاحظ ليهو بنزل البحر(14) ميطي(15) بعد الضهر يستحمى لمّن الناس تمشي تقيّل، أها بعد ما ياخدلو حمّاما كارب، يقوم يمرقها قريب جنينة ناس ود الحسين..

قمت قاطعتو:

- ود الحسين؟ بعمل شنو هناك؟..

أي زول في الحِلّة عارف كانت في حساسية قديمة بين ود الحسين ومحمد أحمد الترابالي، ما بدوروا بعض كلو كلو، وسبب واحد يخلي محمد أحمد الترابالي يقرّب منهم أو من جنينتهم أو من بيتهم مافي، الموضوع ده قديم ياخ، أي زول عارفو، حساسيات من نوع العوارة عوارة ديك، حاجات كده تافهة زي عبط الشفّع، حاجة ما بتقدر تتخيلها بعملوها الكبار. بس الشمار كتلني، شين بدور محمد أحمد الترابالي منهم؟، وعشان الدخين يعمل للموضوع راس وضنب وقعر، قام قلب على صفحتو وقبّل علي، تحت ضو القمر شفت وشيهو، الغتاتة كانت باينة من تضاريسو:

- مش قالولكم قاعد يحب بت ود الحسين؟..

أنا أمانة ما الخلعة قامت بي قومتن، تورتني زي اللدغتني عقرب ولا دابي(16)، نطيت لا فوق على حيلي فرد نطة، ونسيت الليل والضلام والناس النايمة وقعدت أكورك:

- بحب منو؟ بت منو؟ آزول ها!..

الدخين نط معاي لا فوق لحقني بقي يكابس في خشمي يقبقب فيهو بي يدينو الإتنين، أصلو الليل في حلتنا فضيحة، بقى يوسوس لي:

- آزول مالك؟ تدور تفضحنا؟ أبقى قاعد ساي، وطّي صوتك ياخ..

قعدت وماني مصدّق حرف من البسمعو ده، وعبد الرحيم ساكت ساي فارش الواطة في رقادو، ظنيتو عندو فكرة عن النضم ده، قمت سألتو وأنا لسّة مخلوع:

- إنت يا عبد الرحيم بي جدكم؟..

إتنحنح زي المتورنو من النوم:

- آيا..

- كيفن عاد الكلام ده؟ أمانة دي ما مشكلة كبيرة خلاص..

بقيت أفكّر في الكارثة دي، ود الحسين؟ وبنيتو الواحدي دي؟ يحبها ليهم التربالي؟ أروروك، طيب ناس الحِلَّة كيف لو عرفوا؟ حيحصل شنو؟ لا لا، دي مصيبتن كبيرة خلاص! قلاّني الدخين من تفكيري:

- أها شين قولك؟..

زي الزول المودر كده وبتفش، يا دابك رجع لي الكلام كلو:

- إنت شين بتدور تسوي يا الدخين أخوي؟..

- شين بدور أسوي دي خلّها علي أنا، باكر بديكم خبري، دحين خلونا نمشي نهجد، باقي لي حيلنا إتهد الليلي، اليقومنا شنو دغش لصلاة الصبح آآناس؟..

إتفرتقنا من حتتنا ديك على بيوتنا، كل زول شايلّو بطّارية في إيدو يقش بيها الدرب من العقارب والمصايب، الدخين بدور يعمل شنو دي ما كانت شاغلاني كتير، تفكيري كلو كان في قصة الحب العجيبة دي، حباهو الشنو داك! فقرا، أصلي من يومي ما بدورو التربالي ده، كمان يحبلو بنيّتن سميحوني زي بت ناس ود الحسين دي؟.

أها، لامن رجعت البيت وإتمطيت في العنقريب في نص الحوش وضربني الهمبريب، يا دابك راسي بدا يرجع لي، لقيت قصة الدخين إلليلت بدور يعمل شنو باكر، كانت هي القصّة الأكبر والأهم، تراني دقست، بقت لي أكبر من قصة ريدة

محمد أحمد لي بت ناس ود الحسين ذاتها، حباهو البرص، أها هسي نسوّي شنو؟ تراني شربت وما رويت!، أقوم أمشي هسي أفتش الدخين في نص الليل ده ولا عاد نسوّي كيفن؟ ديك ليلة النوم فيها جافاني وأباني تب، غلغلة من جوّة، لّمن يا الله قمت لأبوي للفجر، تعب تعب شديد عشان يتورني، كل ما يصحيني، يمشي ويجي يلقاني تاني رجعت نمت.

***

الدخين الدغيل ما جا الجامع اليوم داك، الوهم بكون نام. لّمن الصباح فتّح أخيرا، شربت الشاي بسراع مع الحاجّة وبقيت مارق بداري، النمشي نشوف الدخين المرض ده وين؟ باقي لي الموضوع بستاهل تب!.

عشان أصل بيت ناس الدخين كان لازمن يجيبني الدرب قدّام كنتين حاجّة سكينة بت ضيف الله، كنتينها كان فاتح في وش الشمس، التقول ماخدلو مواعيد حمّام معاها كل صباح زي مواعيد التربالي مع بنية ناس ود الحسين، بابو صغيروني عامل زي الطاقة كده، ومبقّع بقع سودا من أتر اليدّين والوسخ، ملطّخ بيها هنا وهناك، نان هي فاضية ليهو تنضفو ولا تحككو من الشمارات والخبارات والقوالات؟.

شدّيت خطوتي بدور أمر من قدّامها بدون ما تشوفني، وبقيت أتخيل نفسي زي الراكبلي دحشة من شدة ما أنا ماشي بسراع وبدون ما أتلفت أعاين ولو بالغلط أشوف جوّة الكنتين في شنو.

- حسين!..

"أنا أخوك يا الحاجة!"، أخخخ، الكترابة، أمانة ما وقع راجل، ظنيتو الشرك قبض ومافي طريقة فرّة، بالله لّمن المرة لعلعت وكوركت بإسمي لّمن حسيت بقلبي ده وقف، الله يمرقنا منك يا السليطة أم لسان!.

- أي يا حجّة سكينة!..

ربكة ساي نسيت وقلت ليها يا حاجّة، يا حجّة دي ما بقولها ليها إلا لّمن أكون رايق بدور أشاغلها أو مغيوظ منّها بدور أفوّر دمّها، لكن اللحظة ديك كنت مودر واللسان غلاّب.

ردت بزعل:

- الحجّة التلولي بيك..

دعّايتن المرة دي! كضمتها، دحين ماني فاضي أتلادح معاها هسي، هي ذاتها يتلادحوا معاها كيفن زي دي؟ واصلت بخبث:

- أمس مالك يا المبخوت؟ مالو صوتك عالي تكورك نص الليل؟..

بلعت ريقي بصعوبة، الزرزرة بدت:

- أنا؟..

- باقيلك بكون أني؟ أكون يا ربي قمت نصت الليل زي المجنونة أكورك بحبها؟ بحبها؟..

أها، عرفت الموضوع ده ما ماشي على خير، لو المراة دي دحين قعدت تحكّها معاي، حيقوم لساني يفلت مني غصبا عني وتبقى ورطة جد جد، عملت فيها إتذكّرت وقعدت أضحك، ما لازم الكضبة تكون متقنة ومقنعة:

- أها، لا ياخ، ده الود المسخوت عبد الرحيم ده، كنا أمس مساهرين هنا في كوم التراب داك.

قمت أشرت عليهو و واصلت في الكلام:

- أها بس الدخين قال لي عبد الرحيم بقى يحب..

- عبد الرحيم ود ناس عبدالقيوم؟..

- آيا، ياهو ذاتو..

عاينت لي مسافة، تحرق في حشاي وهي بتنجّض في الكلام زين وتقلّبو بي عويناتا في صدري، مقتنعة وما مقتنعة إتفكيت منها، ودّعتها وبقيت مارق مواصل في مشواري، قبل ما أختفي من قدّام كنتينها زي الناس شكلها إتذكّرت حاجة قامت كوركت لي تاني:

- نان محمد أحمد الترابالي قلتو مالو؟..

قلبي وقع تحت كرعي، أبيت تاني أتلفت عليها نهائي، يطرشني، عملت فيها أطرش وأبكم وأعمى، المسخوتة تراها كانت بتتصنّت علينا!.

أها قمت لميت في الدخين، طالع من بيتهم يادوبو، عيونو ورمانة من النوم:

- شربت الشاي؟..

- إنت الشاي خلّو، بتدور شنو من صباح الرحمن يا حسين؟..

- كيفن بدور شنو؟ بدور نهاية القنبلة الفكيتها فينا أمس دي ياخ!..

- يا زول ماك نصيح؟ صبّح الواطة دي بعدين نشوف الموضوع ده..

ما كتّرت معاهو النضم، جريتو من يدو ومشينا على شجرة في نص الشارع، ما عايز زول يسمع كلامنا:

– أسمعني، ما تعمل لي حجوّة أم ضبيبينة، أنا ما نايم الليل كلو، و ماني فاضي، أحكي لي هسي من طق طق للسلام عليكم.

أنا ذاتي حكوة أم ضبيبينة دي شنو ماني خابرها، بس شيتن نقطع بيها دابر الكلام! وبدا يحكي لي في القصّة من الأول، كيف مرّة بالصدفة شاف التربالي لأول مرة مع سعاد بت ود الحسين، وكيف البنّوتة بقت تتخجّل وتنهر في الواطة برجلها مدنقري، تتكوشم وتتبلّم، والتربالي العوقة فاصل للضرس، وأكان شفتو، وشفت شنات التِبسِّم والضحك في وشيهو؟ قادر الله ومخير الله، أها لقيتلك الحاكاية دي يومي بتحصل، ومرات مرات البنيّة تجيبلو شيتن كده ياكل ويمسح شنبو.

– مخير الله، ده كلو حاصل؟..

– آيا..

– طيب أها، بتدور تعمل شنو؟..

– أها يا سيدي ليك، بقى الموضوع ده طوّالي في بالي، بقيت أراقب ليك محمد أحمد التربالي ده من الصباح، أهم برنامج يومي بعملو، بقوم يمشي البحر يستحمى قبل ما يلاقي البنيّة، أها..

وقامت سكت.

– ما تقول يا فقُرا!..

– أها نقوم نحنا نمشي بعدين برّاحة، لمّن ينزل البحر نشيل هديماتو ديل نودرها وننتقم منّو..

وقامت عويناتو برقت زي عيون الشيطان.

– أها وبعدين؟..

– بعدين شنو ياخ؟ ما قلت ليك الزول ده بنزل البحر ميطي، يعني حيحصل شنو تاني مثلاً؟..

ما إتضايقت من إعتراضو، قلت أوريهو شغل الغتاتة المّا بعرفو على أصولو:

– تشيل هدومو وتمشي ترميها قدّام بيت ناس ود الحسين قبل ما البنيّة تجي مارقة..

الدخين نطط عويناتو كبار، عجبتو ليك القصّة دي جنس عجب!. أها فعلا اليوم داك خلّصنا شغلنا في الزراعة بدري بدري، إتجهدّنا تب للمقلب بتاعنا، عبد الرحيم كان الجاسوس بتاعنا، فرّغناهو يتابع لينا الترابالي أول بأول، لمّن جات المواعيد، مشينا إتلمينا عليهو أنا والدخين، رص لينا الأخبار كلها بالتفاصيل، أها قمنا إتضارينا التلاتة ورا الشجر وبقينا نتابع فيهو من بعيد.

لقيناهو مرّة يشتغل ومرة يسورح، أتاريهو الزول البريد ده قلبو ببقى رهيّف خلاص. أها، لمّن مواعيد البحر جات، طوّالي جدع الطورية وبقى مدردق على القيف، عندو شجرات كده عاملن ضروة ومغطيهن زي الراكوبة، وشجيراتو دي واقعة مع البحر طوّالي، قرّبنا منو لحدّي ما بقينا نسمع حركتو ونخنختو، وشايفين ضلو. أها، بعد شويّة نسمع الجمبلغ، وزولنا نزل البحر!. قمت لكزت الدخين، عاين لي بصرصرة، همست ليهو برّاحة:

– يا زول مش دي فكّرتك؟ يلا إنكشح..

أها قام الدخين بقى يزحف برّاحة زي الدّابي لحدّي ما وصل الضروة، فتحلو فيها طاقة صغيروني من تحت وبقى يسل في الهديمات هديمة هديمة بهدوء، جرّ العرّاقي والسروال وعندو فنيلة داخلية كده ما تفرزها من الواطة، لونهم واحد، وجا راجع منسلي.

– أها؟ جبت كل شي؟..

– أيّا، كلّو تمام..

– متأكد يا زول ما خليت أي حاجة؟..

– إلا كان النعال بس!..

قعدت أتخيل منظرو ميطي زي ما الله خلقو لابس نعالو بس، وقعدت أضحك بصوت واطي. قام الدخين مدّ لي هدوم الترابالي:

– أمسك..

– أمسك شنو يا زول؟ إنت ما ليك راس؟..

وأنا شغال ألز ليهو فيها أرجّعها في يدّو.

– أنا مش جبتها؟ يلا خلاص الدور عليك إنت تقوم تمشي تجدعها قدّام بيت ناس ود الحسين..

– لا لا، أنا بفكّر ليكم بس، يمين الهدوم الوساخنة دي ماني شايلها!..

وبدينا نتحجج وقرّبنا نكشف نفسنا، خرخرت ليهو زين، في النهاية عبد الرحيم الطيبان إتنازل وقال خلاص أنا بوديها.

***

من دربنا بقينا مارقين على بيت ناس ود الحسين، قطعنا المسافة الفاصلة بين ضروة محمد أحمد الترابالي على البحر وبيت ناس ود الحسين الفي طرف الحِلَّة وفاتح على المزارع في دقايق، ماشين من سكات وأنا بفكر في الريدة الغريبة بين الترابالي وسعاد بت ود الحسين، شين بتشوف فيهو المقطّع؟ سغيل ودغيل وما بتراد، سبحان الله حب الناس مذاهب.

أها قمنا وصلنا، الحتة مصنصنّة ومافي أي زول حايم، بس تسمع شقشقة عصافير وصوت موية جارية في جدول قريب دافرها لستر من بعيد، جمب البيت شجر نيم كتير رامي ضل عجيب ينعّس ويرخم بالزول قبلو.

أشرّنا لعبد الرحيم من سكات، طوّالي زولنا إتحرك مشى على البيت مخمخم الهديمات زي الحرامي يدّبا، لمّن وصل شجرة نيم زي خمسة أمتار كده من البيت جدع الهديمات في الواطة ورجع جاري، أها قمنا إتضارينا ورا كتل شجرات كده مع بعض، وبقينا نراقب الموقف من حتتنا.

مرت زي نص ساعة كده لمّن بقينا نحاحي زي الضاربنا جرب، بقت لينا طويلة طول ما عادي، بس ما كان في طريقة نتحرك أي حتة، يعني الشمار والمقلب ده نخليهو لمّنو؟ أها، بعد النص ساعة البنيّة فجعتن جات مارقي، أتاريها سميحوني زي القمرة، خفة ورشاقة ووشيها يندّي، جات مارقة بسراع زي الخايفة من شي وتتلفّت زي الطيرة.

أها تقوم عينها تقع على الهديمات، فجأة قامت وقفت، حسيت بيها محتارة، قعدت تعاين في الهدوم مسافة، باقي لي شبّهتها، بس ما عرفت تتصرف، بقت تتلفّت بحذر، الدنيا لسّة صانة ومافي أتر لأي زول، إتشجّعت شويّة، جات لحدّي ما وقفت جمب الهديمات، شكلها عرفتها بتاعت المريود، رفعت العرّاقي بحلقت فيهو زين، لكنها وقفت مكانها. واضح إنها ما عارفة تتصرّف، قلبي أكلني، حتعمل شنو؟ ما تقوم تخرب علينا البرنامج ياخ، قمت قرصت الفرد برّاحة:

– إنتظروني هنا..

الدخين عاين لي بخلعة:

– عايز تعمل شنو يا مجنون؟..

- ما تخاف، حأظبط ليكم الموضوع..
- كيف؟..
- بس عاين وحتعرف!..

قمت من حتتي كبّرت اللّفة بهناك وجيت داقش على البنيّة، كانت أكبر مني بكم سنة، لكنها ما شاء الله تبارك الله، عيني باردة، فتاة راسو عديل مافي كلام، ومن كم سنة بقت تلبس التوب بعد ما ربّتلها نهيدات وجسمها إتملا، ده الكلام الكانوا بقولوهو نسوان الحِلَّة، مرقوها من المدرسة مخصوص على قولهم لإنها بعد كده بقت زولة عرس تب!.

***

لّمن قرّبت منها كان الهوا شايل مسرّاتها الخفاف يتلاعب بيهن لعب تحت طرحتها، أنا عارفها الزراعة دي ما قاعدين يخلّوها تقرب منها، كانوا مدلّعنها ومدللنها، بقولوا عيازها محمد ود عمها، وهي ما بتدورو، ومحمد قام زعل من عمو لأنو ما عايز يضغطها ليهو يخليها تعرّسو، أصلو ود الحسين ده بحب بتو دي حبا كده شديد خلاص، وبريدها جنس ريدة، أصلو ما برضى فيها، ما ظنيتو يقدر يفارقها ولا يجبرها على عرس هي ما عايزاهو.

من شافتني حسيت بيها إتضايقت، وخجلت، قامت رمت العرّاقي سريع وعايزة تقبّل على بيتهم تزوغ، لكن تاني شكلها غيرت رأيها، تكون شافتها شينة وتبقى زي المجرمة لو أنا وصلت محل هي كانت واقفة ولقيت الهديمات هديمات راجل ومجدّعات قدّام باب بيتهم كمان، بقت منتظرة محتارة تعاين لي لحدّي ما وصلتها، سلّمت عليها، وأنا عارف الفرد بكونوا متابعين من بعيد:

- إزيك يا سعاد، أخبارك؟..
- إزيك يا حسين..
- خبارك يا سعاد مجدّعة الهديمات في الواطة، دي بتاعت صدّيق؟..

كنت عارف صدّيق أخوها جنّو عراريق، ما بلبس غيرها، تلاقيهو شغّال في الحوّاشات النهار كلو لا بكل لا بمل.

- ماني خابراها يا حسين، لقيتها واقعة هنا في الواطة..

عملت فيها مستغرب وفي نفس الوكت مهتم، قمت وقفت:

- واقعة؟ كيفن الكلام ده؟..
- والله زي ما قلت ليك ماني خابرة..

– أمممم، مش ممكن تكون بتاعت زول فقدها ومغروض فيها شديد؟..

شفت عيونها زي برقت، وقامت مطّت شلاليفها، وكأني لمحت فيهن قلق، شكلو كلامي وقع ليها في جرح:

– طيب ما تشيلها تفتش سيدها يا حسين؟..

إترجّتني بصوت منكسر حلو حلاة، لكن لو شلتها ما القصّة كلها باظت!..

– يا ريت يا سعاد، لكن أنا مستعجل مرسلّني مرسال ضروري، يلا فتك بعافية..

خليتها واقفة في مكانها ومشيت منها سريع عشان ما أديها أي فرصة تفكر، وأبيت تاني ما أعاين وراي أشوفها حتتصرف كيف لحدّي ما إتأكدت ما حتقدر تشوفني، قمت وقفت بعيد أعاين ليها، لقيتها شالت الهديمات ومشت على الجروف، قلبي رقص جنس رقيص.

أها طبعا الوكت داك كنت فارقت صحباني، أنا من ناحية وهم من الناحية التانية، عارفهم بكونوا متابعين، بقيت أنا متابع سعاد من بعيد، محاذيها من غير ما تشوفني، كانت ماشة على إتجاه حواشة ناس عبد الغني البشتغل فيها التربالي، مرّات تقوم الحتة تكشف أنتظر لحدّي ما يغطيها الشجر، حتين أقوم بعدّاك أتحرّك بسراع أقطع المسافة بيني وبينها لحدّي ما أصل ضروة شجر تانية، زولتنا شايلة الهديمات وماشّة بسراع، فرقة خطاويها صغيروني، حلاة خطاويها البتمشيها.

أها قمت أخيرا لّميت في ناس الدخين وعبد الرحيم، لقيتهم منتشين بالبرنامج، متابعين بهمة شديدة ونشاط، عايزين يشوفوا نهاية الفلم ده شنو، وشهم ضاحك وشمتان، أها لّمن سعاد وصلت الحواشة قعدت تتلفت، مافي أي زول، قامت مشت بإتجاه الجروف، هناك الشجر كتير، وأنا شلت هم، حنتابع كيف تاني؟ ما بنقدر نتقدّم أي خطوة لقدّام بدون ما ننكشف!.

ثبت الدخين وعبد الرحيم بيدي ما يقوموا يتهوّروا يتقدّموا أي خطوة، حتّتنا كانت ساترانا كويّس، بقينا نتابع ويدنا في قلبنا ما يفوتنا أي منظر من المقلب. البنيّة قبل ما تصل الشجرات الأخيرة، يقوم التربالي فجأة يجي مارق قدّامها ميطي زي ما الله خلقو، نعالو ذاتو ما لابسو، أنا غايتو من حتتي ما شفت شي غير لون زول واحد من فوق لحدوت تحت، اللهم إلا شنبو بس الكان ظاهر معاي من بعيد.

بالله البنيّة فكّتلها صرخة، صرخة زي السم، رمت الهديمات وغطت وشيها بيدينها الإتنين وقبّلت منو لا غادي بقت تجري وتكورك، زولنا ذاتو إتخلع خلعة شديدة خلاص، صرخة البنيّة والمفاجأة خلتو يرجع لا ورا ويقع على ضهرو، وبقى يكابس في الشجر يفتش في السترة، ومن محلتو ديك يكوركلها "يا سعاد...يا سعاد"، والبنيّة ولا عليك بيها، تجري وتكورك، تجري وتكورك، تاني بقت تقع وتقوم، تقع وتقوم، وجارية وتبكي!.

أنا من شفت منظر الخلعة في وش الترابالي وردة فعل سعاد غلبني تاني كلو كلو، ضحكت ضحكت بأعلى صوت، والدخين ده فرشها في الواطة عديييل هو عبد الرحيم، رقدوا الإتنين وبقوا يتدردقوا تحتي، صوتنا أكيد كان عالي و واضح، الترابالي من محلتو ما قادر يشوفنا، لكن عرف في أولاد من الحِلَّة دقوا فيهو مقلب، وفضحوهو قدّام بنيّتو، الليلة لو لم فينا واطاتنا أصبحت، لكن منو البنتظر تاني؟.

أها، ضربت البفرفرو في الواطة ديل بيديني الإتنين بنج، يعني كفاكم، قوماكم سريع نتخارج، هم لسّة بضحكوا وأنا ذاتي لسّة ميت بالضحك، غايتو قوّمتهم بالعافية وبقينا جارين على الحِلَّة والضحك عايز يشرطنا، عيوني دمّعت بالبكا وبقيت جاري ساي ما شايف أي شي، والمّنظر نهائي ما عايز يسيبني ولا يفوت مني، كل ما أتذكرو أرجع أضحك زي المجنون وأنا لسّة جاري وجاري، أهم شي في اللحظات ديك الترابالي ما ينقشنا نحنا منو!.

الترابالي المسكين فضيحتو بقت فضيحة بجلاجل، كواريك البت لمت فيهو الناس من وين وين، الشايل عصاية، الشايلّو عكّاز، لا هو قادر يقول للناس الحصل شنو، ولا البت قادرة تحكي تقول حصل ليها شنو، المهم اليوم داك وكم يوم تاني الحِلَّة لقت ليها موضوع من مافي، بقى ما عندها موضوع ولا ونسة غير بت ناس ود الحسين والترابالي، البت حكت قصة براها والترابالي عندو قصتو براهو، زول إقتنع بي كلامهم مافي، لأنو أصلا مافي علاقة بين القصتين، وزول عارف القصّة الحقيقية غيرنا مافي، ونحنا طبعا عملنا رايحين، لا من شاف لا من سمع، لكن الإستلم الموضوع جد، كانت حاجّة سكينة طبعا، ألّفت ليها قصة من مافي، حاجة كده بين قصة الترابالي والبنيّة، بقت تحكيها بمناسبة ومن غير مناسبة، لمّن بقت هي الرواية المّاشة في الحِلَّة.

أها البت من الموقف داك كرهت ليك الترابالي وكرهت سنينو، هو ما عندو ذنب أي نعم، لكن الكلام فيها كتر وما قدرت تستحملو، بالذات لمّن شافت زعل أبوها

المّا مقتنع بي كلامها لمّن تقول ليهو والله يا أبوي ما حصل حاجة، ما قادر يصدقها لأنو كل ما يسألها تتزاوغ وما تقدر تحكي ليهو الحصل شنو بالضبط، تحكي كيف إذا كان الموضوع حيكشف علاقتها بالتربالي؟. وعلي العليها تقولّو شُفتو عريان؟.

أها كمان صدّيق أخوها قال أصلو ما بخليهو، قال إلا يجغجغو، ما حلّ منو التربالي إلا تدخّل الأجاويد الهدّوا الموقف طالمّا مافي شي باين ولا واضح وقلعو منو السكين، أها التربالي من يومو داك شاكّي فينا، بالذات نحنا التلاتة ديل، وفي التلاتة شكلو مركّز معاي أنا أكتر، كل ما يلاقينى يديني نظرات زي الجمر، لكن غالبو يسألني، يسألني كيف؟ عريان وكمان يتفاصح؟ حيران وما عندو دليل، قال بحب قال!.

***

التربالي قرّب مننا، لقيتو شايلو طوية في يدّو، إستغربت طبعا، لكن وقفت وسكت ما قلت البغم زيبى وزي الباقين، وقف قدّامنا بعاين فينا كلنا بغضب، حسيت نظراتو لي بالذات فيها شي مختلف، تحس فيها تار قديم، أصلو ما إتهزيت ليهو، ولا كسرت عيني.

– الجدعني بالطوية دي منو يا حيوانات؟..

الكلمة الأخيرة دي وجعتني شديد، وشفت فيها عدم إحترام مبالغ فيهو، مش لي نفسي براي، حتى بالنسبة لأتيم ضيفي وصحبي، الزول ده ما إحترمنا ولا إحترم ضيفنا، طوّالي شبيت ليهو أنا:

– أولا إحترم نفسك، ما تقول علينا حيوانات، تانيا شايفنا قاعدين نلعب بي طوب؟ مافي أي زول فناك ولا جدعك بي طوبة..

ما إشتغل بي كلامي كتير، لقيتو مركّز في أتيم، فجأة وبدون أي مقدّمات نط في أتيم وخمشو من كتفو، أتيم قصادو بقى رقيق زي فرع البانة مقلّع عويناتو ومخلوع، أنا ذاتي إتخلعت ما مصدّق وما فاهم البحصل.

– إنت يا عبد يا واطي، فانيني بالحجر ليه؟..

وبدون ما يديهو أي فرصة يدافع عن نفسو بقى يكفّت فيهو يمين وشمال، وأتيم ما قادر يصدّو، التربالي كان قوي شديد وعضلاتو مفتولة، وأكبر منو في العمر والحجم، عمرو كلو ماسك الطورية والمنجل. باقي الأولاد خلعة ساي ما قادرين يتصرّفوا مجمّدين في حتتهم، الجو إتكهرب شديد، والنفس بقى حار،

والموقف صعب، قمت بدون أي مقدّمات نطيت في رقبتو من ورا عشان أفك منو أتيم، الساعة القام لفّ فيها يدينو حولين رقبتو وخمشني من ورا، طيّرني فوق في الهوا وجدعني هناك تلاتة أمتار، رجع تاني خمش أتيم وقعد يلبّع ويكفّت فيهو.

تاني قمت على حيلي، الأولاد بقوا يجوطوا ويكوركوا فيهو يحاولوا يفكو منو أتيم، وأنا ذاتي بقيت أكورك فيهو،"فكّو.. فكّو"، وهو شغال ينبذ فينا كلنا:

- يا أولاد الكلب، أنا حأربيكم..

بقولوا الغضب بمرق منك الصدق غصبا عنك، قمت هجت فيهو:

- تربي منو يا عريان يا حيران؟ تقول لصحبي أنا عبد يا عبد؟..

الساعة الإتجمد فيها في مكانو فجأة وقام فك أتيم، قبّل على بي وشو وجسمو كلو وعيونو المخيفة ديك وشنبو الكبير داك، حسيت بيهو زول عبيط ومقرف جدا، عاينت في الشلة لقيت عبد الرحيم والدخين زي الشافو ملك الموت من الخلعة، أصلو ما متخيلني أفت أخرنا، بعد ده بقت بيني وبينو راس، أصلو سيرة عريان دي نهائي ما زول جابها ليهو قبل كده، لا هو لا سعاد، في اللحظة ديك شكو كلو بقى يقين، معناها أنا الطيرت منو سعاد وهيجت فيهو ناس الحِلَّة وعملتها ليهو فضيحة في حلتنا والحِلاّل المجاورة كلها.

عارف مافي تكافؤ ولا مقارنة بيني وبينو، لكن كنت مستعد أعمل أي شي عشان صحبي، حتى لو أخلّي التور الأطرش ده يقبّل علي أنا وينساهو هو. وفعلا، في لمحة عين، الزول ده لمّ غضب الدنيا كلو وقشطني بونية، فرد بونية ما زادها، واحدة بس، تاني ما شفت ولا فهمت أي شي، الدنيا كلها كانت ضلّمت قدّام عيوني!

***

فتحّت عيوني لقيت نفسي راقد مكرفس في عنقريب في البيت، أول زول شفت وشو كان وش أمي، قمت مخلوع عايز أتحرك، سريع لحقتني ثبتتني من كتفي، سالتها بتثاقل وأنا برجّع راسي تاني لا ورا على المخدّة:

- أتيم وين؟..

- يا هوندا جمبك هنا..

إتلفت لقيت أتيم قاعد جمبي حارسني، وتاكل وشيهو بي يد واحدة وبعاين لي، راسي كان بنتح كلو، هبشّت لقيتو ملفوف بي خرقة، نخرتي كانت واجعاني وجع شديد خلاص، ما قدرت أهبشها:

- أتيم!..
- أيوة يا حسّو..
- نخرتي إتكسرت؟..

دنقر راسو متحسس ورد بصوت واطي:

- أظن كده..

غضبت اللحظة ديك غضب شديد، إتذكّرت كل التفاصيل دفعة واحدة:

- الله يأذاهو الفقر، أمي!..
- أيوة يا ولدي..
- الكواريك الفي الديوان دي شنو؟..
- ديل ناس أبوك وخالك وأعمامك ناس الحِلَّة..
- مالم؟..
- قاعدين مع محمد أحمد في الديوان..
- الترىالي قاعد في ديوانّا؟..

وطوّالي قمت على حيلي.

- أقعد يا ولد روق، راسك لسّة بكون لافي..
- لا والله يا أمّي ما أقعد إلا أمشي ليهم..

قدر ما أمّي حاولت معاي أبيت ليها، بقت تقول لأتيم أقنعو يقعد، لكن أتيم ذاتو ما قدر يقنعني، لمّا في النهاية قنعوا مني، قامت أمّي أشّرت ليهو يساعدني أقوم من العنقريب، راسي كان فعلا لافي، بس نهائي ما حأستسلم ليهو، ومن دربي على الديوان.

لمّن قرّبت من الديوان، أصوات الرجال بقت لي واضحة، سامعهم عاصرين الترىالي عصر شديد، واقعين فيهو لوم عدوك، إتلفت وراي لقيت أمي إستسلمت ومشت على التكل، طوّالي إتفكيت من أتيم وإنزغمت في أوضت أبوي، مشيت جرّيت عصايتو من تحت السرير، أتيم لمّا شاف العصاية إتجرّس، وبقى يحاحي فيني.

- أتيم أبعد مني الله يهديك، والله بخسرك!.

حاول معاي، لمّا شافني جادي وما بنهبش، قنع، فتح لي الدرب وزح من طريقي، دخلت الديوان كاري عصايتي وأتيم وراي، لقيت الديوان مدفوس لعين

أمو، التقول الحِلّة كلها إتكسرت فينا، أول ما دخلت الناس دي كلها قعدت تعاين لي.

أصلو ديوانّا حتى في نص النهار بكون شبه مضلم، أها كمان لمّن يجي زول داخل بالباب كده ببوظ الشغلانية نهائي لحدّي ما يمر، في اللحظة الدخلت فيها الأمة دي طبعا كلها قعدت تعاين الجاي منو.

كنت متخيّل أول ما أخش حأشوف التربالي في وشي عدل، وأقوم سريع أتناولو بعصايتي دي أخد بتاري وتار أتيم صاحبي وأجيب خبرو، لكن كترة الناس وراسي اللافّي والديوان الشبه مضلم جهجهوني، بقيت أفتش عليهو وسط الناس بصعوبة، شايف أولاد الحِلَّة الكانو بلعبوا معانا كلهم قاعدين بما فيهم الدخين وعبد الرحيم، وشلة من أعمامك الكبار فيهم ناس لسّة ما لاقيتهم ولا سلمت عليهم مما جيت.

أول ما شافوني شايل عصايتي ما شهّدوني، زول أدّاني فرقة ولا فرصة أتصرّف ولا أمشي خطوة واحدة لقدّام مافي، كلهم هبّوا فيني وثبتوني قبل ما أتحرك وقلعوا مني عصايتي بالقوة، الوكت ده كلو وأنا ما شايف التربالي لسّة، وأعمامك الكبار في الحِلَّة بحاولوا يهدّوا فيني:

"يا زول حمد الله على السلامة أول حاجة".

"كدي ألعن شيطانك يا ولد".

"إستهدي بالله".

أكتر صوت قدرت أميزو بوضوح كان صوت أبوي:

– كدي يا جماعة خلاص أهدوا، خلونا نسمع القصّة من حسين..

بعد ما الناس هدأت وكل زول رجع حتتو، بقيت واقف براي وأتيم من وراي أعاين في الناس، يادابي شفت المسخوت القشطني بنية، كمان متوهضلو في سرير من سراير ديوانّا، ما عارف الناس ديل حكوا شنو ولا وصلوا لشنو.

– تعال أقعد هنا يا حسين..

إتلفت على الصوت لقيتو صدّيق أخو سعاد، معقولة؟ يعني الليلة الحِلَّة كلها متلمية عندنا؟ أعداء، على أصدقاء؟ الليلة إلا أقوم بيك يا التربالي، وحتشوف براك!. قمت عاينت لصدّيق قوى، وعاينت للتربالي قوى، عايزو يفهم الليلة دي، قلة أدبو إلا أوصّلها حدها، إتلفت وراي على أتيم:

– تعال يا أتيم أقعد معاي!..

***

بديت أحكي، حكيت كل الحصل زي ما هو لا زيادة ولا نقصان، كانوا بقاطعوني كتير في تفاصيل صغيرة صغيرة، وكل ما زول يقاطعني الباقين يهيجوا فيهو عشان يسكت، قمت بعدّاك بزعل كده قلت ليهم بدون أي سبب يجي ناطي في أتيم صاحبي؟ قام هنا التربالي إتحمق ورد بنفس حار:

– بدون أي سبب كيف يعني؟ تفلّقوني بالحُجّار وتقولوا لي بدون سبب؟..

طوّالي شابيت طرف السرير:

– يا زول ما تتبلى فينا، زول رماك فينا بي حجر مافي، بعدين ده كلو كوم، الكوم التاني تقول لصحبي يا عبد؟..

الأمة دي كلها صنت، زول قال بغم مافي، الظاهر أول مرّة يسمعوا الكلام ده، أتيم سكت ساي، التربالي طوّالي دقنر في الواطة، بعد مسافة واحد من أعمامنا الكبار إسمو طيفور كسر حاجز الصمت بصوت واضح وجهوري:

– لا طبعا ما صاح!..

لقيتها فرصة، أنا بقيت في موقف هجوم، والتربالي منكسر:

– يقول ليهو يا عبد يا واطي؟، ويضرب فيهو ضرب أذية قدر ده ليه؟ عمل ليهو شنو أصلو؟ ما بقول الزول ده ضيفنا، أو غريب علينا؟..

طيفور لقى نفسو هو البدا الكلام وبقى موجه ليهو ولازم يرد:

– لا والله ما صاح منو نهائي يا حسين يا ولدي، لكن برضو عايزين نعرف الجدع الحجر في محمد أحمد منو؟..

أنا لحدّي اللحظة دي ما عارف إذا في حجر إتجدع فيهو أصلا ولا لأ، لكن إذا فعلا في زول جدع في التربالي حجر أنا برضي كنت عايز أعرف، بس متأكد ميّة ميّة ما أتيم، ولا الحركات دي شبهو.

قام التربالي إتشجّع هنا وعايز يداري خيبتو:

– والله يا طيفور زي ما قلت ليكم، أنا في شغلي في زول فيهم فلقني بالحجر..

قمت أنا قاطعتو في الكلام:

– أتيم صحبي ده أنا بعرفو أكتر واحد فيكم كلكم، مستحيل يعمل ليهو عملية زي دي..

قام طيفور دخل تاني في الكلام:

– طيب منو يا حسين؟..

بقيت أعاين محتار في باقي أولاد الحِلَّة الكانو معانا، قمت إتذكّرت، في زول واحد كان ما ياهو، معقولة؟ ممكن يكون الدخين؟ الزول ده بالذات حركاتو ما كانت مظبوطة مما شاف أتيم، لمعت في راسي فكرة، بدل ما أسألهم هم قمت سألت الترابالي:

– إنت يا محمد أحمد الخلاك تمسك في أتيم من دون الناس دي كلّها شنو؟..

عاين لي بتركيز زي العايز يعرف أنا بفكر في شنو، أو يعرف حسبتها كيف، قبل ما يرد ردو الصادم:

– أشّر لي عليهو الدخين!..

الصالون بقى كلو يهمهم، وأنا بقيت أعمى من الغضب، وراسي لفّ، ما قدرت أقوم، كان نفسي أقوم على الدخين أأدبو قبلو وأخد حقي وحق صاحبي منو، هو ذاتو غلبو اليقولو والناس بقت تعاين ليهو نظرة دهشة وإستنكار، عرفوا هو الجدع الحجر فتنة، أبوهو وأخوهو الكبير كانوا قاعدين معانا في الصالون لكن غلبهم يتحمّلوا وبقوا يتململوا، كنت مدنقر من الدوشة والغضب، رغم كده وأنا لسّة مدنقر في الأرض بديت أنضم:

– أمرق برّة بيتنا يا الدخين..

لكن صوتي كان مرهق وواطي شديد، ونفسي القايم بالزعل ما قدر يطلع واضح ولا مسموع زي الناس، وجوطة الناس في الديوان طمست على قدر الطلع منو، الوحيد الكان ملاحظ لي وسمعني هو أتيم، خت يدو في ضهرى عايز يخفف عنّي:

– برّاحة يا حسين، الموضوع ما بستاهل..

رديت عليهو بنفس صوتي المرهق والتعبان:

– ما بستاهل كيف؟.. ده زول واطي وحقير..

وقمت رفعت راسي وقبّلت عليهو وبأعلى صوت عندي:

– أطلع برّة من بيتنا يا حقير، أطلع برّة!..

بدون ما يقول أي كلمة، طوّالي بقى مارق، طلعوا معاهو إتنين من أولاد الحِلَّة، وراهم طوّالي أبوهو وأخوهو، قاموا على حيلهم ومرقوا، بقى الصالون كلو همهمات..

"لا حول ولا قوة إلا بالله".

"بالله شوفوا الولد عمل شنو؟".

"ياخي ده أحرج أبوهو وأخوهو قدّام ناس الحِلَّة كلهم".

أجمل زول في القعدة دي كلها كان الوكت كلو متابع لكن بصمت، وكنت شايفو بس ما كنت قادر أكلّمو في اللحظات ديك، وفي نفس الوكت ما عايزو هسي، عايزو بعدين بعد نخلص من كل الحاصل ده، اللي هو خالي عبدالقادر، لكنّو في النهاية قام براهو إتكلم بعد الناس مرقت:

- في حاجة عايز أفهمها يا محمد أحمد!..

الناس كلها سكتت وإتلفتت عليهو منتبهة، كان بيتكلم بصوت هادئ ورزين، وناس الحِلَّة ديل كلهم بحترموه إحترام كبير وبقدّروهو، زول فاهم ومتعّلم وتعاملو حلو مع كل الناس بدون فرز:

- ضربت أتيم كفوف وشلاليت وهي في حد ذاتها ما مقبولة، لكن ما أذيتو، طيب البخليك تأذي حسين قدر ده شنو؟ عشان كان بدافع عن صحبو مثلا؟..

***

يا أخوانا خالي ده فردة، موية نار، عسل عديل، دردق لي الموضوع من غير ما يقصد، لمّن أنا إبتسمت رغم ألمي وغضبي الكان لأمي فيني قبل شويّة وماليني حد الإنفجار، عاينت للتربالي بغل وتشفٍّي، لقيت عيونو جاحظة ووشو يلعن قفاهو، بعاين لي بخوف وقلق، ما باقي ليهو إلا يجي يبوس رجولي.

من شدة ما إتكيفت لمّن إستعدلت في قعدتي ونسيت ليك الألم ذاتو، عبد الرحيم كان قاعد هناك مضلبن وكاتل حيلو يعاين لي من بعيد نظرات زول نفسو الأرض تبلعو في اللحظات ديك، أديتو نظرة ما فيها أي معنّي، لو فهم منها حاجة حتكون "تابعني بس"، من موقف الدخين شكلو بقى مهزوز وما فاهم الحاصل شنو ذاتو، وقعدتو بقت زي تمامة العدد، أما أتيم فكان محترم نفسو تماما، غارق في صمتو، صمت الضيف لمّا يكون غريب عن الناس.

لكن محمد أحمد التربالي مجبور يرد على السؤال، مسكين ما عارف يبدا من وين ولا يرد يقول شنو، بس المرّة دي كان برد وهو مدنقر، أبى يعاين لي في عيوني نهائي، رغم إنو خالي أدّاهو قشة أتيم يمسك فيها، وكان ممكن يبدا يدافع عن نفسو من الحتة بتاعت "بدافع عن صحبو"، لكنو كان متوتر ومجهجه، بقى شابك ليك الناس:

- "والله، وفي الحقيقة، وأنا..."..

أنا عارف كيسو فاضي، الكلام في الراجينّو يرد ديل! قمت عاينت في القاعدين كلهم، نظرة كده بتاعت زول متاني ومالي راسو و وازن زمنو كويّس، أصلو ما مستعجل، إتفرّست فيهم واحد واحد، وقفت عند صدّيق ود الحسين، كان بتابع بحياد تام، واضح إنو جاي مع الأجاويد، أها لّمن يلقى الموضوع الزمان داك لا مات لا إتنسى، يا ربي حيعمل شنو؟ البلد دي أهلها كريمين ومتسامحين لدرجة العبط أحيانا، الغنماية تاكل عشاهم، لكن أبدا ما تغلط تهبشهم في شرفهم ولا كرامتهم مهما يكون، دي حتات ممكن يكتلوا فيها.

لّمن الترباليي كتّرها، بقى يخش ليهم من هنا ويطلع ليهم من هنا بدون شي مفيد، طوّالي قاطعتو وإستلمت منو الموضوع بدون ما أدّيهو أي فرصة يعترض، وكانت مقاطعتي في شكل سؤال:

- يعني هسي إنت سألوك سؤال واضح، غالبك ترد عليهو بصورة واضحة؟..

قام عاين لي نظرة فار مزنوق، زانقاهو كديسة جعانة في زقاق ضيّق، نظرة سريعة وطوّالي كسر عينو تاني ودنقر راسو:

- رديت على السؤال، كنت بقول، أنـ ..

والله الإنكسار في الرجال قبيح وشين شناة مرّة، أهون منو تركب راسك حتى في الغلط ولا يبقى عليك منظر الترباليي، وأهون من كل ده إنو ما تنحط لدرجة توصلك المراحل دي، هو الراجل يفضل فيهو شنو غير أخلاق وهيبة؟ طيب بدل ده كلو ما تبقى شجاع وتعلن إعتذارك قدّام الناس بدل الجبن البتكون فيهو ده؟ الشجاعة دي إلا حرابة؟ صدق القال الرجال مواقف، والترباليي ده موقف بص ما بقيف جمبو تاني! قمت سريع قاطعتو:

- تقول شنو ياخ؟ إنت لا حتقول ولا شيتن، خليني أقول أنا الحقيقة!..

الناس كانت مندهشة للحوار ومركّزة معاي، حاسة إنو الكلام وراهو كلام، أكتر زول حسيت بيهو كان مندهش هو أبوي، أكيد هسي بقول في نفسو الزول اللديح وبتفاصح ده ما شبه ولدي البعرفو من زمان! أكيد ده حيكون تفكيرو في اللحظات دي، بس هو تفكير إيجابي بالنسبة ليهو ولا سلبي دي ما بقدر أحدّدها، وما عايز أحدّدها هسي، حأخليهو يحكم على حكم كامل، لكن بعد ما أنتهي من العايز أقولو والعايز أعملو.

بحمد ليهو إنو نهائي ما قاطعني لحدّي اللحظة، لا في بداية كلامي ولا حتى بعد ما وصلت للنقطة الحساسة دي.

محمد أحمد الترابالي بقى صغيروني في اللحظات ديك، بالله الزول الكان يهز ويلز وشنبو ده نهائي ما بدنقر بيهو على الواطة دي إلا يكون شغّال، بقى قدر السمسمة قدّامي، وأصلو ما جا على بالي إني أرحمو نهائي، العملية العملها فيني وفي صحبي أصلو لا يمكن تمر مرور الكرام بدون ما أعاقبو عليها، وبطريقتي كمان، أصلها كانت إساءة كبيرة لي ولأهلي وبالذات لأتيم صحبي، وأتيم لازم يعرف إنو طالما هو معاي وفي ضيافتي، ما بس حقو علينا ضيافتو وإكرامو وبس، شرفو كمان فوق عينا وعلى راسنا.

– أبوي، أعمامي، ناس الحِلَّة، خالي وأصحابي. كلّكم مكانتك عالية عندي ومقاماتكم فوق راسي ده، والله بحترمكم أكتر مما تتصوروا، وزي ما قال ليكم خالي، وزي ما إنتو شايفين وحصل معاي بالضبط، الترابالي ده!..

وقمت أشّرت عليهو بإحتقار:

– أيوة ده! قصد يأذيني أكتر من وجعتو على الحجر الفنوهو فيهو، لسبب حتعرفوهو بعد شويّة!..

الترابالي ساكت ساي صامت ومدنقر في واطاتو، الباقين بقوا يهمهموا بنفس واحد:

" ليه؟"،

"هو في شنو؟"،

"السبب شنو؟".

وأنا قاصد أصن، وأدي الناس فرصة تقلّب الكلام في راسها، وتهوّلوا زي ما هي عايزة، ستشعر حجمو، وفداحة الجاي في الكلام، تسبقني عليهو بالتوقعات، أصلو كل ما كبر، كل ما كانت ورطتو أكبر:

– بصراحة؟..

قمت أديتها صنّة تاني ، حسيت الناس دي خلاص، ضاقت، بقت زي البتتقلّب في صاج، والترابالي بقى يتهوزز كلو بتوتر ظاهر رغم إنو محاول يتجالد ويعمل فيها صنديد وما هاميهو، الناس كانت خلاص ضاقت:

"أيوه قول !".

***

بديت أحكي ليهم قصّتنا من أوّلها مع الترابالي، وزولي لسّة مدنقر راسو في الواطة، وتوترو وصل القمة، وهزّة كرعينو بقت ظاهرة، أتيم كان أول مرة يسمع القصّة دي زيّو وزي الباقين، بس متابع ساي ولسّة في صمتو. عارف في حتة في القصّة حتجيب لي الهوا، هي الحتة الغشّيت فيها سعاد عشان تشيل هدوم المعفّن وتمشي عليهو تجاه البحر، بس ما كانت فارقة معاي، وفي إحتمال كمان حتى لو نسبتو صغيرة إننا نمرق منها بدون عقاب، لأننا كنا صغار وأشقياء.

كنت بعاين في وشوش الناس وأنا بحكي، قاعدين يسمعوا مذهولين للقصة، إلا في زول واحد بس، اللي هو صدّيق، كان خلاص، غلبو يتحمّل أكتر، فاض بيهو، طول السنين دي كانوا فاكرين محمد أحمد الترابالي شاغل سعاد ولا قال ليها كلمة بذيئة أو حتى إتصرف معاها تصرف ما لائق وبس، بالتالي سعاد خجلت تقول أو تتكلم، لكن أصلو ما خطر في بالهم يوم من الأيام إنو يكونوا على علاقة مع بعض، أو الترابالي يتجرأ ويقرّب منها، ويدغدغ مشاعرها، وينتهك خصوصياتهم بالطريقة دي، بالأخص بعد المشاكل القديمة بيناتهم، وطردهم ليهو وإنذارو ما يقرّب من بيتهم أو أراضيهم، ناهيك عن بتّهم وحيدتهم!. ياهو نفس ظنيّ الزمان، أصلو ما كنت شايف في شي ممكن يلم سعاد بالجهلول ده.

تاني شي، الموقف الحصل جمب البحر كان عار كبير خلاص في نظرهم، إتجاهلو في اللحظة ديك زولنا غلطان ولا ما غلطان، أها، أنا هنا سلّمت البيرك وقعدت فرّاجة، أخر حاجة عملتها، عاينت لخالي وإبتسمت، ما إتفاعل معاي لا سلبا لا إيجابا.

عصايتي القبيل ديك، كانت مشت وين ولا الشالها منو ما عارف، فجأة لقيتها في يد صدّيق، عارف صدّيق متهور، ورغم كده إتفاجأت بسرعة رد فعلو، حس إنو كرامتو إتهدرت قدّام ناس الحِلَّة كلهم لمّن عرف إنو أختو شافت ليها راجل عريان، لأ وكمان العريان ده عامل فيها بحبها، هي سعاد ذاتها هسي وين بالضبط ما كنت عارف، لكن يخيل لي زي السمعت إنها سافرت مناسبة برّة الحِلَّة، المسكينة قالوا لسّة ما إتزوجت، و ود عمها محمد شكلو قنع منها وهج الخرطوم وإتزوج واحدة قريبتو هناك شغّالة معلّمة في مدرسة أساس وإستقروا في أمبدّة بأمدرمان.

المهم، الصالون ولّع، الرجال قاموا يحجزوا، هاجوا وماجو، وأنا زي الفي عالم تاني وبشاهد لي في فلم، ما إتحرّكت أصلو من حتتي نهائي، وصدّيق أصلو ما عايز يهدأ، وكلّهم ما قادرين يحوشوهو، قمت برّاحة مسكت أتيم من يدو وطلعت

بيهو برّة الصالون، عاينت ليهو لقيت وشيهو خالي تعابير إلا من كل إندهاش الدنيا، شكلو مندهش من كل الحصل على بعضو، رغم إنو ما شكلو عندو أي رغبة يعلّق، لكن أصلو لو حكوا ليهو ما ظنيتو كان حيكون زي طعم التجربة الحية قدّام عيونو، ما ظنيتو في حياتو مرّ عليهو موقف مشابه، الإشلاق بكل صخبها وضجيجها، وبرغم تعقيدات الحياة في الخرطوم، لكن قدرت تخلق ليها حياة قايمة بتفرّد، منزوية ومنطوية على ذاتها، حياة تجمع أشتات ناس من مختلف بقاع السودان جمع بيناتهم شغل الحكومة، لكن خلق وحدة مجتمع متماسك أقرب لأسرة واحدة كبيرة، لدرجة إني أول ما خشيت الإشلاق قدرت بسهولة أخش كل البيوت، لأنها ما بس كانت بتتشابه في شكل البنا من برّة، لأنو التشابه كان من جوّة ومن برّة!. إتعرّفت على الجاي من الشمالية، ومن الشرق، ومن الغرب، ومن الجنوب وحتي من الوسط. قضيّت ساعات طويلة وأنا أستمع للقصص والحكاوي عن كل بقاع السودان. عن العادات والتقاليد وهي بتنصهر في مساحة صغيرة إسمها الإشلاق!.

لمّا رجعنا قعدنا في الراكوبة قدّام التكل، كنا لسّة سامعين أصوات الجوطة والكواريك في الصالون، والناس بدت تتسلسل شويّة شويّة تتخارج، بعد شويّة جانا خالي، يا دوب قدرت أنشرح وأسلم عليهو سلام حار، كنت مشتاق ليهو جد، طوّلت منو، من ذوقو تاني ما جاب سيرة الحاصل، أتونّسنا وإندمجنا لحدّي ما نسينا المشكلة ذاتها، شويتين كان البيت فضى، بقينا قاعدين في نص دايرة فيها أنا وأتيم وخالي وأمي وأبوي وبس.

عبدالقادر ساقنى أنا وأتيم بعربيتو المسا مشينا للحكيم، المفاجأة السارة والمفرحة إنو نخرتي طلعت ما مكسورة، اليوم التاني طوّالي أقنعت أمي وأبوي يخلّونا نمشي مع خالي عبدالقادر مزرعتو نقعد فيها معاهو يومين نغير جو ونرجع. ما إترددوا، بالذات مع المشكلة الكانت حصلت، حسّوا إننا محتاجين للتغيير فعلا، كنا فرحانين أنا وأتيم بالمشوار، مزرعة عبدالقادر خالي كانت بتستاهل، بعيدة شويّة من الحِلَّة ما بتتمشي إلا بعربية، لكن مهيأة كويّس وهو ذاتو ساكن فيها بأولادو وعاملها مزرعة مختلطة بطريقة علمية مختلفة خالص عن مزارع الحِلَّة التقليدية.

***

إيييك، مرت كم سنة من أخر مرة شفت فيها مزرعة خالي؟ باين علي طوّلت شديد لأنها إتغيرت كتير، خالي أصلو ما من النوع البقعد ساي، كل مرة والتانية بكون عندو فكرة جديدة ومشروع جديد، ده السبب الكان بخليهو يجي الخرطوم كتير أحيانا، ويخليني ألاقيهو في جياتو كلها هناك، قام أدّانا أنا وأتيم غرفة كبيرة وحلوة.

المساحات في المزرعة بتخليك تاخد فيها راحتك تماما، مافي سبب واحد يخليك تضيّقها على روحك، غرفتنا كانت مطرّفة وشبه منفصلة، فاتحة على الحوش وفي حمام خارجي قريب منها، مفروشة فرش بسيط لكنو أنيق، وألوانو هادئة ومريحة للأعصاب، شكلها معمولة على أساس إنو الزول يغير فيها جو ويهدي أعصابو.

طوال اليوم بتجيك أصوات الحيوانات حتى وكت النوم، ممكن الزول يتعب في الأيام الأولي لكن بعدّاك بتعود عليها شويّة شويّة، غايتو أتيم ضحّكني، كل مرة يسمع ليهو صوت يقوم ناطي، كنا نصحى يوميا الصباح بدري نبرمج مع خالي ونساعدو في المزرعة، عندو عمّال كتار لكن بحب يشرف على الشغل بنفسو، وهو ذاتو كان بخش يشتغل كنوع من الرياضة، يلا، نحنا ورانا إيه؟ الزراعة جربناها ما نجرّب تربية الحيوانات؟.

مع العصريّات كنا بنتفكفك من المزرعة وندقش على البحر، نقعد قبلنا لحدّي ما نحضر الغروب حتين نجى راجعين، قضينا وكت جميل جدا في المزرعة، بدل يومين، لقينا نفسنا جرّيناها خمسة أيام، بعدّاك كان لازم نرجع عشان كمان أدي الحاج والحجّة شويّة أيام قبل ما نغادر للخرطوم.

لمّا أخيرا رجعنا الخرطوم، حسيت كأني لي منها سنة ما بس كم يوم وبالعدد كمان، وقعت في أولاد عمّي بوس وأحضان وهم مندهشين من تصرّفي جنس إندهاش، حتى عمّتي وعمّي ما سلموا من أشواقي، أصلو ما قلت ليهم البغم، وما متعودين أمشي البلد وأرجع ليهم كده.

زمان كان عادي، يعني شنو مشيت البلد وجيت؟ الزول بكون على العكس، جاي متحسر إنو فارق البلد وناس البلد وطيبة البلد وهوا البلد، هم ما عارفين ساي الحصل لي وراهم، الشي الدخلني من المشية دي، ما ظنيتو يطلع منّي بالساهل، حاجة إتوغّرت وإتحكّرت جوّة القلب، وإتحبست في الصدر، في تجارب كتيرة مرت في حياتي، أكترها بقاء ولصيق بي وما بتمحى من الذاكرة، هي الكان

إرتبطت بمؤثر عاطفي، تلقى الطعم في الذاكرة تجربة حيّة صعب يتنسي، حتى لو كانت مرّة زي الحنضل.

- إنت مالك يا حسين؟..

سؤال بقيت معتاد عليهو، بالذات من سوما، بس ما إكتسبت خبرّة كافية في كيف أتفاداهو، ربما بسبب طبيعتي، ما إتعودت أدس، ما إتعودت أخفي، بكون دايما على سجيتي، عشان كده بتفضح بسهولة، بنكشف من أول لحظة، الكل ملاحظ في تغيير طرأ على حسين، حسّو، أيا كان الإسم البيحلو ليهم، وأنا أول زول بأمّن على كلامهم، لأني لأول مرة بقيت أقيف، أفكّر في الأول، التفكير يلزمك أحيانا السكون، وهو عكس الحركة الإتعودوها منيِّ، الحركة والشغب كانت هي السمة المعتادة بكل أشكالها من حسين، أما الهدوء والرزانة والسكون والدعّة، ضيفوا عليها التفكير، بشوفوها صفات ما بتشبه حسين، نوع من نواقض الطبيعة، شيء غلط ولابد من تقصّيه، والكل عايز يمد ليك يد ويساعد، في لحظات إنت ما بتكون محتاج فيها لأي مساعدة، كل المحتاج ليهو هو مساحة، براح، عايز تقعد مع نفسك، تراجع حاجاتك، حساباتك، يمكن يكون الوكت المّناسب إنك تقيف وتسأل روحك، إنت منو؟ وعايز شنو؟ وتلقاها وين؟.

***

الجزء الثالث

- يا حسّو قوم..
- في شنو يا عبدو ياخ؟ حرام عليك، مالك؟..
- قوم ياخ خلينا نمرق نلحق الجامعة..
- ياخي الجامعة جارية منك؟ ما ملحوقة ياخ مالك مستعجل؟..
- ياخي عشان نلحق نكمّل إجراءاتنا..

قمت فتحت عيوني بصعوبة وبتكاسل شديد:

- عاين يا سجم، عليك الله سيب الكبكبة بتاعتك دي، إنت خشيت جامعة ياخ ما سنة رابعة ثانوي، حاضر؟ يعرفوك برلوم(17) كيف يا فضحية؟..
- صلبيك يا حسّو، بقيت نقناق ومنظّراتي!..

قام ضربني بمسند المقعد وشتت، لكن كان خلاص طيّر النوم من عيوني الكرور، إضطريت أقوم قنعان وأتوكّل أستعد للجامعة، كنا بدينا إجراءات تسجيلنا في جامعة الخرطوم سوا، أنا قبلوني في مدرسة العلوم الإدارية وعبدو في علوم، الإتنين في سنتر الجامعة، بالنسبة لعبدو كانت حلم لازم يحققو، سعى ليهو بيدينو وكرعينو، قمة طموحو إنو يدخل كّلية كويّسة بإختيارو في المّنارة دي زي ما كان بقول عليها وبسميها.

أما بالنسبة لي، فالمسألة كانت مختلفة خالص، حاجة كده زي مفترق طرق، وسؤال قديم جديد يطفح في كل مرة وما لقى ليهو إجابة لسّة، سؤال متعلق بالهدف، الهدف من الحياة كلها مش في هوامشها أو جزئياتها وبس، سؤال مؤرق لأبعد حد، وباعث على القلق، ومتاهة لا بداية ليها ولا نهاية، كتير تنوم بيهو وتقوم عليهو.

والمشكلة الأكبر إنو في أثناء بحثك عن إجابة، مضطر تبحر مع تيار الحياة، ما عارف تتخذ قرارك كيف ومتين، هل تواصل في إبحارك ولا تقيف؟ هل وصلت لقناعة ولا لسّة؟ هل قرارك ده هو ذاتو صاح ولا حيجي يوم تندم عليهو؟ نوعية من

الأسئلة مرات صعب تلقى ليها إجابة، سواء فكّرت فيها براك ولا بصوت عالي حتى مع أقرب أصدقائك!.

كل الحصل إنو نجحت نجاح كويّس مؤهل، وفي الخيارات القدّامي عجبتني الكّلية دي، ما بالضرورة تكون هي الغاية وما بالضرورة برضو يكون عندي غاية تانية غيرها، كل الحصل إنو بدخلها مرتاح، إختيار من شاكلة مافي مشكلة! الناس مبسوطة بنجاحك وبدخولك الجامعة وخلاص.

لكن في قرارة نفسي شايف دي مجرّد محطة، وأنا في نص تيار، تيار سايقني بلا إرادة، مرات أفكّر أعترض إتجاهو وأسبح عكسو، ومرات أهادن نفسي وأسبح معاهو بإستسلام، إذا كانت في أي سلوى في الموضوع ككل، كان يكفيني إنها جامعة الخرطوم، فما عبدو براهو المعجب بيها، الجامعة دي فيها غموض جاذب نوعا ما رغما عني، والغموض شي محبب في نفسي، يمكن لحدّي ما أقدر يوم أفك طلاسم أسئلتي وأحل مشكلتي العويصة!.

- سلام يا شباب!..

"وعليكم السلام".

تقريبا أولاد الجامعة القاعدين في كلنك الجامعة كلهم ردّوا مع بعض بصوت واحد، كل زول بطريقتو، فيهم الردّ وقبّل علي، وفيهم الردّ ولا كلف نفسو حتى يعاين لي، كلهم ملمومين قدّام باب المعاينة الطبية ومتنشنين مع الباب، البنّوت نهائي ما عبّروني، ما عارف دي تقلة منهم ولا الفهم شنو؟ أنا ذاتي قررت أمسحهم وما أشتغل بيهم:

- أها يا جماعة، الجديد شنو؟..

واحد من الجماعة حب يتظارف:

- الجديد شديد!..

ده ما إشتغلت بيهو، ده ما زولي، ده بكون بخفف في دمّو عشان الجكس الجمبو، واحد تاني إتبرع يرد، أو بالأصح إتبرع ينقنق:

- ياخي ديل بطيئين خلاص كرّهونا!..

وزي الفتح باب الزهج للناس، الباقين كلهم بقوا ينقنقوا برضو، ده أكيد زولي تب، جاب لي المختصر المفيد، أنا شخصيا ما فارقة معاي، يخلصوا وكت ما يخلصوا، لمّن تخف الزحمة بجيهم راجع، أما وقفة زي دي فما بكضب على

نفسي، ما عندي ليها أي أخلاق ولا بقدر عليها، أها طيب يا حسين، البرنامج شنو؟.

***

هو في غيرو؟ نقوم نمشي ندقش على شارع المين(18)، أشهر شارع في سنتر الجامعة، عبارة عن شارع أسفلتي ضيّق من بداية البوابة الرئيسية ولحدّي ما ينتهي في مكتبة المين، المكتبة الرئيسية للجامعة، شارع فيهو ضل عجيب، أشجار مهوقني ضخمة كبيرة ومعمّرة بالسنوات الطويلة، ونيم ضخم كثيف برضو وما هين، المجموعات دي كلّها متشابكة في بعضها وعاملة ضل ما شفت زيو نهائي، وعلى طول شارع المين المرصوف في بنشات جلوس أسمنتية، تلقى الناس متجدّعة فيها وواقعين خلط تقيل.

والمين مع بداية القبول للجامعة وإستيعاب الطلاب لحدّي مواعيد بداية الدراسة ببقى زي شارع غير معلن لعرض الأزياء، عرض صامت، البنّوت ديل بمارسن فيهو هواية التفنن في اللبس، والتفنّن في المكياج، والتبختر في المشي، منو يلهلبن قلوب الأولاد المساكين، ومنو ينافسن بعضن، الكرنفال ده كان مريح معاي، بحب أتجدّع لي في بنش معيّن من بنشات المين المقبّلة غربا، وأتفرّج في المهرجان ده، أصلو مافي موضوع لحدّي ما نخلص من حكاية التسجيل دي ونبدا قراية، لمّا أقعد في البنش البرتاح فيهو، بتكون الكّلية المفترض أقرا فيها ورا ضهري على طول.

أها جيت كالعادة أفتّش للبنش بتاعي، هي الصراحة مسألة بتاعت حظ، الجامعة كل يوم مليانة لعين أمها، ونادرا ما ألقى خانتي فاضية، لمّا البنش يكون مليان بمر طوّالي ما بقنب في أي مكان تاني في طول المين وعرضو، أها فعلا لقيت البنش مليان، طوّالي مريت، أول مكان خطر على بالي أمشيهو كان كافتيريا علوم، أمشي أفتش على فردتي الود عبدو.

عبدو الكبكابة كان زمان خلّص الكشف الطبي، وراجع مكتب المسجّل كمان، باقي بس على تسديد الرسوم، وإستغل باقي الأيام في الشرشحة، باعني زي المّا حصل شي، أول ما وصلت الكافتيريا لقيتها مليانة وفايرة بالناس، شلت هم، هسي الكرور ده ألم فيهو وين؟ في داعي هسي يمشي براهو الجامعة ويفوتني؟، الشفقة العليهو شنو؟ ما ينتظرني ياخ!

لفّيت لفّيت لمّن زهجت، الود بس فص ملح وذاب، لكن ما يذوب كيفن؟ الجامعة فايرة بشر كمّيات، أنا متأكد الكافتيريا دي ما بفوتها، لكنو كان صاحب ليهو

نفرين جداد من علوم إتعرّف عليهم في الكلينك، ومن يوم عتبّنا الجامعة ما بيعرف غير الكلنك وعلوم وكافتيريا علوم وبس، مش عبدو ده؟ بعرفو كويّس، أصلو ما زول مجازفات، لو قالوا ليهو أرح نكتشف كّلية جديدة إسمها إقتصاد تكلة بي جاي ما بمشيها. طيّب في الأندر لاب مافي، شقيت بيها يكون وين؟ قلت خلاص يكون الأولاد الجداد ديل شفوت وبدوا يلفوا بيهو، قنعت ألم فيهو وشلتو من راسي.

أها بقيت خالي وفاض زي ما بقولو، أمشي على وين؟ أقبّل على وين؟ راسي ده ما أدّاني أي إقتراح مفيد، قلت خلاص، يلا، ألف السنتر ما دام مافي موضوع، أها بقيت لافي السنتر كّلية كّلية، شارع شارع، ميدان ميدان، زي كلب الحر، داقش بدون هدف، من حتة لحتة، الناس دي كلها مبسوطة وتضحك، يا شلة أقلاها إتنين إتنين، إلا أنا، ياني براي ماشي منفردا، خبارك يا حسين، لا صاحب لا صاحبة؟ ولّن تفتش تفتش على عبدو؟ أي تعاسة أنت فيها أيها الشّقى؟.

تلفوني فجأة ضرب، هيى! والله نسيتو، ده التلفون الأهداني ليهو خالي بمناسبة دخول الجامعة! أول تلفون في حياتي، عاينت للرقم، سوما، بالي رايق، فكّرت أبرمج بيها، جرجرت صوتي:

- ألو؟، سوما..
- حسين..
- هلا سوما..
- وين إنت؟..
- في الجامعة..
- لأ قصدي وين بالضبط في الجامعة؟..
- في اللحظات التاريخية دي يا بت عمّي سايقني القدر ومنحدر بي على مجموعة رهيبة من الجكس قدّامي..

البنّوت كانوا بسمعوا في كلامي قعدن يضحكن..

- حدد لي بالضبط إنت وين؟..
- والله جادي معاك أنا، ديل بنات ولا في الأحلام!..

هنا البنّوت قرقرن تاني وأنا بقيت مارّي بمحاذاتن وعاوج رقبتي معا سماحتن، سوما إتضايقت حسيت بيهو في صوتها:

- يا ولد ما تخليك جادي! أنا في السنتر وعايزة ألاقيك هسي..

شكلها جادة، قطعتو معاي، وأنا كمان قطعت هظاري:

- ألاقيك وين؟..

***

رجعت تاني علوم عشان ألاقي سوما، حاولت أتصل بعبدو لقيت ما عندي رصيد، يخربو التلفون، قاعد ضرّابة، أصلا ما مستفيد منو أي حاجة، نمرتي ذاتها ماني حافظها. أخيرا لميت في سوما وقعدنا لينا في ضهر صندوقين بتاعين بارد، سوما مهتمة بينا إهتمام شديد، عاملة فيها مسئولة مننا، بس ذكّرتني أيامي معاها زمان، أيام كنت بكرّها اللبس، هسي القصّة قلبت فيني، كل يوم شكلة معاها بسبب اللبس، يا ود ألبس كويّس، ياخي البنطلون ده ما مناسب، لون القميص ما حلو، أو مكرفس أو المّا بعرفو داك، ما تلبس شبط، ألبس جزمة، ما ممكن تلبس جزمة من غير شرّابات! بس بقت شغالة قصادي، إنتقمت ليك مني جنس إنتقام. ما لقيت شيتن مناسب أعزمها عليهو، إتوكلت على الله وطلبت لي كبايتين عصير برتكان، قبل ما أقعد وأنا شايل الكبايتين لحقّتني السؤال المّافي منو مفر:

- أها عملت شنو الليلة؟..

إستغليت الثانيتين الأخدتهم عشان أقعد أفكّر، حأكضب يعني؟:

- ولا شي!..

وشيها إتعفرت، عيونها بقن دقاق ورا نضارتها:

- ولا شي كيف يعني؟..

- ياخي بنجز، ما تخافي، كدي أشربي العصير ده وروّقي دمّك..

إتناولت مني الكباية وهي بتعاين لي بإمتعاض، غلبني منظرها، ضحكت فيها، إتغاظت مني زيادة، حبّت تغير الموضوع، لو واصلت عارفة الموضوع مافي صالحها وحتخسر:

- وين عبدو؟..

- الكرور ده ما عارفو وين، مما جيت بفتش فيهو ما لاقيهو..

- إتصلت عليهو؟..

- لأ، لقيت ما عندي رصيد..

- إنت دايما كده؟!..

تاني قمت ضحكت بقرقرة، ما إشتغلت بي، طلّعت تلفونها الوردي الأنيق من شنطتها، فتشت الرقم وإتصلت، يا حليلو تلفوني، كل يوم جادعو في حتة، وأروح أفتشو بالفتاشة، وكل مرّة أسأل زول يضرب لي فيهو عشان أعرفو وين، أخيرا لمّت في عبدو، وصفّت ليهو مكانّا في الكافتيريا، وقالت ليهو تجي حالا، بعد خمسة دقايق الهرّاش كان معانا:

– سلام شباب..

ردت عليهو سوما التحية وهي بتعاين في الشباب المعاهو متسائلة منتظراهو يعرّفها بيهم، أما أنا فكان عندي ليهو تحية خاصة بدون ما أركّز في المعاهو:

– أهلا بالدكتور، أهلا بالبروفيسور، وينك يا "ملهم"؟..

إتغاظ مني، إتلفت على الشباب المعاهو:

– شايفين الورم الأنا فيهو؟ مش قلت ليكم؟..

ما عارف الكرور قال ليهم عنيِّ شنو، لكن قمنا أنا وسوما على حيلنا نسلّم على ضيوفو، كانوا شابّين وبت، أنا عارف إنو إتعرّف على شابين، بس بت دي جديدة علي، الشمار حرقني، وغالبني أنتظر لمّا نكون برانا عشان أتفشى فيهو، قام عبدو عرّفنا طوّالي ببعض:

– شباب، أعرّفكم على أسما أختي وحسين ود عمّي..

وقام قبّل علينا، بدا لينا بالأول:

– حسام، برلوم علوم. مرتضى، برضو برلوم علوم. والأخت مها دي قريبة مرتضى برلومة علوم إدارية..

وقام أدّاني نظرة تحذيرية بعد ما عرّفنا بمها، أنا فاهم مغزاها، بس ما عارف الكرور ده متخيل شنو في راسو؟ سلّمت عليهم سلام كويّس وكمان دعيناهم يتفضلوا معانا، وبقيت أتلفّت بفتش لي على كراسي تكون فضت بمعجزة، أو حتى بالعدم صناديق بارد زيادة في أي حتة، في اللحظة دي البت كانت مركّزة معاي:

– إنت مش الزول الضرب أمي كف؟..

صراحة ألجمتني المفاجأة، خلّيت التِلفِّت بتاعي وعاينت للبت في وشيها وأنا مخلوع ومليان بالدهشة، ديشاك، معقولة بس؟ دي البت بتاعت البص؟ دقيقة دقيقة، إسمها منو؟ أيوة مها، ما ممكن أنسى إسمها، ركّزت فيها قوي، ملامح وشيها إتغيرت، ولا أنا ذاكرتي العطبت ما عارف، بس لو نسيت أي حاجة ما

ممكن أنسى حاجتين، أول شي ديك كانت ملظلظة، ودي سبمتيك، وكمان شكلها أحلي من ديك، تاني شي الصوت الرنان داك، أيوة، في لحظة بس إسترجعتو زي ما هو، فعلا ياهو صوتها، بس الشي شنو؟ خبارن البنّوت ديل؟ بالله ذاكرتهم زي ذاكرة الكمبيوتر، لا بتمل ولا بتفتر، مافي أي حاجة بتتنسي؟!.

عبدو وسوما قعدو يعاينو لينا بإستغراب، بقوا يتبادلوا فينا النظر، مرة فيها ومرّة فيني، عبدو كنت حكيت ليهو زمان بالقصّة دي، لكنو زول درويش ساي هسي بكون مسحها نهائي، عارفو أنا، أما سوما فمتأكد ما سمعت قصة الكف دي قبل كده، ما عارف ما حكيتها ليها ليه؟ يمكن عشان ما تلقى فيني فرقة، بس عارفة الحادث الفظيع بتفاصيلو المملة لحدّي قصة أبو مها الكان تعبان، وقصة شنطة أمها الإتسرقت ورجعت، لكن ما ظنّيتها ربطت المواضيع مع بعض لسّة، أول زول فتح خشمو كانت سوما، سألتني بإندهاش ممزوج بالسخرية مقلّعة عويناتها ورا نضّاراتها ورافعة حواجبينها:

- كفْ؟..

قبل ما أرد، تاني لحّقتني سؤال ساخر، المرة دي كاتمة لهيا ضحكة باينة في وشيها:

- ضربت أمها كفْ؟..

إتغظت منها، ما قدرت أرد عليها، قمت إتجاهلتها، وقبّلت على البنيّة أسألها وأنا عامل لي ضحكة متكلّفة كده وأنا لسّة راكباني الغيظة من سوما والربكة من الموقف، وحيرة الصدفة العجيبة اللاقتني بيها تاني:

- عليك دينك وإيمانك، هسي لمّا تتذكريني ما تتذكريني إلا بي كف؟!..

قاموا الباقين ضحكوا، فعلا الموقف كان غريب والمفارقة أعجب، قمت حكيت ليهم القصّة بإختصار ونحنا واقفين لحدّي ما عبدو جاب ليهو صناديق بارد زيادة وقعدنا كلنا، بعد داك ثبتني ما أمشي الكافتيريا، قام هو جرا يتكبكب وجاب العصير، لمّن رجع قعد جمبي، جمبي شنو، قرّب يتلصّق فيني لشي في نفسو، أنا فاهمو كويّس، الكرور شكلو قفل على البنيّة، خايف من لساني، خايفني أفلّت، وخت نفسو في حتة إستراتيجية عشان يقرّصني لو بديت أفلّت فعلا، على عكس ما إتوقع، الونسة كانت حلوة، ما تنشن معاي إلا لمّا سألت البت فجأة:

- ما كنتي سمينة وملظلظة ضعفتي كده مالك؟..

لقيت ليك عبدو شغال فيني زي المّنفلة في صفحتي، وأنا أضربو بي يدي عشان يختاني، بصوتها الحلو الرنان داك ذاتو:

– كلو من القراية والهم، تعبت تعب شديد عشان أنجح وأخش الجامعة من أول سنة..

قمت إبتسمت ليها إبتسامة ساخرة وأنا ماسك يد عبدو من تحت:

–لا خلاص بختك، تاني مافي هم، لقيتيني معاك في نفس الكّلية، ده يوم سعدك الليلة..

يا دوبها فكت ليها ضحكة حليونة زيها، عبدو قرّب يتوفى في اللحظات ديك!.

***

عدّت السنة الأولي بسرا ع، كانت جميلة، يمكن ده السبب، أي شي جميل بمر بسرعة، كوّنت شلة محترمة خلال سنتي الأولي، إتعرّفت على شباب كتيرين مش بس من كلّيتنا، إنتشرت حتى على مستوى الكّليات التانية، وكنت بعمل ليهم مداهمات وكت ما أكون فاضي في كلّياتهم وألاقيهم هناك.

على عكس عبدو تماما، ما كنت مهتم بالجكس نهائي، عبدو المسكين كان بيتدشدش بسهولة، بس ما تتبسم ليهو جكسوية، طوّالي يريل، الليلة ديك ما بنوم فيها كلو كلو من الورم، يكرّهنا ليك الجمهورية، نبقى نحنا الليل كلو في فلانة وعلانة وأح وإيح، الوحيد المّا كنا بنعرف عنو كتير هو بكوري، لأنو خالفنا حتى في الجامعة، كان دخل قدّامنا كّلية الهندسة جامعة السودان، ياهو في حالو الزمان داك ذاتو ما إتغير شي كتير من طبعو، بي شلتو وبي جازو بعيد مننا، نادر ما تكون في مواضيع تلمّنا بي بعض.

الكسبتو في السنة الأولي ما كان بس شلة شباب، من أكتر الحاجات إثارة بالنسبة لي كانت النشاطات الطلاّبية بالجامعة، والمخاطبات بكل أنواعها وأركان النقاش الساخنة، كنت بعتبرها تجربة مثيرة وثرّة، صراحة إستفدت كتير منها، بالأخص المشاكسات البتحصل أحيانا، رغم إنها كانت مرّات بتتحول من عنف لفظي لعنف طلاّبي.

كتير كان مممثلو الأحزاب والتيارات السياسية بدعوا قادتهم وممثليهم للجامعة في ليالي سياسية حاشدة، مؤكد إنو الجامعة كانت موضع إهتمام كبير لكل الكيانات السياسية المهمة في البلد، فكنت حريص على حضورها وما بفوّتها إلا للشديد القوي، شلّتي كانت عبارة عن طيف من كل الألوان دي، وكل واحد فيهم بحاول يقنعني بضراوة إني أنتمي لتيارو، كنت برفض بدعوى إني في منصّة بتيح لي النظر بوضوح للشكل العام، ودي ما بتتم إلا بحياد تام، بغض النظر عن

رغباتهم المنظورة بالتكتل والفوز برئاسة إتحاد جامعة الخرطوم، وده مركز كان بيعتبر مؤثر جدا، والأحزاب عارفة النقطة دي كويّس وبتحرص عليها.

عموما، ما كانوا بيرضوا بموقفي، وكلهم تقريبا بتفقوا على نقطة واحدة كنت بستغرب ليها جدا، عندهم قناعة تامة إنو الزول ما ممكن يكون "فلوتر"، يعني حر بدون إنتماء، وزي ديل طبعا حسب نظرتهم بمثلها أنا، بقولوا لابد من إنتماء، دي قناعتهم، سواء كانت إلي اليسار أو إلى اليمين، ما مهم. لكن تكون فلوتر دي في نظرهم مشكلة عويصة، كانوا بفتكروني زول مؤثّر وسط الطلاّب، محبوب من الجميع، أي إنتماء أتخذو حيشكل مكسب للجهة الحأنتمي ليها، لأني حأكر وراي كمية من الأصدقاء، ودي غنيمة، ودي المعركة الكانت بتدور رحاها طوال الوقت.

عبدو"الملهم" زي ما مشت عليهو التسمية، ما ليهو في الموضوع ده لا ناقة ولا جمل، بقى زول قشرات ساي، كل يوم يمر فينا يزداد قشرة وأناقة، وسبسبيب للشعر، عرفت كمية من البنات عن طريقو، كل يوم عندو بت شكل ولون، كل ما أسألو ده شنو يا عبدو البتعمل فيهو ده؟ يقول لي ياخي ديل عصب الحياة. عصب الحياة شنو يا زول ما تركز، على الأقل أركز ليك على واحدة، يقول لي البنات ديل ما بتلقى منهم واحدة بتشبه التانية، كل واحدة شكلها غير وفهمها غير، طيب وإنت فهمك شنو في الموضوع ده؟ بقى يتفلسف كمان، يقول لي الصيرورة والكينونة، وجمال الروح والشنو داك والبتاع والهناي، بإختصار، عايز يقول ما عايز يحصر نفسو في بت واحدة لأنو زي البستمد من كل بت جمال مختلف، قاصد جمال الدواخل لكن بعرفو ليك كويّس الكرور، من الشكل البرّة ركبو بتسيح وكرعينو تاني ما بتشيلو.

أهم شي بالنسبة ليهو ما يكون في أي شكل من أشكال الإلتزام، رغم إنو ما عندي أي قناعة بتاعت إلتزام في السن المبكرة دي، لكن بشوف عدم الإلتزام في حد ذاتو نوع من الجبن، فما كل البنات البيتعرّف بيهن ديل فاهمات النقطة دي، كنت بشوف واحدات منهم مكسّرات فيهو عينك عينك، والبعمل فيهو ده نوع من الهروب.

***

كنت شاطر في الكّلية زي ما بقولو، وكتي ما ملكي، واهبو للجميع، أي زول عايز أي مساعدة أكاديمية كانت أو غيرها، بقدّمها ليهو من غير أي تراخي، زي ما كان بحصل مع عبدو، كان برضو بحصل معاي، بحس إنو مرات الشرح ما

بس بقيف على كده، العيون البتتكسر فيك ما بتغيب عليك، بس عكس عبدو، ما قاعد أدّي أي فرقة لحاجة زي دي تحصل أو تتمادى وتتطّور، مرات بكون في بنات عينهم قوية، يا قالوها ليك في وشك، يا وسّطو ليك صاحبك أو صحبتك. كنت بصدّهم من غير زعل، أنا ما زول حب وبتاع.

الوحيدة الكنت بعتبر نفسي بعرفها وبقى عندها علي حق مكتسب بسبب الصدفة اللمتني بيها مرتين هي مها، كان أول ما بدينا دراسة عملت لي فيها رايحة، نكرتني حطب، إحتمال تكون خافت مني أقوم أتلّحها ولا مصيبة، طوّالي جليتها ونسيت موضوعها. أها بعد ما مشينا لقدّام في الدراسة، ولقت ناس الدفعة كلهم برجعو لي، بالأخص البنات للشرح وكده، شكلها حست بغلطتها وعايزة تقرّب من أول وجديد، ما كنت ماسك عليها شي، ولا حتى إبتعادها عني ما كان بالنسبة لي موضوع يذكر، ولا هو سبب أصلا يخلّيني أمسك عليها حاجة. بالعكس لمّا بدت تقرّب خجلانة في الأول، قابلتها كويّس وما حسستها أصلو إنها كانت بعيدة في لحظة من اللحظات، الحاجة دي ريحتها في حنانها، وخلتها تتعامل معاي بشكل أرحب، بعد شويّة بقت صديقتي عديل، طالعة ونازلة معاي.

ما كنت بتحسس ولا كنت برضو بشتغل بمشاغلات الشلة والفرد، بالذات عبدو، لأنو حاجة زي دي ما بتفوت عليهو، كان كل مرة الكرور بحاول يجرجرني في الكلام، الوهم كان بتخيل إنها بداية علاقة، وكل محاولاتي المستميتة إني أفهّمو إنو ياخ ما أي ولد وبت ماشين مع بعض لازم يكونوا على علاقة ببعض، كانت كلها بتبوء بالفشل.

كنت كل يوم بكتشف في مها حاجة جديدة، أكتر حاجة كانت عاجباني فيها هو عقلها ورزانة تفكيرها، أتاري صمتها كان وراهو كلام كُتُر، بقينا نتناقش في الدين وفي السياسة وفي مشاكل الشباب وفي مستقبل البلاد، كل يوم كانت بتثق فيني أكتر وأكتر، لحدّي ما بدت تحكي لي عن حاجاتها الخاصة، وتستشيرني في أدقّ خصوصياتها، أفتكر البت ما ممكن تصل معاك مرحلة زي دي بالساهل، وإذا وصلتها معاك ببقى لزام مقدّس عليك إنك تحافظ على أسرارها بالكامل وتحت كل الظروف. أهو، ما قرينا من صغار مختلط لكن إتعلمّنا حاجة من الإختلاط في الجامعات وباين التجربة مارّة بالنجاح.

كان عندها فهم في راسها، وأنا كنت بفكّر في الحتة دي كتير، كانت بتقول أفضل ليها صحبة الأولاد من صحبة البنات، الفهم ده كان مدهش بالقدر الكبير بالنسبة لي، وتفسيرو عندها إنو البنات ما بتصاحبن، صحبتن مجهدة ومتعبة

جدا، فطرة في البنات، ما بيتخلّو عن الغيرة ومنافسة بعض، وفي نفس الوكت، صحبة الأولاد ماها هينة أو بالبساطة دي برضو، لأنو صعب البت تصاحب ليها ولد من غير ما الولد ما يخت في بالو أو يفكر إنها ما صاحبتو إلا عشان معجبة بيهو، أو مكسّرة فيهو!.

الحاجة دي كان فيها إعلان مبطّن، لكنو واضح وضوح الشمس بالنسبة لي، فحواهو إنها صاحبتني لأني ما بنظر ليها كأنثى بجسد، أو مشروع حب وجكيس مثلا، لكن بنظر ليها كأنثى بعقل وفكر وروح، بحترم رأيها وكينونتها. وإعلان تاني مبطّن برضو، إنها ما على أي إستعداد لعلاقة في الجامعة، أو ما مفكرة في الموضوع ده في الوكت الحالي.

ما كان مهم بالنسبة لي، أنا شخصيا كنت بهز راسي وبأمن على كلامها كلو، أصلا ما لي في العلاقات ولا ميّال للفكرة، وإن كان عندي رأي برضو في صحبة الأولاد مع البنات عموما. بس هي كانت إستثناء بالنسبة لي، إحتمال تكون حست بالحتة دي، عموما، بقى في زي إتفاق خفي بيناتنا على ترسيم حدود لعلاقتنا مع بعض، بالعكس كده أفضل طالمّا بتماشى مع سجيتي وما بتخليني أتوقف أراجع نفسي أو تصرفاتي لأي سبب من الأسباب.

مع إنّها كانت بتتقبل مني وتسمح لي أتدخّل في حاجاتها أحيانا، وحتى لو إتحججت بكون إحتتجاجها لذيذ و واهي والغرض منو الغيظ والمّناكفة البريئة، بالأخص لمّا نجى لموضوع اللبس والمكياج، ما قاعد أرحمها كلو كلو لمّن كانت تلبس ليها حاجة ما ياها، حاجة تكون ملفتة شديد أو تضايقني لمّا تخلي الشباب المارّين يقعدوا يعاينو ويركزوا فينا، أوبالأصح يعاينو ليها هي ويركّزوا فيها. دمّي كان طوّالي بفور وما بستحمل، أو قامت يوم غلطت وكتّرت المهلبية، أقصد الميكب ولو الحاجات البسيطة بتاعت المحافظة على الوش والشنو وشنو، ما قاعد أفوتها ليها. يوم سألتني:

- وين صاحبك الأسمراني الكان معاك في البص داك؟..

***

عجبني إختيارها لكلمة أسمراني، مع إنو أتيم ما شاف السمرة بعينو، كان أسود زي الفحمة الملمّعنها بي شحم غزالان، كنت أنا بقول ليهو الأبنوسي، يمكن إختيارها للأسمراني تلطيف منها، عجبتني الحاجة دي فيها، لأنو العنصرية الكانت زمان محبوسة في نطاق ضيّق، هسي بقت أمفكو مفتوحة فينا بكل عهر

القبح الفيها، حتى في أركان النقاش الحاجة دي واضحة وملفتة، وسببت مشاكل كتيرة في الجامعة.

وتجربتي معها في البلد كانت مُرّة ما بتتنسي، لمّا سقت معاي أتيم ونزلنا إجازة سوا هناك، كانت عيون كتيرة مشفقة على، وأنا ما جايب خبر، زي عيون "ماري" أمو، وفي سؤال عمّي ونظراتو لعمّتي قبل السفر، وحركات الدخين، الخسرتو نهائيا بسبب عنصريتو دي، وغبن الترابالي المّا مفهوم، ومجاهرتو بالسوء قدّام صاحبي، كنت بشوف إنو كان بيستاهل طردتو من البلد وهجرتو للحلة التانية عقابا ليهو على فعلتو الدنيئة، حتى وإن جات مغلّفة بسبب مشكلة بت ناس ود الحسين.

عاينت لها بإستغراب، وإندهاش حقيقي، هل ممكن تحصل صدف بالشكل الغريب ده؟ أو للدرجة دي؟ مها إتحرجت، سألتني بتردد ظاهر:

– سؤالي فيهو حاجة غلط؟..

إنتبهت لنفسي ونظراتي الغريبة ليها، لخبطّت على البت ساي، قمت ضحكت عشان أخفف من حرجها:

– بالعكس..

نزل منها الحرج وإتحول لإستغراب:

– طيب مالك؟..

– كل الموضوع مستغرب من الصدفة الغريبة دي..

– ياتو صدفة؟..

– أتيم جاييني الجامعة بعد شويّة..

– هو إسمو أتيم؟..

– أيوة، وحتلاقيهو معاي إن شاء الله..

يا دابها إنشرحت ونزل منها، ولحدّي ما أتيم يصل قلت ليها يلا، سقتها على البنش بتاعي المشهور، مشينا قعدنا هناك لحدّي ما أتيم يصل، ما كان في موضوع معيّن شاغل بالنا، إستمخيت في البنش، قلت أخلق ليها موضوع ما دام مافي:

– عايني، ركزي معاي..

– أعاين وين؟..

– ولا حتة، بس ركزي معاي في ناس المين، تقدري تحددي لي كل شلة قدّامك من ياتو كّلية؟..

عاينت لي بإستغراب ممزوج بالسخرية:

– لو ما بعرفهم حأقدر أحددهم ليك كيف يعني؟..

– دي الكنتة ذاتها..

– وإن شاء الله تكون فاكرني عمّيدة كّلية ولا مديرة الجامعة؟..

قمت ضحكت:

– كدي حاولي، أبدي معاي بالمجموعة القدّامك دي، ما تنسي، ميزة المين إنو بلم ليك ناس الجامعة كلهم في حتة واحدة، ما بس ناس السنتر، كل الكليات الطرفية، ومرات كمان ضيوف من برّة الجامعة..

المجموعة الأشرت عليها كان فيها تلاتة بنات وولدين، ركزّت فيهم شديد، كنت بعاين ليها في وشّها وهي مركّزة، أخدت وكتها، لكن تعابير وشّها بتقول مافي أي إنفراجة جاية في السكة:

– صعب ياخ، ما بقدر، ورّيني إنتا..

– طيب عايني، الحاجة الملاحظ ليها، كل كّلية بتشكّل ناسها..

قاطعتني:

– كيف؟..

– بورّيك كيف..

– أها؟..

قمت ربعّت يديني بعد ما كنت شاريي يدي اليمين براها في حافة البنش فوق على مستوى كتفي، ومها على شمالي وهي أصلا بتقعد مربعّة يدينها وبتكون ضامة كرعينها عليها:

– شوفي، ما عارف الحاجة دي بتحصل كيف، لكن خلينا نسميها قانون الجذب، القانون بتاعنا ده بفترض إنو في قوة بتجذب الناس البتتشابه وتلمهم مع بعض في نفس الكّلية، وعلى كده حتلقي كل كّلية ناسها بشبهو بعض، دايما في حاجة مشتركة بيناتهم، حتى لو زول كابر ودخل الكّلية الغلط ما بتقسّم معاهو، وببقى في حالة نزاع طوّالي ومعافرة ومعاناة شديدة عشان يستمر وينجح غصبا عنو. كتير بفكّر في الموضوع ده، في الأول إفتكرتو صفات مكتسبة، يعني لحدّي ما الزول يدخل الكّلية حتين يبدا يأثر ويتأثر، أو بالأصح يتأثر في الأول قبل ما

هو ذاتو يبقى مؤثّر، لأنو البيئة دايما هي البتحكم في الأول، لحدّي ما يحصل التآلف والإندماج والإنسجام حتين تبدا العلاقة تبقى أخذ وعطاء، لكن بعدّاك وصلت لقناعة إنو الحاجة دي بتحصل قبل المرحلة دي بمراحل بعيدة..

كانت متابعاني بإهتمام شديد، ومركّزة مع الكلام، فسألت:

– كيف، ممكن تشرح أكتر؟..

– خليني أديك أمثلة حيّة عشان الكلام يقع ليك..

– طيب!..

– مثلاً عايني للشلة السألتك منها، بقدر أقول ليك أنا واثق بنسبة خمسة وتمانين في المية إنهم من ناس إقتصاد..

– والبخليهم يبقوا من إقتصاد شنو حسب نظريّتك؟..

– أيوا بالضبط! لمّا أكون في نص ناس إقتصاد، بحس بالجاذبية المميزة بتاعتهم، حاجة كده زي خليط عندو ريحة وملمس ولون، الخليط ده كلو بتستشعريهو وتحسيهو لمّا تعتادي عليهو ويختزن في ذاكرتك، بعدّاك بتقدري بكل سهولة تميزيهو أول ما يلاقيك تاني..

بقت مها تعاين لي بإندهاش تام، لكن بدون ما تسأل تاني أو تقاطعني، قمت سكت وبعاين ليها بتبسّم في دهشتها قبل ما أواصل:

– أثبت ليك؟..

– ممكن؟..

كان واضح عندها رغبة حقيقية تعرف، أثرت فيها الشغف للمعرفة، وغير ده كلو، كل نظرية عايزة إثبات، كنت متمني جوّاي ما أفشل، لأنها حتقوم تسخر مني تاني لوكت طويل وتعملني مادة للتندّر. أها قمت برّاحة من البنش ومشيت على المجموعة.

***

– سلام يا شباب..

ردّوا على كلهم بروح طيبة، قمت سلّمت عليهم في يدينهم واحد واحد زي البينا سابق معرفة، وبدون مقدّمات قعدت معاهم وعرّفتهم بي نفسي، ودي واحدة من الطرق الكنت بتعرف بيها على الناس في الجامعة، بخش فيهم لفت من غير أي مقدّمات، دي ميزة المجتمعات الطلابّية، مافي أيِّ تكلّف.

كانت البنشات مليانة، وهم إختاروا يقعدوا حولين ساق شجرة كبيرة من شجر المين البكون مرصوف حولها حوض كبير، كانوا عاملين مع بعض زي نص دايرة. وعشان مافي زول فيهم يستاء ويفتكروني متطفّل سغيل وتقيل الدم، قمت سريع عرّفتهم بنفسي وواصلت في الكلام لحدّي ما وصلت للسبب الجابني ليهم وخلاّني أتعرّف عليهم، أخدت معاهم تاني زي تلاتة دقايق قبل ما أرجع لمها.

لمّا رجعت ليها، كان الشباب بضحكوا وبعاينو لينا، مها إستقبلتني بعيون متسائلة، يعني أها؟ الحصل شنو؟ قابلتها بإبتسامة مترجية لحدّي ما أقعد، أول ما قعدت الشباب كانوا بعاينو لينا، منتظرني بس أقبّل عليهم، أوّل واحد رفع ليها يدو وهو بضحك، "تانية إقتصاد"، البعدو برضو "تالتة إقتصاد"، واحدة من البنات، "كلنا نحنا في تانية إقتصاد إلا صحبتنا دي" ودقت على كتفها، "دي من آداب"، رفعت ليهم يدي يعني شكرا وقبّلت على مها:

– أها، رأيك شنو؟..

كانت مندهشة للحد البعيد:

– مبالغة طبعا!..

– أها وبنفس المستوى ده، وعلى حسب نظريتي دي، عندك شلّة الأولاد التلاتة الهناك ديلاك، شوفي شكلهم جادين كيف، ديل من قانون، وشلة الأولاد الأربعة العاملين صخب طالعين ونازلين في المين ديلاك من هندسة، أما زولتك دي الماّشة مع الولد ده.

وقمت أشّرت عليهم:

– من مشيتها ظاهر عليها ضهب، هي طالبة وبتقرا في الجامعة، لكن ما من جامعتنا دي ولا واحدة من أي واحدة من كلياتها التانية، لا من مجمّع شمبات ولا من مجمّع تربية ولا من مجمّع طب ولا غيرو، شكلها بقول من جامعة السودان، لأنو زي ما كل طلاّب كّلية ليهم نكهة مختلفة، الحاجة دي بتتمازج بقدر أقول في وعاء أكبر لحدّي ما يشكل طالب كل جامعة براها، بالتالي طالب الخرطوم بختلف عن طالب السودان، بختلف عن طالب الأهلية والجزيرة وهكذا.

مها لسّة كانت معلّقة:

– مبالغة لكن! وده كلو لاحظت ليهو في سنة بس؟!..

– أحيانا الحاجات بتكون قدّامك واضحة، بس محتاجة تركّزي معاها شويّة..

في اللحظات ديك كان في طالب كّلية شرطة أبنوسي طويل ومهندم بزي طلاب كّلية الشرطة جاي علينا يتبسّم، قمت على حيلي أستقبلو:

– مها، أعرّفك على أتيم!..

***

كان أتيم دخل كّلية الشرطة في نفس التوقيت الدخلنا فيهو الجامعة تقريبا، كان متأثر بمسيرة حياة والدو الطويلة في الشرطة، وقرر بدورو إنو يواصل نفس المشوار، لكن يدخل كّلية الشرطة عشان يتخرّج ضابط، وفعلا إتحققت أمنيتو ودخلها من الأوائل بعد ما إجتاز كل المعاينات المطلوبة، كان زول ذكي وهميم ودقيق جدا في حياتو، والشرطة مؤكد بتناسبو.

بس كانت المشكلة إنو على عكسنا، ما مسموح ليهم يمرقوا كتير برّة الكّلية، بالذات في الشهور الأولي الكان بتم فيها التركيز على التدريب البدني والعسكري، في الفترة دي بكونوا في مراحل تكوين الشخصية العسكرية الحتفارق الملكية يا قولهم للأبد طالمّا هو منتمي للشرطة، في الفترة ديك ما شفناهو إلا بعد تلاتة شهور، وتاني مرت زي تلاتة شهور قبل ما أشوفو مرة تانية، لكن أخيرا بقوا يدوهم فرصة خروج مرة واحدة في الإسبوع يقضوا نهاية إسبوعهم مع أهلهم ويرجعوا تاني للكّلية، ودي الفرصة الوحيدة الممكن ألاقيهو فيها.

كنت بحس بالتغيير الحصل معاهو بشكل واضح، إبتداءا من مشيتو وإنتصابو في وقفتو، وحتى طريقة كلامو وتفكيرو إتغيّرت، مش ياهي نفس البيئة الكنت بتكلم عنها مع مها؟ مؤكد كل بيئة ليها تأثيرها على منتسبيها. المهم، اليوم داك كان خميس وكنا متواعدين نتلاقى في المين، عندو قريبو في الداخليّة كان حكى لي عنو قبل كده لكن ما حصل لاقيتو، أها اليوم داك كنّا متواعدين قبلها بإسبوع إنو حيجيني الجامعة عشان نلاقيهو.

إستأذنّا من مها، أصلا كانت مارقة على البيت وما عندها قعاد تاني في الجامعة، شقينا أنا وصحبي أتيم سنتر الجامعة من الشرق للغرب في إتجاه هندسة، قطعنا الميدان الغربي كلو لحدّي ما مرقناها في كافتيريا هندسة، زول أتيم كان قاعد راجينا في بنش تحت شجرة لبخ(19) كبيرة، كان شايل ليهو كمية من الدفاتر ومسطرة رسم هندسي طويلة في جرابها، مسطرة مشهورين بيها ناسهم محل ما تشوف زول شايلها تعرفو طوّالي من هندسة.

أول ما الشاب شافنا جايين عليهو قام على حيلو هاش باش، سلامو كان جميل ولطيف، أتيم عرفنا على بعض، "حسين"، "مجوك"، طوّالي مشى عشان يكرمنا، قدر ما حاولنا معاهو نمنعو رفض إلا يشتري لينا البارد، قعدنا نتونس لحدّي ما نخلّص البارد، مجوك قال الجامعة الليلة فايرة ومكركبة، فعلا كان في كمية من أركان النقاش والمخاطبات بدت في اللحظات ديك في السنتر، أولها كان في هندسة، علّق عليها بإنها مزعجة وما مريحة، الأفضل نمشي على الداخليّة، شفتو إقتراح مناسب، لأنو المخاطبة الفي هندسة كانت عبارة عن هرج ومرج.

ما كان عندي إعتراض على الفكرة من حيث المبدأ، علاقتي بالداخليات عموما كانت ضعيفة، مشيتها زي مرتين تلاتة مما دخلت الجامعة مع شبابنا في الكّلية الجايين من الولايات، وأهو جات الفرصة تاني الواحد يمشي على داخلية مع أتيم وصحبو.

رغم إنو جو الداخليات عموما كان بحسسني بالبؤس والكآبة، والتعاسة الشديدة والمسغبة والفقر الفيها الطلاّب، لكن غرفة ناس مجوك حقيقي أذهلتني، كانت نضيفة ومرتّبة بصورة ما إعتيادية، أصلو ما إتخيلتها تكون كده، أو حتي ممكن يكون في غرف شكلها كده.

في غشواتي الفاتت، شفت لي غرف عبارة عن كوش، زبالة بس، تستغرب إنو كيف طالب يسكن بالشكل ده؟ صراحة الجو كان مغري والغرفة مرطّبة، وزملاء مجوك في الغرفة كلهم مافيشين، طوّالي قلّعت نعلاتي وإتمددت في السرير، أتيم ومجوك كانوا بتونسوا، وأنا بدون ما أشعر لقيت ليك نفسي رحت ماخد لي غفوة بي فهم.

ما عارف نمت قدر شنو لكن شكلو كان نوم بعمق، صحيت على الجوطة والغلبة والكركبة الكانت حاصلة، الداخليّة كلها فايرة، أتيم ومجوك لسّة في حتتهم في السرير المقابلني:

– في شنو يا جماعة؟ الجوطة الحاصلة شنو؟..

***

نطّوا الإتنين من السرير، مجوك مشى على الباب، وأنا وأتيم جرينا على الشبّاك، إتجاه شبابيك الغرفة كان بفتح بزاوية ممكن يخليك تشوف مسافة طويلة في شارع الجامعة لحدّي قريب بوابتها الرئيسية، بالله نلقى ليك الدنيا برّة كبسيبة وفايرة فوران ما إعتيادي، سألت روحي الحاصل شنو؟..

مجوك كان بيسأل واحد جا جاري قدّام الباب، الشاب قال ليهو المخاطبات في السنتر إتقلبت لإشتباك بين المعارضين والمّنتمين للحزب الحاكم، إضطرت الشرطة والأجهزة الأمينة لإقتحام الحرم الجامعى. كنّا إتعودنا على وجود دفارات وبكاسي الشرطة البتتواجد في شارع الجامعة تقريبا أربعة وعشرين ساعة في اليوم وسبعة أيام في الإسبوع، زي ما إتعودنا على وتيرة شبه روتينية، وهي تحول أركان النقاش إلي مخاطابات ثم عنف طلابي، أو القفز من أركان النقاش طوّالي إلي مرحلة العنف بدون المرور بمحطة المخاطبات. والحاجة الواضحة المّا بتغالطوا فيها إتنين، هي الحماية والدعم والسند البلقوها المّنتمين للحزب الحاكم، تحرسهم الشرطة بالخارج، يفتح ليهم الحرس الجامعى البوابات، عين الجميع من شرطة وحرس جامعى على العصي والجنازير والمولوتوف الشايلنها في أيديهم بإتجاه أخوانهم في الجامعة، وأحيانا أسلحة نارية كمان.

كنت بسأل نفسي بشكل متواصل، الكلام ده ليهو كم سنة الأن بشكلو ده؟ التغيير المتوقع يحصل شنو مثلا؟ هل تم الوعي المنشود عن طريق المناشدات والمخاطبات؟ والطلاّب المدكنين ليهم سيخ وبنزين وأسلحة وبلاوي زرقا في مكان قريب من الجامعة، عايزين يفرضوا شنو مثلا بسلوكهم العنيف ده؟ مش العنف لا يولد إلا العنف؟.

على العموم ده كلو ما كان شغلتي بيهو الشغلة، كنت برفض شكل العنف بين الطلاب بكل اشكالو، زي رفضي للوصاية بكل أشكالها، حتى لو فرضوها علي بالعنف أو غلّفوها بأي إدعاء هدفو التمكين.

رجعت أدراجي جوّة الغرفة لمّا كبست علينا ريحة الغاز المسيل للدموع، حاجة كده غير محتملة في العيون والحلق مع إننا كنا بعيدين عن جو الكر والفر الحاصل في الجامعة، كانوا بقولوا ده غاز تصنيع إيراني مخصوص، طيب العادي كان كيف؟ قفّلنا بابنا وشبابيكنا علينا، كانت أحداث الجامعة محور حديثنا، مرة مرة كانت الأصوات تهدأ وترجع تاني تهيج ونسمع صوت إطلاق الغازات المسيلة للدموع، صوت إطلاقها بشبه صوت إطلاق النار من البنادق العادية، صعب على كتيرين يفرزوها، أنا كنت واحد منّهم في الأول.

نحنا في حالنا داك، وبعيدين عن جو الإثارة، قوماك فجأة الداخليّة ذاتها تجوط! بدون سابق إنذار كانت قيامتنا قامت، بالله فكّوا فينا كمية بمبان عمري ما شفت زيها قبل كده، لمّن الزول بقى مغمّض ويفتش في النفس، حالتنا بقت صعبة، تحك عيونك تكون جبتها لنفسك، كانوا بقولوا مفترض الزول يستخدم الخل

والليمون في قطعة مبلولة أو الكوكا كولا عشان يشيل بيها آثار الغاز من تنفّسو وعيونو، لكن نلقاهم وين ديل هسي؟ خلوكم من ده كلو، الداهية شنو الجات لحدّي الداخليّة؟.

لسّة ما فقنا زي الناس من عذاب الغاز لقينا البوليس والشرطة وشرّامة شايلين عصي وسيخ وملثمين مكابسننا في حوش الداخليّة والممرات ومعانا جوّة الغرف، بالله وقعوا في الناس دي صقع بدون فرز، كلنا أخدنا جلداتنا، لكن لمّن مرقونا برّة الغرف وشافوا أتيم بزي طلاّب كّلية الشرطة قاموا سحبوهو مننا بالقوة وطلعّوهو برّة الداخليّة كلها رغم مقاومتو، ورجعوا تاني بدوا يجلدوا فينا من الأول.

اليوم داك إتبهدلنا بهدلة شديدة خلاص، كركرونا كلنا على القسم، وفتحوا فينا بلاغات ودخّلونا الحبس، تاني حبس؟ يا ناس؟ بلاغات شنو كمان؟ قالوا بلاغات إزعاج عام وإثارة شغب، بسم الله الرحمن الرحيم؟ ياخي نحنا قاعدين في داخليتنا، إنتهكتوا خصوصيتنا وأذيتونا وكمان تلفقوا لينا في التهم؟.

قدر ما حاولنا معاهم بي جاي بي جاي، أبو يسمعوا لينا كلو كلو، الزول الماسك القسم كان رتبتو كبيرة، بس الصراحة هو وكل الضبّاط المعاهو، وحتى العساكر الكانوا في القسم ما بشبهو ناس مكافحة الشغب ديلاك الكابسونا في الداخليّة نهائي، ياخ ديلاك صارّين وشهم طبيعي، عملت شي ولا ما عملت شي بمحطوك بمحطوك، شكلهم مدربين بس على كده ودي شغلانيتهم.

أتيم إختفي من لحظتها، لكن كنت مطمئن، الزي اللابسو بحميهو، أو كنت بتمنى كده، المهم قضّينا باقي وكتنا التعيس داك في الحراسة، صليت العصر والمغرب جماعة جوّة وسط المجرمين والمظاليم، الحبس ما بفرز ليهو زول، بس حاولوا قدر الإمكان يفرزونا برانا من باقي المساجين، كان عددنا كبير، بعد المغرب بدينا نطلع بعد ما كتبنا تعهدات، وأمرنا لله، إننا ما نثير الشغب والما بعرفو داك، غايتو لبسّونا التهمة ظلمّا ووقعّنا على الوريقة علشان نبقى مارقين.

مشينا إستلمّنا حاجاتنا من قسم الأمانات، كانوا ملّصونا أي شي ممكن يتقلع، ساعات، موبايلات، أحزمة، قلت إحتمال كبير الأحزمة دي يكونوا بخافوا منها نقوم نكتل بيها بعض ولا ننتحر مثلا، لمّن مرقنا لقينا أتيم في إنتظارنا.

اليوم داك، ونحنا راجعين على الداخليات تاني، عملناها ونسة وضحك وقرقرات بأعلى أصواتنا في الشارع، نحكي في المواقف والبلاوي الحصلت معانا، في ناس مساكين فقدت ممتلكاتها، وفي ناس الصندوق الداعم للطلّب والمسؤول عن الداخليات طردهم من سكنهم، ما عارف تفاصيل الحاصل شنو بالضبط، لكن

تاني يوم كان في لفتة جميلة في الجامعة، الطلاّب كلهم وزّعوا مناشير وإهتموا بالحصل لأخوانهم وأخواتهم في الداخليات، وبدت حملة تبرّعات بأي شي للجميع، في ناس فقدت ملابسها، وناس فقدت موبايلاتها، وناس فقدت حتى كتبها ودفاترها، بس التكافل كان جميل، وهناك من خلف أسوار الجامعة كانت بتجي تبرعات سخية من فاعلي خير، ما بتقدر ترصدها، لكنها كانت سخية وكريمة للحد البعيد، لدرجة كانوا بضبحوا خرفان كرامة لطلبة الداخليات.

الإسبوع البعدو أتيم قال لي جاييك الجامعة، قلت ليهو يا أتيم ياخ إنت زول كفوة، بتجيب لينا الهوا وبتمرق منها زي الشعرة من العجين، عليك الله خليك قبلك في الإشلاق أنا بجيك هناك زي ما تحب، أو تعال لي عند ناس عمّي، جاييك في الجامعة قال!.

***

سألتني مها يوم بدون أي مقدّمات أو مناسبة ونحنا في بداية سنتنا التالتة في الكّلية:

– حصل يوم سفّيت قبل كده؟..

وكانت بتقصد الصعوط طبعا، عاينت ليها بدهشة، إستغربت سؤالها، صحي علاقتنا إتوطدت ببعض شديد، لحدّي ما دخلت بيتهم وإتعرّفت على أمها الكان رأيي فيها زمان إنها مرة لعلاعة وأبوها العرفت إنو نزل المعاش قبل شهور قليلة وكان موظف بنك كبير، وأخوها الوحيد الأصغر منها بسنوات واسمو هاني، وكانت مسمّياهو ود حبوبتو لأنو نادرا ما يكون معاهم، دايما بكون متواجد مع ناس حبوبتو الربّتو.

لكن ما كانت قاعدة تسأل من خصوصياتي شديد، ولا أنا ذاتي يوم سفيت قدّامها ولا حتى شربت لي سجارة، طيب لزوم السؤال شنو؟ رديت على سؤالها بسؤال:

– ليه السؤال الغريب ده؟..

– لا بس ساي..

– عليك الله عايني هنا يا مها، أنا من زمان بقول ليك مافي حاجة إسمها ساي، حتى لو عقلك صوّر ليك المسألة ساي مؤكد في باعث، في سبب..

بتهرّب كده تاني ردّت علي مصرّة:

– والله ساي..

ركزّت فيها شديد وأنا بسألها للمرة التانية:

– مش هسي كنت بقول ليك مافي زول بقول كلام ساي؟ أنا متأكد لو فتشّتك بلقى في سبب ورا السؤال ده!..

قامت ضحكت، ولأني بقيت فاهمها كويّس، طوّالي سألتها:

– لقيتي منو بسف وضايقك؟..

إتعودت مني نوعية المداهمات دي، بقت عارفة أنا فاهمها كويّس، مع إني ما بدّي نفس قلادة على الحاجة دي، لأنو قدر ما أفتكر نفسي فهمت البنات كويّس بلقى الحكاية إيك لسّة بدري عليها، عايزين ليهم زول يتفرّغ ليهن عشان يفهمن كويّس، يبدوها معاهن من مرحلة البكلاريوس وبعدها الماجستير، يمكن لحدّي الدكتوارة كده، وإحتمال كبير يكون يا دابو فكّ ليهو طلسمة أو طلسمتين عن المرأة!.

حتى مها صحبتي دي ذاتها، مرات كده عندها حاجات أو بسمّيها حالات، بتقوم عليها ما تقدر تفهما، ممكن تكون في مود كويّس، فجأة بلا سابق إنذار تقوم تقلب المود مية وتمانين درجة، ليه؟ ما تعرف السبب، هل للطقس علاقة بالموضوع؟ هل هي حالة نفسية متعلّقة بالمرأة؟ هل وهل؟ بس شاكر ربي تقلّباتها دي ما قاعدة تقع فيني أو تكون معاي. ما عاينت لي في وشي لمّا ردّت:

– التمباك ده حاجة قبيحة خلاص!..

برضو ما لقيت إجابة مفيدة، طيب ليه سألتني؟ عايزة تراعي لي مشاعري قبل ما ترد على مثلاً؟ برضو رجعت لسؤالها تاني:

– أها ما قلت لي، بتسف؟..

– كنتا..

عاينت لي بإستغراب، ولاحظت التقزز في وشيها، ولكن أصرّيت أواصل كلامي طالمّا بدت الكلام:

– أيوة كنت بسف، عندنا في الحِلَّة موضوع الصعوط والتمباك ده حاجة عادية، زي نوع من الثقافة المنتشرة، صحي كانوا بحاولوا يمنعونا ونحنا صغار، لكن عادي ممكن تلقي أطفال من عمر عشرة أو إتناشر سنة بسفّو.

– عادي؟!..

– أيوة عادي، تصدّقي؟!..

صنّت شويّة كده، شكلها كانت بتضيفها للحكاوي الكتيرة الكانت بتسمعها منّي عن حلتنا، لمّن بقت زي الكأنها بتعرفها حتة حتة، كان نفسها تمشي تزورها في يوم من الأيام:

- جرّبت حاجة تانية؟..

- حاجة تانية زي شنو؟..

- أي حاجة تانية..

عرفتها ما عايزة تحدّد لي شي معين، عايزاني أنا أنبهل بالعندي من غير ما تحدد لي طريق للإجابة، ما كانت فارقة معاي، ما قاعد أخجل أو أدس حاجاتي، لأني بعتبرها تجربة مرت بي خيرها وبي شرّها قبل كل شي، تجربة إحتمال تفيدني في يوم من الأيام لمّا يكونوا عندي أولاد يقوموا يدخلوا طور المراهقة الخطيرة وتبدا المشاكل، ثم ثانيا أصلا صلتي بالحاجات دي إنقطعت ليها زمن، وتاني شي علاقتي معاها علاقة ثقة، قمت رديت عليها من الباب ده وأنا بضحك:

- طبعاً أموت وأعرف الليلة مقبّلة على مالك! عايزة تعرفي؟ طيب حاضر، أربطي حزامك لأنك فتحت خط النار..

قامت ضحكت ضحكة حلوة بريئة فيها الكتير من الإنفعال.

- جرّبت السجائر، مش السجائر بس، جرّبت البنقو كمان!..

خلعتها كانت حقيقية، وهي بتعقّب:

- بنقو؟..

- أيوة بنقو، لكن مرة واحدة بس، وعملت فيني عمايل ما ياها، لكن أقول ليك حاجة؟..

- أها..

- أنا مبسوط من نفسي إني جربتو رغم إني ما مفتخر بالتجربة..

- كيف؟..

- على الأقل عرفتو هو شنو، وبعمل شنو، ما محتاج زول يقول لي بعد كده..

- طيب على كده شربت عرقي ولا وسكي وجرّبت تسكر..

- السكر لا، ده نهائي ما قرّبتو..

- ليه لأ؟..

- يمكن عشان ما جاتني فرصة أجرّبو..

- يعني لوجاتك الفرّصة حتجرّب؟!..

- لأ..

- ليه؟..

- لأنو الحاجات الذكرتها ليك دي كانت متوفّرة ومتاحة لي في سن وفترة معيّنة من حياتي، فأي حاجة كانت في متناول يدي وكتها جربتّها، بس ما كان قدّامي سكر، و إلا إحتمال كبير كنت جربتو برضوا!..

قمت إتذكّرت ناس ليدو وشلّتو، و واصلت:

- بالمناسبة، حتى السطل بالسلسيون جربتو..

- ياخي إنت طلعت كارثة!..

- زمن الكوارث ولىّ يا زولة، لو عرفتيني في الأيام ديك مؤكد كان إتسطلتي معاي..

وقعدنا نضحك مع بعض، كانت بتضحك من جوّة قلبها، تاني ما سألتني أي سؤال، ولا رجعت سألتها عن سبب أسئلتها، ما دام ما قالت معناها ما عايزة تقول، قلت خلاص أخلّيها بي راحتها، خشّينا باقي محاضراتنا وكنا بنقعد طوّالي مع بعض، إنتهينا حوالي الساعة أربعة ونص وجينا مارقين كالعادة سوا.

في الغالب بنتفرّق من المين لو أنا بقيت راجع على علوم أفتش على عبدو، أو نطلع برّة الجامعة نقيف قدّام البوّابة، بقوم أنتظرها لحدّي ما تركب المواصلات المتجهة غربا، قبل ما أقوم أمشي أقطع لحدّي الشارع التاني عند شارع الجمهورية أركب من هناك، لأنو إتجاه مواصلاتي عكس إتجاه مواصلاتها تماما.

لمّا وقفنا في المين وقبل ما أودّعها، شعرت بيها مبسوطة بدون سبب ظاهر، تحس بيها روحها محلّقة في العالي ومنشرحة جدا، قمت سألتها:

- الليلة ما شاء الله عليك بسحروك، شايفك مبسوطة، أها إن شاء الله خير؟ تكون دي المحاضرات التعيسة دي عجبتك ولا شنو يا ربّي؟..

كان في وشّها أجمل إبتسامة أشوفها عليها وهي بترد:

- بكرة بورّيك، بس تعال بدري..

- طيب، يا يوم بكرة ما تسرع تخفف لي نار وجدي، خلاص حاضر يا ستي، خلاص نخليها لبكرة..

كنت بقتبس ليها من أغنية محمد الأمين وكأني بشاركها فرهدتها، وأعكس ليها شوقي ليوم باكر.

***

في اليوم التاني نسيت ليك موضوع مها نهائي، طلع من بالي، كان عندنا محاضرتين خفيفات وأنا عندي موضوع مهم مفروض أنجزو لأبوي في البلد مؤجلو لي كم يوم، إتفقت مع عمّي أمشي ليهو السوق لأنو حيساعدني فيهو، أها قمت إستغليت الفرصة ودكيت المحاضرتين، لمّا إنتهيت لقيت في فرقة زمن ممكن أمشي الجامعة، مع إنو أصلا أنا داكّي ومافي سبب يرجّعني ليها، مش قلت ليكم فيها جاذبية؟.

الساعة كانت حوالي إتنين ونص لمّن وصلت الجامعة، في الفترة دي كانت مها ضربت لي زي مرتين تلاتة في الموبايل، بس كنت مشغول شديد وكل مرة أقول أرجع ليها أنشغل لحدّي ما نسيت مسكولاتها ذاتها، ما إتذكّرتها إلا لمّن دخلت بي بوابة الجامعة وأنا بقلّب في موبايلي.

أول ما خشيت بالمين لقيتها قاعدة في البنش بتاعي المسمياهو"بنش حسين"، جيتها هاشي وباشي، لكن لقيت البت مركّبة لي وش ككّو.

– بسم الله، مالك يا مها؟ في شنو؟..

– أنا زعّلانة منك..

– منيٍّ أنا؟ ليه؟ زعلّتك في شنو؟..

– إنت ما ناسي حاجة؟ مش مواعدني الليلة تجي بدري؟..

صراحة ما متعود من مها تزعل مني أبدا، دايما بتخلّي مساحة بيني وبينها، لا أنا بملاها ولا هي بتملاها، حاجة زي فاصل غير مرئي متعارف عليهو بيناتنا نحنا الإتنين بس، حاجة زي الفاصل المدارى، مسميهو بيني وبين نفسي فاصل "حاجاتي وحاجاتك"، لا هي بتتعلّق بحاجاتي ولا أنا بتعلّق بي حاجاتها، وفي النص ردم وحشو تقيل، مراتب، ملايات، قطن، سفنجات، حبوب بندول، أي مصيبة تخطر على بال الزول عندها علاقة بالعواطف نحنا دافسنها هناك. أها، يبقى لو البت دي زعلت مني معناها فعلا حاجة كبيرة، ومافي حاجة تخليها تعمل كده إلا أكون ضايقتها شديد، قمت حسيت بالندم، رغم إني لسّة ما فاهم ولا مستوعب هي شنو الحاجة دي، المهم كنت قررت أخفف عليها زعلتها منيٍّ بأي طريقة كانت وأنا لسّة بسأل في نفسي، الخرابة؟ طيب لو ما كنت جيت الليلة كانت حيحصل شنو؟.

– طيب ولا يهمّك يا ستّي، معليش حقك علي، خليني أعزمك عصير بارد يهدّي أعصابك شويّة، وأنا تاني كلي ليك آذان صاغية أسمع قصّتك..

– ما عندي نفس!..

ربعتّ يدينها بسرعة ضربت بيهم صدرها بعصبية، غايتو، أوّل مرّة أحنس لي بت في حياتي غير سوما، حنّستها جنس تحنيس اللحظات ديك، لو كانت أي بت تانية كنت قلت ليها بـي جازك مـع المراعاة، والعجب لو ولد ديل الواحد بياخد معاهم راحتو للأخر، في الغالب بكون جلدهم تخين. أها بقيت أحنّك فيها لحدّي ما نزل منّها ورجعت ليها إبتسامتها وخفة روحها من تاني، لكن تفوّتها لي كده ساي بالساهلة؟.

– ليه ما رديت على تلفوناتي؟..

– والله يا مها كنت مشغول، آسف ياخ، شفت تلفوناتك، ما بكضبّ، بس كل ما أقول أرد عليك أنشغل، أها يلا خلاص، فضّي السيرة، خلينا نمشي نضرب لينا عصير فرش يهدي أعصابنا.

اليوم داك كان الجو أصلو مسخّن، مولّع نار زي ما بنقول، غلطان البحوم فيهو بالنهار، وأنا كنت واحد من الغلطانين ديل، حمت السوق العربي لمّن راسي كبس، بس مجبر أنتهي لأبوي من مواضيعو، لكن النهار في الجامعة غير، ما بشبه نهارات الخرطوم العاصفة، النهار في الجامعة لذيذ ورايق، ما بتشوف شمس إلا رقراق بين صفق الشجر، أو تمشي تفتّش ليها براك محل مافي ضللة.

أها قمنا مشينا كافتيريا علوم، بقيت متعوّد عليها أكتر من كافتيريتنا، يمكن عشان واسعة، رغم الكتل البشرية واللخمة اللي فيها، أو يمكن عشان قريبة من النيل وأنا بعشق النيل، الله أعلم، المهم كنا محظوظين لقينا لينا كرسيين وتربيزة فاضية، طوّالي قعدّتها حجزت لينا المكان، ومشيت أجيب العصير عشان أرجع أشوف العندها. الكافتيريا كانت زحمة، الناس كلها عطشانة وعايزة ترطّب، بعد مسافة جيتها راجع، لقيتها بتقلّب في صور من كراس محاضرات، قمت سألتها:

– دي شنو؟..

– دي المحاضرات الفاتتك، صورتها ليك..

مدّت يدّها وختتهم قدّامي على التربيزة قصادي.

– يا سلام عليك، ما قصرّتي والله!..

ناولتها عصيرها، قرطعت حقي بسرعة ، لأنو الجو كان ملهلب، مفعولو ظهر فيني في لحظات، شعرت براحة كبيرة، ومزاجي راق، وكنت جاهز أسمع العندها، أها قمت سألتها بإبتسامة مرطّبة المرّة دي:

– أها يا ستي، يلا أحكي!..

– كدي أول حاجة قول لي..

– أقول ليك شنو؟..

– كان عندك علاقة قبل كده؟..

– هههه، ده باقي مسلسل أمس ولا شنو؟..

إكتفت بإبتسامة، ما ردّت، لكن قبلّت على بجسمها كلو زي طالب مع أستاذو، صنيت مسافة أفكّر، وأتذكّر، طوال السنوات الفاتت ما كان عندي تجربة يقولوا عليها تجربة بالمعنّي.

– أتيم، صاحبي متذكراهو طبعا مش؟..

– أيوة..

قمت حكيت ليها قصتي أو قولوا مغامراتي في الإشلاق، من طقطق لحدّي السلامة عليكم، قلت ليها دي أول مرة أتعلّق لي ببت، وكان إسمها ندى، لكن أنا ذاتي ما بعتبرها تجربة، بعتبرها علاقة عابرّة في فترة مراهقة، لأنو علاقتى بيها ما كانت بتخلو من إثارة وإيحاءات جنسية، ما كانت تجربة حب بالمعنّي المفهوم والمعروف.

أها كمان قعدت أتفلسف ليها شويّة في الحتة دي، إنو الحب يعتبر في حد ذاتو وسيلة ما غاية، وسيلة لغاية تانية إسمى وأنبل، بعدو الحقيقي بقود لغريزة دفينة، هي غريزة البقاء البتحتاج للجماع، يبقى أي حب مفترض في النهاية يتوّج بالحاجة دي، ونحنا كبني آدمين متحضرين ومتمدنين وبالضرورة طبعا ملتزمين ومتدينين، وبعيدا عن السلوك الغرائزي الحيواني، ما بننحط أو نقفز مباشرة لحتة الغرائز دي، لأننا بنشوف إنو المشاعر هي الأسمى والأعلى والأغلى والأوثق برضو، والإهتمام بين أي شاب وفتاة ما مفترض يصل لحتة إرضاء الغرائز دي إلا بحقها ويكون بالإرتباط أو الزواج الشرعي، وإن كان في نوعية من الناس درجت على سلوكيات الإنحطاط.

الشي التاني، ربنا قال وجعلنا بينهما مودّة ورحمة ما قال جعلنا بينهما حبا وعشقا، ليه؟ ببساطة لأنو الغريزة نزوة بتحتاج للإرضاء، أول ما تلقى الإرضاء بتنطفي وتنزوي مباشرة، والحب مهما تعمّق وتعقّدت كيمياؤه مصيرو يخفت بمرور الزمن ويبهت، الحاجة الوحيدة البتفضل وعاء شامل ولامّي الحاجات دي كلها مع بعض هي المودّة والرحمة، والمودّة والرحمة ما بتجي إلا بعد الإرتباط والزواج، أو بالأصح، من اللحظة البتم فيها التوقيع علي العقد الشرعي بين الزوجين، وكأنها بتنزّلها الملايكة في موكب مهيب في اللحظات ديك.

كانت بتستمع لي بإهتمام، وحسيت إنو عندّها سؤال في حتة معيّنة عايزة تسأل منو لكن محتارة كيف، قلت أجيها أنا من الأخر:

– لو عايزة تسأليني إذا ما حصل شي بيني وبين ندى، لأ ما حصل شي!..

قامت تضحك بقهقهة، يخيل لي عبرت وشيها مسحة إرتياح.

– طيب خلّيتها ليه؟..

– أصلاً ما إرتحت للفكرة، أو قولي التجربة، لمّا أكون قريب منها بكون بفكر بغرائزي، كنت صغير وما عندي تجربة عاطفية قبلها تخليني أفرز حاجاتي من بعض، يعني أفرز مشاعري من غرائزي، ولا عندي الإمكانية دي في الوكت داك، لأنو الحاجات دي ما بتلقيها مكتوبة في دليل مثلا، بتكون عبارة عن فكرة ضبابية ومخلوطة في بعض، فكنت تحت تأثير إثارة قوية، والإثارة دي غصبا عني، وما بيدّي، كانت بترغبّني بشدة في جسدها. أها لمّا أبعد منها التأثير بزول بدرجة كبيرة، ويرجع لي جزو كبير من عقلي الكان مغبّش بعاطفتي، بلقى نفسي في حالة لوم بالكوم، ودي اللحظة اليا الواحد إتراجع عندها أو وقع في المستنقع، والله أعلم إذا وقعت في المستنقع ده كان حيحصل شنو، هل حاقدر أمرق منو تاني ولى لأ؟..

قمنا الإتنين سكتنا، مافي زول فينا إتكلّم، شكلها كانت بتقلّب الكلام في راسها وخاتة كبّايتها البقت فاضية بين أصابعينها تلعب بيها، وأنا سرحت، رجعت بعيد في شريط المّاضي وذكريات التجارب المرت بي، لمّن فقت من سرحتي كانت لسّة ساكتة.

– أها طيب، ممكن أسأل أنا؟..

– أكيد..

– لحدّي هسي ما حكيتي لي، يلا ممكن تحكي؟..

– قبل ما أحكي عايزة أسألك..

– تاني؟ الليلة غايتو جبتي آخري..

ضحكت، وضحكت معاي، لكنّها قطعت ضحكتها وشكلها بقى جاد وهي بتسأل:

– طيِّب، ما ملاحظ لسارة عباس ونهلة عمر؟..

– بناتنا؟..

– أيوة..

- مالهم؟..

- ما ملاحظ ليهم معجبات بيك؟..

قمت سكت مسافة، ما قاطعت صمتي، خلتني في سكوتي، لكن كانت بتراقب كل حركة في وشي وجسمي وأطراف أصابعيني وأناملي وأنا مدنقر في اللحظات ديك ماسك لي قشة ناشفة بدّور بيها في باقي أتر عصير في التربيزة، قمت رديت بجدية:

- لو قلت ليك ما ملاحظ بكون كضّبتا، ملاحظ وعارف، السنة فاتت نهلة سألتني إذا كان عندي معاك علاقة..

قامت قاطعتني رافعة حواجبينها وعيونها وسعت وبقت كبيرة:

- هي إتجرأت؟..

قمت ضحكت:

- أيوة سألتني، قلت ليها لأ، مها دي زولة صديقة عزيزة علي وفردة للدين ما أكتر من كده، قامت طوّالي طرحت لي..

- كمان! أها؟..

- بس..

- بس شنو؟..

- بس إعتذرت ليها بطريقة كويّسة، قلت ليها أنا ما زول إرتباطات ولا علاقات..

قامت سكتت.

- ياخي إنتي شغالة تزرزري فيني من قبيل، حتحكي لي متين إن شاء الله؟..

كانت المرّة دي هي المدنقرة في التربيزة، بتعاين في نحلة جات ركّت في راس كبّايتها، وشكلها شاردة بعيد. لكن قبل ما تقول أي شي ولا تعلّق، فجأة الكفاتيريا كلها جاطت وماجت، رفعت راسي بعاين في الجوطة عايز أفهم، لقيت في زول لابس ليهو جلابية قصيرة وملتحي ومكرضم وشيهو شايل ليهو خرطوش موية أسود واقف في راسنا:

- هذا من حبائل الشيطان!..

***

- شنو؟..

ضرب التربيزة بخرطوش الموية بكل قوتو زي العايز يوصّل رأيو بالإرهاب:

- قعدتكم ولمّتكم دي من فعائل الشيطان، قوموا من هنا..

طوّالي قمت على حيلي:

- يا زول تقوم قيامتك، شيطان غيرك إنت ده هنا مافي!..

- يا زول أحسن ليكم تفرتقوا قبل ما نفرتقها في راسكم..

- إنت يا زول ما نصيح ولا شنو؟ قوم لف كده ولا كده بلا يخمك..

طوّالي رفع الخرطوش وعايز يضربني، رفعت يدي سريع وثبت الخرطوش في الهوا لأنو كان قريب مني، إلتفت على مها:

- قومي من هنا سريع!..

إترددت في الأول، تاني قمت نهرتها، طوّالي لمّت الحاجات من التربيزة وقامت جارية بعيد، أول ما إتحرّكت إطمانيت شويّة، وبقيت في مصراعة حرّة بيني وبين أب جلاّبية ده، بالله الراجل ما عارف ماكل شنو، سمين سمن، وتخين تخن، لكن والله مش يبقى سمين، الليلة يا أنا يا هو، جابت ليها قلة أدب كمان وعايز يعلمّنا الدين؟.

بقينا في صراع عنيف مع بعض، الكافتيريا كلّها كانت جايطة اللحظات ديك، فيهم الكان بجرى وفيهم الثبت وكان بضارب في الجماعة. بعد صعوبة قدرت أقلع الخرطوش من زولي، وقعت بيهو فيهو محط، أصلو ما إتخيلتو بعد صرّت وشّو وجديتو الكبيرة دي يقوم جاري، أتاريهو طلع هرّاش ساي، وأنا جاري وراهو وممتّع نفسي بالمحط، وهو جاري وبكورك:

- يا إخوان، يا إخوان!..

بس ذكّرني المعارك التاريخية بتاعت ناس زمان، قولة يا "إخوان" دي الجماعة سابوا البعملو فيهو وقلبو علي، الشايل ليهو خرطوش والشايل ليهو عصاية، ولقيت نفسي محاصر، ما عارف لو كنت ما محاصر كنت حاأقدر أجرى؟ أصلو ما حصل يوم جريت من شكلة. المهم، بعد شويّة عينك ما تشوف إلا النور، وقعوا فيني ضرب ضر لحدّي ما فقدت الوعي، زول قدر ينجدني في اللحظات ديك مافي.

ما وعيت إلا بعد مدة، لقيت شباب كتار متلمّين فيني، وفي معوقين غيري، كانوا رشوني بالموية وبلبلوا راسي ورقبتي وقميصي، لقيت عبدو كان تاكلني من ضهرى، ومها قاعدة على ركبها جمبي تبكي، الكافتيريا شكلها زي ساحة معركة،

الكراسي طايرة والترابيز مقلّبة، وأنا بنزف، واحد من الشباب كان بحاول يوقف النزيف من جبهتي.

شالوني مدروخ جروا بي على الكلينك، الدكتور أصّر أرقد ساعة على الأقل لحدّي ما ياخدو لي صور أشعة ويكشفوا علي ويخيّطوا لي جروحي، بعد شويّة الناس كلها هجّت، فضلوا معاي بس عبدو ومها، مها ما عايزة تسكت من البكا، حننتّني.

– يا مها ياخ أخوك صنديد وبتاع عكاكيز ساي من زمان!..

دعابتي ما جابت همّها، البت ما عايزة تسكت، إستمرت بالحالة دي لحدّي ما إنتهيت من الكشف وخيّطوا لي جروحي، عبدو مشى يتفق ليهو مع بتاع تاكسي يرجّعنا البيت، قمت طلعت من العيادة، شانقين لي يدي الشمال بي حمّالة، كانت لسّة فيها خدر من الرضوخ التقيلة، شلت صورة الأشعة بيدي التانية ومرقت بيها على مها وأنا بحاول أطمن فيها:

– أها شايفة؟ الصورة أهي نضيفة، مافي أي شي الحمدلله!..

فجأة وبدون أي مقدّمات قامت باغتتني، نطت لي جوّة صدري لمّن طلعت مني آهة من الصدمة والدهشة، حضنتني زمن وهي لسّة بتبكي، ما لقيت مفر غير إني ألف يدّي الشايلة صورة الأشعة حول رقبتها وأطبطب عليها في ضهرها، وبصوت حنين و واطي:

– والله أنا كويّس يا مها، كفاية كده!..

قامت إتفجرت بكا بصوت أعلى:

– كانوا حيكتلوك لي!..

يكتلونى ليها؟ الكترابة، البنيّة دي بتقول في شنو؟ بتعزّني قدر ده؟ يا سلام ياخ، في ناس بتعزّك قدر ده؟ واصلت أطبطب في ضهرها:

– ولا يهمك يا زولة، أنسي خلاص، بكرة دي برجع الجامعة عادي زي المّا حصل شي، قامت زحت راسها من كتفي رجعتو ورا عشان تعاين لي في وشي وجوّة عيوني، وهي لسّة في حضني:

– حسين إنت ما فاهم!..

سألتها بعيوني، إترجيتها تتم باقي كلامها، ما فاهم شنو؟.

– حسين أنا بحبّك!..

ورجعت دسّت وشها من تاني في كتفي.

قلبي عمل شح، ضرب بشدة وعنف، وأنفاسي بقت تتقطّع، وبقيت أرجف، الليلة سجم أمك الراجياك يا حسين!.

***

ما قلت ليها البغم، كضمت كلو كلو، وما عارف الرجفيبة دي من الحمى أم برد بسبب ضربة راسي ولا من كلامها؟ قدّمتني مع عبدو لحدّي التاكسي، خلّيناها واقفة جمب الكلنك، أديتها نظرة وداع قبل ما التاكسي يتحرّك، كانت إتماسكت شويّة وخلت البكا، لكن دموعها لسّة جارية وتمسح فيها بالمنديل، بينما أنا كنت بعاني من السقوط الحر في فراغات بين جنبات ضلوعي.

اليوم داك ما قدرت أنوم خالص، طار مني النوم وجافاني، راسي شغال تفكير في تفكير، وجسمي ما قصّر كمان، الليل كلو كان بنتح، ما نمت إلا قريب الفجر بعد ما دبلّت الحبوب المسكّنة، صحيت حوالي الساعة حداشر ونص بصداع شديد، عمّتي النعمة الله يمتعها بالصحة والعافية كانت واقفة فوق راسي بالخدمة، ما قصرّت معاي، قالت لي عمّي مرق قبل ساعة بس، كان مقلّق عليك وقال يضربو ليهو أوّل ما تصحى، فعلا إتصلت عليهو بنفسي وطمنتو.

سوما وبكري وعبدو برضوا ما قصّروا معاي، وصيّت الحاجة شديد ما تجيب سيرة لناس أمي وأبوي، ما عايزهم يقلّقوا ويقوموا يتغلغلوا ويقولوا إلا يجوا الخرطوم. كنت الوكت كلو بفكّر في الحصل مع مها، كيف فاتت على دي؟ هسي بقت لي واضحة شديد، لكن بعد شنو؟ بعد ما الفاس وقع في الراس؟ لو بس ركّزت شويّة كنت عرفتها قبل ما تضطر تقول أي حاجة، أصلو ما ختيت ليها بالي، يا ربي كنت مشغول بشنو؟.

كنت مغيوظ شديد من نفسي، حاسي إني إتختيت في حتة ما مفترض أقع فيها بالسهولة دي، ما لقيت الفرصة أو الوكت أمنع الحاجة دي تحصل، كان لازم أثبتها قبل ما تحصل عشان خاطرها وعشان خاطري، أنا ما زول حب وعلاقات وجكيس والذى منو، هسي في بالي حاجة واحدة بس وهي الموتراني، وهي إنو علاقتي بمها تاني عمرها ما حتستعدل ولا حتبقى عادي، عمرنا ما ممكن نبقى أصحاب زي الأول، لأنو واحد مننا عبر الخط الممنوع، الخط الرسمناهو بإيدينّا، الحتة دي كانت مؤلماني جدا جدا، رغم قناعتي التامة إنو مها ما فيها أي شي يتعاب، نهائي!.

***

مع العصر كلّيتنا كلها كانت كاسرة عندنا، أولاد على بنات، كفّارات تقيلة، بين الناس كنت بفتش عن مها، وين مها؟ ليه ما جات؟ لقيت نفسي لا إراديا بفتّش عليها، أصابني الإحباط، غضبت منها، كيف ما تجي في ظروفي دي؟ مش قبل شويّة كانت بتقول لي "بحبك"؟ إجتريت إعترافها لي مرغم، هو نفسو الأنا كنت بحاول الزوغان منو، أو التفكير فيهو. ما جاب تساؤلي عنّو إلا إستنادي عليهو في لحظات غضبي من عدم جيّتها.

من ضمن الحضور كان في شاب متديّن وهاديء من أولاد دفعتنا بحبو جدا إسمو حسام، حسام ده مهما كنت جايط وفي قمة شغبي مع الشباب في الجامعة لّمن يجي ولا أشوفو، طوّالي برخي وأجر واطي، بفرض علي إحترامو بشكل مذهل، ما بهاتر و لا بهاظر زينا، في أثناء ما الشباب كانوا بيتونّسوا وبنكّتوا على الحصل، قمت قبلت عليهو وكان ما بعيد مني وسألتو:

- رأيك شنو يا حسام في الحصل ده؟..

- والله يا حسين ما مقبول نهائي..

الشباب الحلوين كانوا برضو بحترموه بنفس القدر، أول ما بدا يتكلّم بدوا يهدأوا شويّة ويسمعوا في الحوار.

- هل يعقل ده يكون شكل أمر بالمعروف ولا نهي عن منكر؟..

- لأ طبعا يا حسين، الدين السماحة، الأمر بالمعروف والنهي عن المّنكر أمر ربّاني، مشكلتنا دايماً ما في التشريعات، مشاكلنا في التطبيق، وللأسف الدين عندنا بقى عبارة عن شيوخ وأتباع، طرق وأشياع، وكل فئة شايفة نفسها هي الأصح وهي الأولي بالإتباع، وفيهم زي ناسك القابلوك ديل شايفين إنو الدولة مقصّرة في التطبيق، بالتالي واجب مقدّس إنو يتحركوا هم من تلقاء نفسهم ويتصدوا للبحكموا عليهو غلط بالطريقة البشوفوها مناسبة!..

- كلامك رائع وموزون يا حسام، وبيدخل القلب بارد بسلام..

- البلد دي مهما كانت المظاهر السلبية فيها كترت لكن لسّة شبابها فيهو خير كتير، بس المشكلة زي الجماعات دي بتنفّر من الإلتزام والتديّن الصحيح أكتر مما ترغّب فيهو، لو واصلنا بالمّنوال ده وبشكل الإختلاف بين الجماعات دي، مؤكد شبابنا حيخش في معضلة تانية، حيخش في مرحلة من التوهان وفقدان البوصلة، صدّقني حتشوف ملحدّين شوف عين عيان بيان، أقصد مش حيلحدوا بس، حيصلوا مرحلة إعلان إلحادهم عديل ونحنا حنكون شهود عيان..

- الكلام البتقول فيهو ده مخيف والله يا حسام..

أمّنوا كتيرين على كلامي همهمة وهز راس.

– فعلا مخيف، لكن دي الحقيقة، التعصّب والنعرات عمرها ما بتفيد ولا بتقدّم..

– وكان شفت وشوشهم وعبوسهم تستغرب!..

– حقيقي، الواحد فيهم لو شكلو ما كده بفتعل المظهر ده، بفتكروا إنو الزول المتدّين لازم يكون حازم وصارم..

الشباب كانوا متابعين الحوار بإصغاء تام، وبهزوا في راسهم مؤمنين على كل كلمة بقولها حسام بدون ما يقاطعوهو، بعد ما حسام إنتهي من كلامو حتين الموضوع أخد حظو من النقاش بيناتهم بآراء مختلفة، كنت مبسوط من شكل الحوار الداير قدّامي، متابع من غير ما أتدخّل أو أقاطع، شباب فعلا واعي وبعرف يناقش مشاكلو بدون أي نوع من أنواع التوجيه أو الوصايا، بالجد يحسسوك إنو البلد لسّة بي خير.

أها إستمروا في نقاشهم ده حتى بعد ما إستأذنوا منِّي، وبقوا مارقين على باب الشارع، شكرتهم من جوّة أعماقي، أجمل إحساس إنو يكون عندك أخوان وأخوات في الحارّة، وبقيفوا معاك من غير مقابل ، دي حاجة ما بتقدّر بتمن، عشان كده بحبهم من الأعماق وبحس تجاهم بتقدير وإحترام ما إعتيادي.

لمّن بقيت براي لقيت نفسي تاني رجعت أفكّر في مها، مسكت التلفون عايز أضرب ليها، ألومها، مهما كان الحصل ما بخلّي الناس تبعد في لحظات زي دي، قبل ما أضرب ليها تلفوني كان بيضرب في يدي، عاينت لقيت:

"مها يتصل بيك"، فتحت الخط:

– ألو؟..

– أهلا حسين كيفك، وبقيت كيف؟..

كتمت غيظي وما حبيت أنفجر فيها وش طوّالي، الرخاني أكتر، صوتها، باين فيهو التعب:

– أنا أحسن كتير يا مها الحمدلله، صوتك مالو متغيّر؟..

– والله يا حسين ما نايمة من أمس لحدّي اللحظة دي!..

– ما نايمة كيف وليه؟..

– جفاني النوم يا حسين، ما قدرت، أباني عديل..

ما سألتها من شنو، كان واضح من شنو، أو بنيت إفتراضي وإفتكرت إنو واضح ما بحتاج سؤال، قمت غيّرت كلامي العايز أقولو، وغيرّت معاها لهجتي، صوتي طلع هاديء وحنين:

- فقدتك!..

ما إهتميت تفهمها كيف أو بياتو طريقة، دي كانت الحقيقة مجرّدة، أيا كانت الطريقة الحتتلقاها بيها أو تفهمها، وزي كأنها فهمت، وبرضو ما حاولت تخوض في معناها كتير، غيرها كانت حترد بسرعة، مثلا:

"جد؟"،

"وأنا كمان!"،

أو يمكن تقوّي عينها شويها وتتجرأ:

"وحشتني!".

أما هي، ولأنها زولة مختلفة، ردها كان عادي بلا أي إيحاءات:

- غصبا عنّي يا حسين، متأسفة..

- مافي داعي تتأسفي ولا شي، إطمئني، أنا بخير، وأشوفك قريب إن شاء الله..

إنتهت المكالمة، ما جابت السيرة بطريقة مباشرة، خلّتني أحلل كلامها بطريقتي، ليه ما نامت؟ هل ندمت مثلا عشان صارحتني في لحظة ضعف؟ أو خوف؟ أو حتى يمكن شافت نفسها إتسرّعت؟!.

***

في اليوم التاني، بدل ما أشد حيلي شويّة، قمت إنتكست أكتر، كنت حاسي بالتعب والإرهاق، ناس الكّلية المّا جوني أمبارح جوني الليلة، لقوني تعبان شديد، وهم طالعين بي جاي، مها جات خاشة بي جاي، بالله لمّن كلّموني بيها فرحت بجيتها جنس فرح، فرحي كان طفولي تماما، ما متخيل نفسي أفرح بيها قدر ده، ما حسيت بنفسي فاقدها قدر شنو إلا لمّا شعرت بوجودها الفعلي في بيتنا، وعلى بعد خطوات منيٍّ. وكتي كنت حسيت بإختلاف كبير وراحت مني كل أعراض الإنتكاسة، وبقيت أدسدس وألملم في فرحتي ما تنكشف.

عمّتي رحبت بيها كويّس وجابتها لحدّي عندي في الغرفة الراقد فيها، كانت خجلانة شويّة، شكلها كانت عايزة تلحق ناس الكّلية تدخل معاهم وتطلع معاهم،

أو تلحقهم وهم قاعدين وتطلع معاهم، لكنها إتأخرت، وبقت أمام الأمر الواقع، مافي مفر غير إنها تدخل مادام وصلت.

ترحيب عمّتي بيها خفّف من حرجها شويّة، حاولت ترسم ليها إبتسامة زميلة وهي جاية علي، لكن خطاويها كانت فاضحاها، ويدّها المرتعشة في يدي كانت أكبر دليل، قعدت في الكرسي المقابلني، كانت مرتبكة. مها الرافقتها سنتين في الكّلية بشكل شبه يومي، مرتبكة قدّامي!. حاولت أطلّعها من الجو اللي هي فيهو، إبتسمت ليها إبتسامة إمتنان، لأني حقيقي كنت ممتن:

– شكرا يا مها..

ما ردّت، إبتسمت بس، كانت لسّة مرتبكة، حركات يدينها بتقول كده، لقيت نفسي لأول مرة بركّز فيها، جميلة بلا شك، جمالها ما متكلّف، ولا مبتذل، جمال طبيعي، عيونها شايلة من إسمها، بشرتها مخملية، أنف مدبّب صغير وشفاه مكتنزة من غير ما تشوه الوجه الجميل، بل بتزيد في وسامتو ورسمو، ورقبة متناسقة مع جسمها، ما بتتعبها بالسلاسل التقيلة، كانت بتحب الحاجات الدقيقة، كان حلق ولا سلسل ولا أسورة ولا ختم.

من يومها أنيقة في إحتشام، ما من نوع البنات البتفرّط في طرحتها تقع من راسها زي حركات البنات البمثِّلو عشان يكشفوا تسريحة شعرهم، أو يوروك نعومتو. عندي قناعة إنو البتعمل كده غالبا شعرها يا إمّتن مركّب، يا عاملة ليهو مكوة في كوافير. أما شعر مها فما كان بيحتاج طرحة تقع عشان تعرف طبيعتو، تكفي الخصلات الصغيرة البتسرح بعناد برّة الطرحة أو يشيلها الهوا ويسرقها منها مرّة مرّة عشان تعرف طبيعتو، والدبوس المشبّك من ورا مع نهاية الطرحة حولين الشعر الملفوف، بستفز خيالك عشان تقدّر حجمو لو قامت أطلقتو لنفسها بعيد عن فضول الناس.

ما بتلبس مخصّر أبدا، لكن أحيانا بتضطر تلبس حاجة تشكلها غصبا عنها، تقوم تفضح خصرها وتبرز نهودها الفتيّة العصية على الإخفاء، أو يقوم يضربها هوا يرسم أردافها، كنت بتلفت منها بعيد، عشان ما أركز في تفاصيلها، كنت ببعد عن أي شي يخليني أنتبه ليها كأنثى، عشان ما يحصل يوم وأفكّر فيها كأنثى، وكنت قادر، كنت متماسك، لكن هسي أنا على مفترق طرق، زميلتي وفردتي وصديقتي لحدّي أول أمس بس، لحدّي اللحظة الصارحتني فيها بحبها، بي ريدتها، وأنا على يقين، إنها لو ما كانت بتحبني حق وحقيقي ما كانت صرّحت،

الله أعلم كانت بتحبّني من متين، سؤال ألح علي فجأة، وما بعرف أمسك، سألتها بسراع وبلهفة:

– من متين؟..

–نعم؟..

في اللحظة دي عمّتي دخلت علينا وقطعت كلامنا، قدّمت ليها صينية فيها كبّاية موية وكبّاية عصير، ومشت إتناولت علبة الحلاوة وقدمتها ليها، أول ما مرقت رجعت تاني لموضوعي، بس الفرق مها كانت متحفزّة ومنتظرة سؤالي المرّة دي، أو يمكن سمعتو وبتتغاتت علي، وكانت بتعد للإجابة، في كل الحالات كنت عايز أتلذذ بالأسئلة البطيئة، يمكن عشان تترتب في مكانها في الذاكرة بالترتيب الأنا عايزو وبرغب فيهو:

– كنت سألتك، من متين؟..

– من متين شنو؟..

– من متين بتحبيني؟..

سكتت مسافة، كانت بتحاول تعاين لي في عيوني، عايزة تستقرأ الجوّاي، بس خجلت، ما قدرت تركّز، إكتفت بالصينية، خلت عيونها ترتاح هناك، وخلت لي منها الرموش الطويلة والحواجبين المقوّسة، وأطراف شعر أسود لامع، إذا في حقيقة واحدة إتأكدت ليها في اللحظات ديك، إنو أنا فعلا ما إنتبهت لتعلّقها بي قبل كده نهائي، والحقيقة الإتأكدت أنا منها.. إنها بتحبّني، أخيرا رفعت لي راسها:

– والله يا حسين ما عارفة بالضبط وما قادرة أحدد من متين، في فترات كانت إعجاب، دي ممكن تقول من اللحظة الرجعّت فيها شنطة أمي لمّا إتسرقت في الموقف، وموقفك الشجاع في البص، حتى اللحظة الكرهتك فيها لمّا ضربت أمي كف، لحظة كانت ممزوجة بالإعجاب والكره، لحظة إتفاجأت بيك ولقيتك تاني معاي في الجامعة من أول وجديد، لحظة لقيتك متذكّرني وما ناسيني، لحظة عرفت إنو كلّيتنا واحدة وحأزامل زول شهم زيك، وبالمّناسبة كنت بتحيّن الفرص عشان أجيبك البيت وتلاقي أمي وأبوي تاني، وأعرّفك بأخوي المّا لاقيتو، والكنت بتمناهو ولحدي اللحظة دي، يطلع لينا زول زيّك، كنت عايزة أعرّفهم بيك من أوّل وجديد، لكن المرة دي كزميل معاي في الكّلية، أو زول معجبة بيهو في الخفاء، بس هم عرفوك قبل ما تجي بيتنا بكتير، من كلامي الكتير عنّك، وعن حكاويك المّا بتخلص لما أونّسهم بيك، وكنت متأكدة إنهم حيطمئنوا على بتهم أكتر وأكتر وإنت معاي في نفس الكّلية. أما لو عايز تسألني إعجابي بيك ده كلو إتحوّل لحب من جانب واحد

متين؟ فدي حتى بالنسبة لي أنا صعب أحددها، لأنو الحب الجوّاي بدا ببذرة إعجاب جيناتها كانت قوية، ونمت لشجرة حب في لحظة غفلة مني، لمّا فتحّت عيوني لقيتها شجرة مكتملة أينعت وأثمرت، كل العملتو إني كنت برويها وبحافظ عليها مخضّرة ومفرهدة، لأنو الشجرة محال ترجع بذرة من أول وجديد أبدا بعد الميلاد، وفي نفس الوكت كانت بتحتاج لشمس وهوا وتربة وماء، التربة والماء من عندي، لأنها مزروعة جوّاي، أما شمسها وهواها فمنّك، وفي يدّك هسي تقطع عنها الشمس والهوا وتكتلها!..

***

قالت كلامها ده كلّو زي الزول النفسو قايم يادابو إنتهي هسي من سباق ماراثون طويل، كأنها كانت مندفعة وعايزاهو يمرق كلو مرة واحدة، زي ولادة متعسرّة، لكن لابد منها، أما أنا، فأول خاطرة خطرت في بالي، إنها زولة بتفتح الروح ضلفتين، وبتسد عين الشمس، زولة عندها ملكة عجيبة على التوصيف بأسلوب أنيق راقي ولطيف، ما خلّت لي فرقة أتكلم تاني، أو أقول أي شي أو قول على قولها، خلص الكلام عندي.

قالت كل العندها بكل بساطة، بكلام مرتب وجميل، وختمتو بالخيار الصعب، يا موت، يا حياة. الزولة دي فايتة الفهم بي غادي، إختصرت كل الحوارات الممكن تدور وتجر في الكلام حد السكات، خلت كل النهايات عندي، وفي يدي، أي حنكة وأي تمكّن وأي تمرّس؟ وأنا محتار في الأقولو وما فتح الله على بشي لحدّي ما سألت:

– أها هسي كيف؟ في تحسن؟..

طلّعتني من الحرج، ساعدتني على الهروب، شكلها عايزة تدي فرصة ليها ولي، عشان ما أرد هسي، يمكن عشان أتأنى وأقلّب الموضوع في راسي بي راحتي، بالذات مع ظروفي دي، شكلها كانت مضطّرة ترد لأني سألتها، وما عايزاني أضطّر بنفس الكيفية أرد، يمكن بتعتبرني لسّة ما مرقت من حالة الصدمة والذهول، ودي حقيقة لأبعد الحدود!.

قمت إبتسمت ليها ممتن، كأني بعترف بيني وبين نفسي، و إن كان نفسي أقول ليها مما جيتي وحالي بقى غير، لكن ما براها البتعرف تمسك أو تتماسك:

– أحسن كتير والحمدلله..

بكري جا خاشي فجأة:

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام بكري..

- كيفك يا بطل؟ الليلة كيف؟..

- بخير يا بكري، شكرا..

قام سلّم على مها، عرّفتهم على بعض، مها طوّالي قامت على حيلها إستأذنت تمشي، إترجيتها تقعد شويّة وتبرّد الواطة، لكنها أصرّت، بعد عشرة دقايق بالضبط عبدو كان رجع من الجامعة، من شفت طلّتو في الغرفة:

- وين يا "ملهم"!..

قعد يضحك..

- إنت عارف؟ الناس دي لو ناقشة، كان مفترض يبدوا بي لسانك الطويل ده في الأول! لكن ما تعمل لي فيها حريف، أها قلت لي شنو؟ بالله مها كانت هنا؟ وأنا أقول الإنبساطة دي كلها من شنو؟..

قام عمز لي بعينو الكرور، عايز يتواكد علي، طنشتو:

- أها الجديد شنو الليلة؟..

- يا زول الليلة الجامعة مقلوبة..

- خير، الحاصل شنو؟..

- عاملين لجان تحقيق في الحصل أول أمس وتحت تحت بقولوا فيهم إتنين من الجامعة والباقين من برّة الجامعة، عددهم كلهم زي عشرة أو إتناشر تقريبا..

- يعني ما طلبة؟..

- الله أعلم..

- ياخي دي هملة عجيبة!..

- ألذ مافي الموضوع الجماعة سموها "موقعة ذات العلوم!"..

قعدنا الإتنين نضحك. أها، حوالي الساعة سبعة ونص مساء تلفونات البلد كانت بتطاقش، الكلمهم منو ما عارف، أقل تلفون كان ربع ساعة، أطولهم كان تلفون أمي. إستمت عشان أطمّنها أنا بخير، وإنو ما في حاجة حاصلة والموضوع ما بستاهل، غايتو بعد تعب رضت، لكن تلفوناتهم ما خفّت إلا تاني يوم، إتكيّفت لمّا عرفت إنو أبوي إنبسط من شغلانيتو الكان عايزها مني وتميتها ليهو مع عمّي، كنت بحس إنو رضا الوالدين ده زيو مافي، حاجة كده تفرح القلب وتدفيهو وتحرسو وتنعشو.

***

لمّا نزلت الكّلية الإستقبّال كان حافل، إستقبلوني إستقبّال الأبطال مع إني ما عملت شي، لكن مافي شي بيتقارن بمحبة الناس ومودتهم الصادقة، كانوا كلهم حلوين ورايعين بدون فرز، إتلمينا في قاعة فاضية مشتتين بإهمال قدّام السبورة وفوق المدرّجات نحكي ونقص ونتكّت، كنا على سجيتنا تماما، كنت لسّة رابط يدي الشمال وشانقها فوق رقبتي، هي ما مستاهلة بس عجبتني الفكرة وإستمرأتها، قلت النريح يدّي دي على الأخر.

أجمل زول في الناس ديل كلهم كانت مها، كانت متورّدة ومشرقة، وعليها إبتسامة حلوة ودودة، وكانت لابسة ليها لبسة فرايحية زيّها، وفرحتها بجيتي كانت واضحة ما بتدسّا، وأنا كنت مشتاق ليها، مشتاق ليها جد جد من جوّة الحنايا، وفاقدها، اليومين الغبت فيهم حرموني منها لولا زيارتها، ويا دابي بديت أشعر بحاجتي ليها، لوجودها معاي حياتي، سواء الحاجة دي كانت ريدة أو زمالة أو حتى بس صداقة، تحت أي مسمّى كانت، بس الحقيقة المجرّدة إنها بقت جزو مني ومن حياتي ومن تواجدي في الكّلية وفي الجامعة ككل، قربها مني بدّي الحاجات نكهة خاصة وطعم ولون، وبرضو بزيدها ألق ومعنّى.

بعد إتفرتقنا وفضينا من ونستنا وشغبنا، دردقنا أنا وهي برانا في صمت، كأننا على وعد لقيا بدون سابق إتفاق، حتى بدون ما أقول ليها أي كلمة، مشت معاي وجمبي وجوّاي، كنا صامتين لكن صمتنا كان مليان كلام، كانت جوّاي عواصف بتضرب بعنف في كل إتجاه، هيّجت مشاعري زي بحر متلاطم الأمواج، وأنا ماعارف لي مرسى ولا مرفا، جوّاي نزاع غريب، صراع رهيب بين الممكن واللا ممكن، بين إني أنكسر تحت سطوة وجبروت حبها، وبين إني أقاوم وألجأ للهروب الآمن.

خوف جوّاي من مجهول بقول لي قاوم، حتة تانية في روحي بتقول لي ما بتقدر تنكر حبها، حتى عاين لنفسك، كل يوم بتتأكد براك إنك بتحبها، ليه بتتنكر لنفسك؟ ليه بتتنكر لصرخة قلبك الجوّة صدرك؟ وإنت شايف طربو وفرحتو بيها!.

المين كان على غير العادة هادئ، كأنو إتنازل لينا نحنا الإتنين هدنة، كان نفسي أقعد في البنش بتاعي، "بنش حسين" يا قول مها، لكن ما كان في طريقة مع كمية الشباب البلاقوني ويكفّروا لي كل مرة، وفيهم واحدين ألغام كانوا بشرّونا

زمن طويل لحدّي ما أضطر أستأذنهم، يبقى الحل أشوف لي جخنون ولا حتة تانية ما يلم فينا زول عارض.

دردقنا لحدّي ما وصلنا إقتصاد، في كراسي كانت فاضية جمب سور الجامعة الفاتح على شارع النيل، سور مبني بطوب أحمر من تحت مع مستوى الأرض، ومن إرتفاع نص متر تقريبا الباقي كلو شبك وسيخ، ما بمنع النظر في إتجاه شارع النيل، حتى لو الزول قاعد في كرسي، وفي ضل شجرة ظليلة تم الناقصة، أخيرا شي من الهدوء، ومع زولة تشرح النفس ويطيب معاها الجلوس.

أصرّت تجيب البارد بنفسها، ما إتلايقت فيها، جرّيت الكراسي جمب بعض وقعدت في واحد، كنت باعين ليها وهي ماشة على الكافتيريا، بس نظرة مختلفة، ما زي نظراتي ليها الزمان، نظرة تأمل وسرحان، عارف نفسي ماشي على وين، حاسي بضعفي قدّام روحي ومشاعري في لحظة وجودها جمبي، ورغبتي في المقاومة كل ما ليها ماشة متضائلة، ما عارف مها حاسة بالحاجة دي ولا لأ؟ قلبي بقول لي حاسّة، وعارفة، البنات عندهم مقدرة عجيبة على الإستشعار، بتقدر تعرف من غير ما تسأل، ما زينا نحنا الوهم ديل، يا حليك يا النايم على حيلك، أصلك كنت نايم نوم أهل الكهف، ولقيت نفسك واقف علي مشارف يوتوبيا.

وهي جاية راجعة شايلة ليها قزازتين بارد، كنت لسّة بتأملها، وبحاول أسترجع صدى صوتها الرنان تاني وتالت ورابع من الأول، " في يدك هسي تقطع عنها الشمس والهوا وتكتلها!"، يا ربِّي، بتكون متخيّلة شنو هسي؟ شجرة حبها دي حنسقيها ونرويها سوا؟ ولا مهيئة روحها وممكن تتقبل رفضي إذا رفضت، وتقبل تخليها تموت؟!.

- إتفضل..

مدّت لي يدّها تناولني قزازتي، كانت خاتة ليها إبتسامة طبيعية، ولا كأنها، أنا عايش الترقّب، وهي منبسطة وعادية، قلت إحتمال لأنها فضّت الجواها، وشحنو جوّاي، وبإتجاهي، معناها شكلو الباقي كلو بقى علي أنا براي، أشيل شيلتي براي، أما هي فعملت العليها وخلاص!.

قبّلت علي شارع النيل، عديتو بنظري، سرحت بعيد وراهو وأنا أشيل بقة من قزازة البارد وتاني أسرح، ما شايف العربات ولا الناس البتجي كدّارى مرة مرة قدّامي، الجو كان حار ورطب، كلمّا تقرّب من النيل بتحس بالرطوبة أكتر وأكتر، نزلت مني قطرات عرق، سلّت ليها منديل ورق وقدّمتو لي، قبّلت عليها، شكرتها، شعرها كان شديد السواد وبلمع، يمكن بفعل الرطوبة برضو؟ ولا كتمة الطرحة

على نفسو؟ لكنّو ما كان بنافس سواد عيونها، وقفت فيها، شفت فيها كلام كتير وحاجات كتيرة، وبرضها صابرّة، وما مدافرة، ما مستعجلة على الكلام، يخربك يا حسين، أمانة ما وقع راجل، الليلة البمرقك منو؟ قبّلت تاني غادي على إتجاه النيل.

النيل ياهو نفس النيل الكنت كل ما ألاقي فرصة أزوغ من الجامعة أنفرد بيهو، كانت كل ما كانت تجرفني أشواقي للبلد وناس البلد تلاقيني ملصوق فيهو، منو غيرو البطل على حلتنا ويربطني بيها زي الحبل السري حتى وأنا بعيد؟ نهايتو عندي وأصلو في جوف حلتنا، جمب نخلتنا في نص بيتنا، تراهم كيف عاملين هسي؟ منو فيهم واقف هسي جمب القيف بعاين فيهو ويتأمل زي ما أنا بتأمل؟ بس حاسي في اللحظات دي حتي النيل خذلني، خلاّني وحيد في مواجهة مها، إكتفي بمسيرو الهادىء يترقب الموقف في صمت مهيب. حتي أنت يا نيل أصابتك الشمارات؟..

نفضت نفسي من سرحة النيل والحِلَّة ورجعت للواقع، مها، أيوة مها، نفسي تقول لي حاجة ياخ، تطلّعنّي من الورطة دي، ما عارف أبدا معاها كيف ولا حتى أقول شنو؟، أنا أصلا ما فكّرت في شي أقولو من أساسو، كان الجوّاي مرخرخ، فاقد الشدة، مايل للحنين، حنين مخلوط بحالة ضعف و وهن، حنين شنو يا حسين ياخ، ما تتفلسف على نفسك، إنه الحب يا أطرش! ياخ أقول ليك قول يا حسين؟ بلاش لف ودوران معاك، فوق خلاص! في اللحظة ديك قررت قرار أعمى، إلتفت عليها بجسمي كلو، وأنا خلاص حزمت أمري، ما بقدر على حراق الروح ده ياخ!.

***

– مها!..

– أيوة يا حسين..

خلاص، تمت الباقي، كتلتني، وكتلت قلبي بصوت حنين أول مرة أسمعو،"أيوة يا حسين"، السّجم دي أصلو ما سمّعتني النغمة دي قبّال كده! ولاني سمعت زيها في حياتي، قاصدة مش؟ وهسي لزومو شنو الإبتسامة الحلوة دي، أنا ناقص؟ الكتلة، خلاص، أروروك تمّت الناقصة:

– مها..

– نعمين يا حسين!..

– أنا بحبّك!..

والزمن وقف، وصنّينا..، أيّا والله صنّينا، ما حصل أي شي، لا في قنبلة إتفجرت ولا في لستك عربية طرشق، ولا حتى موسيقى تصويرية في الخلفية إشتغلت، ولا جوّة راسي المدوقس ده! ياخي ما ممكن؟ ما ممكن يكون تفاعلها بالشكل ده، أنا هسي إنبرشت، وإنبطحت، وإفترشت، وإنهرت إنهيار عشان أطلّع الجوّاي، هي فاكرة الموضوع ده بالبساطة دي ولا كيف؟ تقوم تلاقيني بالجمود ده؟ إتوقعّتها تقوم تنطط، تقوم تفنجط، تنتحر من الفرح، تتخلع، تعمل أي حاجة، أي مصيبة بدل ما تقوم تتبسّم لي ساي! واثقة من روحها شديد يعني؟ لا لا كده أنا ما بقبل، ما بسمح ليها تسرق مني اللحظة دي، هي ما عارفة أنا تعبت من التفكير في الموضوع ده قدر شنو!.

لكن كمان أعمل شنو أنا، أبكي؟ أبكي كيفن بلا دموع، أجيبها من وين هي ذاتها الدموع؟ ما بعرف، خلاص سرقتها مني، سرقت مني اللحظة، عملت فيها غضبان، صرّيت وشّي، وضغطّت على حروفي:

– شايفك واثقة من نفسك خالص خالص يا سجم!..

ضحكت، ضحكت، ضحكت، أصلو ما شفتها يوم ضحكت بالشكل ده، ضحكت من جوّة قلبها، والله ضحكتها دي أنا ذاتي فرّحت لي قلبي من جوّة كمان، حسيت في اللحظة ديك أنا ما بضحّك في صحبتي، عفوا قولوا حبيبتي، حسيت بنفسي بضحّك في زوجتي، أعزّ زول على قلبي، ونحنا قاعدين لينا تحت ضل نيمة ماهل، رايق، وبارد، وضاربنا همبريب ساعة ضحى، شايل ريحة دعاش، و نحنا راقدين في عناقريب ساقطة والملايات تفرفر تحتنا زي شفّع دابهم بتعلموا في المشي، وفناجين القهوة قدّامنا تلمع في الصينية، تربيزتها في نفس مستوى عناقريبنا، وريحة البن الطازة المارقة من قلية، مخلوطة بي ريحة بخور جاولي وعدني ومسك ولبان ضكر، وعيون حبيبتي هناك، زولتي أنا، براي. آخ يا حسين، ما تقعد تسرح قدر ده بعد شويّة تلقى نفسك بتنادي في عيالك في الخيال وإنت لسّة بسم الله يا دوبك إبتديت سنة أولي حب يا بتاع قزازة السمن.

– سجَمَك..

طيرّت لي سرحتي، وما طارت ضحكتها، كانت ضحكتها الرنانة لسّة مجلجلة، لكن ترا زي ما كسرت قلبي، ياها كسرت برضو ملامح غضبتي الفشنك، قمت ضحكت معاها، هو يا ربي ده حب ولا هظار؟.

***

بالله التقول الجامعة دقّوا فيها جرس، شمارات تقيلة، الناس كلها عرفت مها بتحب حسين، وحسين بحب مها، الزمالة البقت علاقة، والشنو داك، وبقينا مضرب مثل لأي زول ما عندو موضوع، وناس تراهن على علاقتنا، تنتهي ولا تستمر، بالله شوفوا عدم الشغلة. العاجبني في مها كان قوة شخصيّتها وثقتها في نفسها، ما كانت بتشتغل بالفارغة ولا المقدودة، محددة حاجاتها وبتنجزها بعزيمة وإصرار.

أما أنا، فكنت شاعر وحاسي بالتغيير الكبير الحصل في حياتي، دخول مها في عقلي وقلبي وروحي غير فيني كتير، إحساس بالأمان والإستقرار، حتى لو كان وكتي، لأنو الحاجات في الجامعة مثالية، الحب مثالي، المشاكسة مثالية، العتاب مثالي، وفي وكت لكل شي، في وكت تقرا، و وكت تمرح و وكت لمقالب الأصدقاء، وكت برضو للحب، و وكت تاني للتسكع، وغيرو للتأمل، في متسع لأي شي يخطر على بالك حتى للسياسة والنوم، والنوم ده بالذات بيتجضّم زي الترتيب، ومرغوب بشدة في أوساط الطلبة، بالأخص أيام الإمتحانات!.

و برضو في وكت تبحر فيهو مع شهيق عاطف خيري في خيالات من روائع الشعر، وأشعار الثورة مع محجوب شريف، ومع الأدب الرفيع والشفيف لعلي المك وصلاح أحمد إبراهيم، وغصبا عنك تقيف تتأمل ولا على كيفك وتعيش النص وتتمّثلوا مع الكتيّابي:

على كيفي..
أرقّع جبّتي أولا أرقّعها،
أطرّزها من اللالوب،
ألبسها على المقلوب،
أخلعها، على كيفي،
أنا لم أنتخب أحدا،
وما بايعت بعد محمد رجلا،
ولا صفّقت للزيف،
لمّاذا أعلنوا صوري؟
لمّاذا صادروا سيفي؟،
أنا ما قلت شيئا بعد حتى الآن،
حتى الآن أسلك أضعف الإيمان،
ما أعلنت ما أسررت ما جاوزت في الأوبات،
سرعة زورة الطيف،

أهرول بين تحقيقين أصمت عن خراب الدار،
عن غيظ مراجله تفك مراجل الجوف
سئمت هشاشة الترميز
ما بعد الزبي يا سيل من شيء،
لِّمن يا طبل والخرطوم غائبة
وأمدرمان والنيلان يختلفان،
والأطفال في الخيران
والحرب الدمار الجوع،
كيف الحال؟،
لا تسأل عن الكيف،
حبيبي أنت يا وطن النجوم الزهر،
سلهم كيف؟،
سل عني،
لِّماذا لم يخلّوني على كيفي،؟
أنا والله ضد نخّاسة الأحرار باسم الذين،
ضد الضد والضدين..
ضد جهاز خوف الأمن،
ضد الأمن بالخوف،
أنا في هذه الدنيا على كيفي،
إلى أن تكمل الأشراط دورتها،
بمهدي حقيقي لينقذنا
من الدّجال والتمثال،
والإشراك والحيف
سأبقى ما حييت أنا على كيفي
إلي أن تطهر الدنيا
وينزل سيدي عيسى
لأن طريقتي في الحب يا وطني
على كيفي

بالله كيف ممكن الزول في مرحلة زي دي يبقى أكاديمي بحت ولا يمتعّ سمعو ولا بصرو ولا بصيرتو، ولا نظرو ولا روحو؟ ياخي قول إختصارا جميع حواسو المدركة والغير مدركة، ويتجاوز قامة زي شاعرنا إدريس جمّاع وفيهم حتى ناس من المآسي ما سمعت بيهو ولا طقش أضانها يوم بالغط، أكتر قصيدة كانت تثير تعجبي هي "أنت السماء بدت لنا"، كنت بقيف فيها كتير وأتأمل خيال الشاعر الغريب وهو مصرّ يحلّق بيك، والأعجب منها لمّن عرفت قصتها البتقول كان الشاعر في رحلة علاج للندن، وهو في المطار قابل عريس وعروسو، والعروس عجبتو جدا، فقام سرح وبحلق فيها لحدّي ما العريس إتضايق وبقى يغطغط في عروسو، فقام قال أبياتو الرائعة:

أعلى الجمال تغار منا؟
ماذا علينا إذا نظرنا؟
هي نظرة تنسي الوقار
وتسعد الروح المعنى
دنياي أنت وفرحتي
ومني الفؤاد إذا تمنى
أنتي السماء بدت لنا
وأستعصمت بالبعد عنا

حتى يقال إنو الأديب المصرى المعروف عباس محمود العقّاد سمع الأبيات دي وسأل مين قائلها؟ قالوا ليهو شاعر سوداني اسمو إدريس جمّاع، قال ليهم وين هو هسي؟ قالوا ليهو بتعالج في مستشفي التجاني المّاحى وده مستشفي للأمراض العقلية، قام رد عليهم قال ليهم ده مكانو لأنو الزول ده بقول كلام ما بقولوا زول عاقل!.

ياخ مش كده وبس، قالوا حتى لمّن مشى المستشفى في لندن كانت الممّرضة المباشراهو عيونها جميلة جدا، بقى شاعرنا يعاين ليها شديد لمّن خافت، قالوا مشت إشتكت لمدير المستشفى، قام قال ليها خلاص تاني قومي ألبسي ليك نضارة سوداء، أها شاعرنا لمّن شافها طوّالي قال:

السيف في غمده لا تخشي بواتره
وسيف عينيك في الحالين بتّار

أها لمّن سألت الممرضة الزول ده قال شنو، وقاموا ترجموا ليها، قالوا بكت. والنقّاد بقولوا ده أبلغ بيت شعر في العصر الحديّث، في روايات مختلفة لكنها ما

كانت بتنفي عندي عبقرية إدريس جمّاع ربنا يرحمو ويغفر ليهو، وكنت بفتكر البيت ده بشبه كتير قصيدة من الأندلوسيات ما معروف شاعرها بقول فيها:

دع عنك ذا السيف الذي جرّدته — عيناك أمضى من مضارب حدّه
كلّ السيوف قواطع إن جُرّدت — وحسام لحظك قاطع في غمده

والقصيدة غنّتها فيروز، وهي جميلة بمعنّى الكلمة، والقصيدة المّا معروف شاعرها، عندها قصة رائعة، بتقول كان في شاعر جا من البادية وطبعا ناس البادية ديل ناشفين نشاف العيش، أها على حسب بيئتو جا يمدح في على بن الجهم قام قال ليهو:

أنت كالكلب في وفائك بالعهد — وكالتيس في قراع الخطوب
أنت كالدلو.. لا عدمناك دلوا — من كثير العطا قليل الذنوب

طبعاً الراجل مسكين، حسب فهمو شايف نفسو إتقطّع عديل كده في المدح، قام واحد من الناس القاعدين في المجلس عايز يقوم يأدبو، لكن الأمير كان زول فطن وذكي، عرف إنو الشاعر ده زول الله ساي، جاي من حتة ناشفة، وفي بيئتو دي ما عندو فيها غير البير البرفع منها الموية بالدلو، وبير لناس في الصحراء دي تعتبر نعمة كبيرة جدا والدلو فيهو رمزية كبيرة للمّناولة والعطاء، زيها وزي تشبيهو بالكلب في وفائه معاهو وحراستو لقطيعو، أها قام الأمير قال ليهم الزول ده كدي خلّوهو يا جماعة يقعد معانا شويّة، الشويتين القعدهم الشاعر بالله شاف فيهم العجب، لقى ليك نفسو في بساتين مخضرّة ومزهرة، وجكس وحواري تدي فيهن ربّك العجب، طالعات نازلات. قام مرّة شاف ليهو بالصدفة جارية شديدة شدة السنين، حايمة بين الرياض المخملية والبساتين تتهادى بين الشجر، يا زول قلبو وقع عديل، قام طوّالي فكّر يغازلها، البنيّة ما كضّبت، هددتو بي خنجر كانت شايلاهو معاها، قام مسك يدّها وقال ليها:

قمر تكامل في نهاية حسنه — مثل القضيب على رشاقة قده
فالبدر يطلع من ضياء جبينه — والشمس تغرب في شقائق خده
ملك الجمال بأسره فكأنما — حسن البرية كلها من عنده
يا من حوى ورد الرياض بخده — وحكى قضيب الخيزران بقده
دع عنك ذا السيف الذي جردته — عيناك أمضى من مضارب حده
كل السيوف قواطع إن جردت — وحسام لحظك قاطع في غمده
إن شئت تقتلني فأنت محكم — من ذا يطالب سيد في عبده

بالله ده ما جن بجنن الجن ذاتو؟ شوفوا الفرق في التشبيه، زول قبل شويّة كان بشبّه بالدلو والكلب، فجأة قلب بقى يقول رياض وبساتين ولحظك وخدك وقمر وبتا ع!.

***

واحدة من الحاجات الكانوا بحذروني منها من زمان، هي السياسة في الجامعة، ولحدّي اللحظة دي، كل ما يلاقيني زول من الأهل أو القرايب يقول لي نصيحتي ليك تخلي بالك من قرايتك بس أحسن ليك، يعني بإختصار تبقى ضب قراية، وتمشي جمب الحيط لحدّي ما تنتهي من جامعتك وتشيل شهاداتك وتتخارج.

الحركة الجبانة دي طبعا ما كانت بتشبهني، وغير إنها جبانة بشوف إنو فيها إجحاف شديد جدا في حق أي طالب جامعة، وفي الجامعات في حق طالب جامعة الخرطوم على وجه الخصوص، لسبب بسيط، لأنو الجامعة دي عندها تاريخ نضالي طويل وعريض إبتداءا من المستعمر البناها بإعتبار إنها كّلية تذكارية حب يخلّد بيها القائد المستعمر غردون باشا، ومرورا بكل أنوا ع الحكم المدني أو العسكري المرّ على البلاد، عشان كده كنت بشوف إنو أي طالب ماشي جمب الحيط على قولهم ده لو قرا حاجة تانية غير جامعة الخرطوم أفضل ليهو وأفضل ليها، قصدي الجامعة ذاتها، لأنو الجامعة دي عندها عشق وغرام مع كل الناس الفيها والعندها تطلعات كبيرة، وممكن تأهلم قادة للبلد زي ما بتأهلهم يتخرّجوا علمّاء ونوابغ.

خلال السنتين الفاتو كنت برفض أي دعوة من الأصحاب والأصدقاء والفرد يا قول الفرد للإنضمام لأي حزب أو حركة أو تيار سياسي، كنت بتفق تماما مع النظرية البتقول إنو الشباب آمالهم وطموحاتهم لا يحدّها حدود، ودي حقيقة بستشعرها حتى في نفسي، الزول بكون شايل هم البلد وهم إنها تتقدّم وتتطور وتنافس باقي الدول، ياخي الزول لمّن يسرح يلقى نفسو بقى رئيس جمهورية عديل، ويقعد يفكرّ في إنو حيعمل شنو ويسوي شنو، يقعد يعالج في خيالو كل الإنتكاسات والخيبات المحبطة الحاصلة في البلد، ويحارب في الجهل والتخلف، ويطوّر في العلم ويتقدّم الأمم كمان.

كنت بتناقش مع مها كتير في مواضيع كتيرة منها السياسة والدين، كانت بتشوف إنو الطالب الجامعي مفترض يكون زول واعي ومثقف، كانت بتفق معاي

إنو من الأفضل ما ينغلق على نفسو أو يقفلها بالإنتماء المبكرّ، وإن كانت في نماذج لتغيرات فكرية في بعض الشباب البيتنقلوا من حزب لحزب مثلا على حسب قناعاتو في رحلة بحثو عن حاجات معينة مثالية كانت أو واقعية حسب نظرتو.

هي عن نفسها ما كانت شاغلة بالها وتفكيرها بالصراعات والتجاذبات البتحصل داخل الجامعة، عكسي تماما، وعكس خالي برضو الكان عندو ولاء لحزب كبير من أحزاب البلد زي حال معظم ناس الحلة عندنا، كنت بناقشو كتير بإعتبار إنو زول فاهم ومتعلّم على عكس ناس الحِلَّة البتكون شايلاهم الهاشمية ساي نتيجة طيبتهم وبساطتهم، تلقاهم جارفهم تيار عاطفي ديني صر.

أركان النقاش كانت شكل ناضج للحوار ومقارعة الخطوب بالحجة، بجانب دور محوري أساسي وهو التثقيف. ناس كتيرة إستفادت من أركان النقاش الكانت بتقام في أماكن متفرقة هنا وهناك، وأهمها شارع المين، في التثقيف والوعي والإدراك، ومالو؟ طريقة النقاش نفسها بتكون ممتعة، وأحيانا بتظهّر ملكات وأساليب أدبية رفيعة، كل الكوادر اللاقتني كانت ناس مثقفة و واعية، ناس كنت بحرص إني ألاقيهم تاني وأتعرّف بيهم، ما ممكن تمل من الونسة معاهم، وهم ذاتهم غير الهم اللي هم فيهو و اللي ما عندهم غيرو، كنت مرات بتخيل إنهم ما ممكن يرجعوا زينا طلبة عاديين يتفاعلوا معانا ويخستكو زينا واحد، يخيل لي بيلبسوا شكل النضال على الدوام.

يمكن الشكل النضالي البشوفو عند الكوادر سببو الإنجراف الدائم للعنف والمواجهة، يعني ما معقولة المنتمين للحزب الحاكم يكونوا على الدوام في حالة رفض للأخر وإقصاء دائم! والأعجب من كده هي مسألة إعلان الجهاد ضد طالب أخر معاك في الجامعة، فرقهم من بعض شنو؟ تلاقيهم بقروا في نفس الكّلية، ويقعدوا في نفس المدرّجات، ويدرسوا نفس المقررات، طيب إشمعنا برّة القاعات جهاد وجوّة القاعت أكاديميات؟.

***

كل إجازات الجامعة كنت بستغلها أرجع فيها البلد، إلا إجازة أو إجازتين تمنعنى منها ظروف، كنت بحتاج للمشيات دي شديد، بحتاج أطلع من زخم الخرطوم ولخمتها عشان أعيش بساطة الحِلَّة وهدوئها، أرجع زول بسيط تاني،

أفتش العرّاقي وين وأخش فيهو، وأبقى داقش على الزراعة والجروف، بلقى فيها السكينة وهداوة البال.

صحي كنت بشتاق للخرطوم وناس عمّي وبالذات مها، لكن التلفون بقى ما مقصّر، كان سادّي لي فرقة كبيرة، لكن ما كان في شي بحلّني من التفكير المتواصل، كنا واصلنا لحدّي سنتنا الخامسة بنجاح أنا وزولتي سوا، وكان عهد أخدناهو على نفسنا مع بعض. إنو مافي شي يقيف قدّام نجاحنا وتفوقنا، والحمدلله حصل، لكن السؤال الملح كان، بعدّاك شنو؟ علاقتنا ما كانت في الظلام، أبوها وأمها وأخوها كانوا عارفين، ومباركين، بالذات بعد ما بقيت أمشي عليهم مرّة مرّة مع مها، أو يدعوني عندهم في البيت بمناسبة أو من غير مناسبة، كنت بحس براحة أمها وإستلطافها لي، وأنا ذاتي بقيت أستكين ليها وبعاملها زي خالتي.

لمّا إرتبطت بيها، ما كنت بفكر في اللي بعدو، أصلا الحب ده ما فهيو تفكير، ولا بدّي معاهو فرقة للعقل، لكن مصيرو العقل يجيك لافي حتى لو كبّر لفتو، بجيك صادّي بجيك صادّي، نحنا بقينا على أعتاب تخرّج، وإرتباطي بمها ما كان إرتباط إعتباطي ولا ملي فراغ، دي زولتي وأنا متأكد تماما من الحاجة دي، بس لمّا إخترتها، ما كنت وصلت لقناعات وأجابات على أسئلتي المشتتة، الفرق بقى بدل ما كنت بفكّر براي بقت تفكر هي معاي، وكل ما تضلّم الدنيا قدّامي، هي الوحيدة الكان عندها المقدرة تنوّر لي الطريق، وتحسسني إنو الدنيا لسّة وردية، ولسّة في أمل، وأي خطوة عايز أعملها حنعملها سوا، كلامها ده كان بنزل على قلبي زي العسل، كان بكفّي إني أعاين في عيونها وتحتويني، أقوم أحس بالأمان.

لكن حصل موقف، كان مؤثر رغم إنو شديد البياخة، كنت وصلت مرحلة حتى أنا ما ملاحظ ليها على نفسي، وأنا الكنت فاكر نفسي مالك زمام أموري، لكن يبدو إنو الأمور في لحظة غفلة ما فلتت مني، الحاجة الحصلت كان عندها وجهين، الإتنين صبّوا في حتة واحدة.

الوجه الأول، ربما كان حاجة طبيعية إلي حد ما، إنو أعتبر مها زولتي، حقتي براي، ملكي بشكل أو بأخر ما بنافسني عليها زول، بالتالي أديت نفسي حقوق عليها، ربما كتمت على أنفاسها، حاصرتها باسم هذا الحق، وباسم هذا الحب. تدخلاّتي الزمان الكانت وكنت بعتبرها عادية في حاجاتها، حتى البسيط منها زي لبسها، بقى فيها نوع من التسلط مع الحدة، وبقيت ما بقدر أتمالك نفسي ربما

بسبب الغيرة، حتى لأتفه الأسباب. بقيت ألقى نفسي بنتقد في بعض تصرفاتها، كانت في فترة سبقت ما بتشغل بالي أو حتى ما بتلفت إنتباهي. مثلا اليوم داك كان جاها قريبها زيارة في الجامعة، قريبها ده راجل أكبر مننا بي أربعة أو خمسة سنوات، راجل مغترب وناجح في الغربة، كانت متحمسة تعرّفني بيهو، شكرّتو لي شديد، إحتمال ده السبب الخلاني أحس بالغيرة حتى قبل ما أشوفو، ولّمن شفتو كانت الغيرة خلاص ركبتني من راسي لحدّي ساسي، ومعاها زي مية شيطان وألف جنِّي وأربعين من المردة الفجرة.

حتى أنا لاحظت لنفسي، كانت تصرفاتي بايخة والضيق ظاهر في وشي ما قادر أدسّو، وبعد ما الراجل فات، قعدت أحاسب فيها بشكل عقيم على كل لفتة وحركة وكلمة إتقالت منها في وجودو، ورغم إنها كانت صابرّة على بياخاتي، إلا إنو ده ما شفع ليها عندي أرحمها ولو بالسكات.

رغم إنها برضو كانت بتغير علي، لكن المدهش إنها كانت قادرة تتحكم في غيرتها، نادرة هي اللحظات البغلبها وتعبّر عنّها بشكل أو بأخر، وكتها قلبي برقص بالطرب، لكن في العادة كنت بحس بيها أكتر مما تقولها، مثلا ألمح في وشها الضيّق، أو التقطيب، طبعا كنت بسعد جدا لّما تغير، أحيانا بتعمد أثير غيرتها لأنها ما كانت عارفة الحاجة دي بتحسسني بالزهو والفرح قدر شنو! ما كان في شي أسعد بالنسبة لي من إني أشوف غيرتها علي.

الوجه التاني، كان حجم ومقدار التوتر الدخلت فيهو بسبب التفكير الكتير في المستقبل، أسئلة الضياع الأولي بقت ماشة في تضخم، زاد عليها وضع البلد المّازوم والما مفهوم إتجاهو، كنت قادر أستبصر حالة ما بعد التخرج، كانت تتراءى لي زي أشباح كئيبة، وما حيليها ويتبعها من رهق وعنت، وفوق على ديل كلهم، إنضاف لي مشروع زواج، وضع بقى أشبه بالمستحيل بالإضافة لضغوط الجامعة والأكاديميات، وزي كأنو ديل كلهم ما كفاية، قوم يا خال مها، الزول الشخصيتو قوية وكلمتو مسموعة في العائلة، إعترض على علاقتي ببت أختك، هي كانت ناقصة يعني؟.

إحتل موضوع خالها ده مساحة كبيرة من جلساتنا ولقاءاتنا، والمشكلة الكبيرة إنو قدر يألب بقية العائلة على أسرتها الصغيرة، وخلاّهم شبه معزولين في مساندتهم لي وتكاتفهم العميق معاي، الأم والأبو متفهّمين، لكن لوحدهم ضعيفين لما يبقى الموضوع موضوع أسرة كبيرة وعائلة، ياهو وضع كل العوائل السودانية وشكل ترابطها وعلاقتها ببعض، نسيج واحد بكافح ويعض على التماسك، لو

إستمر الوضع بالصورة دي مؤكد حتفشل علاقتنا، لكننا كنا متّحدين ومصرّين نقاوم سوا ونقنع الجميع، رغم إنو تبعات أو إرهاصات المشكلة دي كانت واضحة، أوّلها بقيت ما قادر أمشي عليهم تاني في البيت.

ولكن للأسف أول هزيمة جات مني، يا ريتها لو كان جات منها، لأنها كانت حتكون أرحم من الحسيت بيهو بعد داك، كنت في لحظة ضعف وإنهزام، زعلّتها وزعلتني، خسرتها وخسرتني، والمؤسف أكتر إني عاندت في الخطأ وركبت راسي، والأسوأ، كان الكلام ده نهاية يوم وتاني يوم مسافر البلد.

***

ما ضقت لسفرتي أي طعم غير طعم الحنضل، ومرارة الهجران، والخذلان. ساهم واجم وما مركّز نهائي، كنت مصاب بشتى علل المشاعر المركّبة والمترادفة والمتناقضة، غضبان وحزين ومكدّر ومنكسر وإحساس بغيض بالعجز والإنهزام.

أمّي إفتكرتني عيان، أرقد ليها من سرير لسرير، لكزتني كم مرة نقوم نمشي للشيخ، مسكينة أمّي دي وطيبانة شديد، لحدّي هسي بتفتكر زيها وزي باقي النساوين في الحِلَّة إنو الشيخ ممكن يحل ليك كل مشاكلك حتى لو كان مكتوب في جبهتو بماء الذهب دجّال، الحاجات دي ما ممكن تقنعهم إنها ما صحيحة بسهولة، لسّة مهيأين يسمعوا قصص عن الكرامات والشيوخ البطيروا والبمشوا في الموية والبيحيوا الموتى!.

أبوي كانت نظرتو ثاقبة، فهم طوّالي الشي الفيني ده ما شيتن أصاب بدني، بس ما حب يضغط على وخلاّني على راحتي، وإتعامل معاي عادي، شكرتها ليهو في نفسي، وأنا كمان ما مرقت على أي زول في الحِلَّة، سلّمت على اللاقيتهم في طريقي، والجوني لحدّي عندي وبس، إكتفيت بكده وخلاص.

إستمريت بالحالة دي إسبوع، إتعوّدت على برنامجي الجديد، كيّفت نفسي عليهو، كنت بصحى الفجر أصلي حاضر، أقعد أذكر في الزاوية لحدّي ما الشمس تشرق، أجي راجع البيت، ألقى أمي صحت قاعدة جمب المّنقد، تقول لي الشاي جاهز، نقعد أنا وهي وأبوي نتونس حولين الشاي لحدّي ما أبوي يطلع، لو في حاجة أساعدو فيها بمشي أساعدو، لو مافي بمشي أشوف لي كتاب وأقعد أقرا.

زي الساعة تمانية ونص بكون رجعت تاني لأمي في الراكوبة جمب التكل، بلقى متعة وأنا بقلي ليها حبات البنّ، وأدقوا ليها بالفندق لحدّي ما أسحنو ناعم،

بعدّاك أدق بعدو الجنزبيل مع شويّة هبهان. لقيت نفسي سريع إتعلمت أظبّط الجبنة وأتقنها، وبقيت ماسك برنامجها رسمي. بعدّاك أرجع أقرا تاني، لمّن أبوي يجي للفطور ويطلع تاني، ما بلاقيهو بعدها لحدّي صلاة الضهر، بعد ننتهي نرجع سوا ننخمد ننوم لحدّي أذان العصر، نصلي العصر ونرجع نتغدى، حدي في الحوامة صلاة العشا، أول ما صلّيت جيت طوّالي شفت سريرى بي وين، لي زمن من نوم بدري، لكن خلاص إندمجت في برنامجي الجديد بالكامل.

كانت مها شاغلة تفكيري غصبا عنّي، صورتها ما بتفارقني لحظة، بحس بألم الفراق زي الوخز جوّة قلبي، لكن كل ما أسترجع الحاصل، برجع أغضب، وأزعل، ما كنت زعلان منها، كنت زعلان من نفسي، وبحقرّها، كنت بحس إني ما بستاهلها، مرات أقول أحسن ليها كده، أحسن أبعد منها، أنا حوليني شنو غير وعود فاشلة؟ المستقبل قدّامي ما فيهو أي بوراق أمل، كان عبارة عن نفق طويل مظلم، مافي أي بصيص ضوء في نهايتو. كنت بحس إنو كلامي ده صاح، ولو ما صاح ياهو كلام العقل، عرس شنو اللينا؟ وحب شنو اللينا؟ حنغش على نفسنا مثلا؟ خلينا نكون واقعيين أحسن، الموضوع من الأول كان غلط في غلط، وخالها عندو حق وألف حق لمّن يقول أنا حأكوّن نفسي متين؟ وحأعيّشها وين؟ مستقبل بتهم مهم، وأنا بأمّن عليهو وببصم عليهو كمان، مش بإبهامي، لأ، أبصم عليهو في خيالي بالدم.

كنت كرهت التلفون، أول حاجة إتخلّصت منو، رميتو مع شنطّتي بدون شحن عشان حتى ما أفكّر أمشي عليهو نهائي لو سمعت صوتو، أمّي وأبوي عندهم تلفونات، لو في شي مهم بصلني عن طريقهم، لكن الواضح إنو المقصودة هي مها، إتمنيت حتى لو رجع بينا الزمن ورا شويّة لأيام زمان، أيام مافي كهرباء في الحِلَّة، ولا في تلفونات، وكانت الحِلَّة في براءتها وعذريتها وبكريتها، بكرية الطبيعة الأم المّنسجمة بين البنى آدم والحيوان والنبات، مافي تعدي تكنولوجي مخيف، إلا ياها الحاجات البسيطة الما بتحتج عليهو الطبيعة، أو ترفضو أو تلفظو متذمّرة، لا في أمواج كهرومغناطيسية تأثر على المخ، إلا أمواج الراديو اللا بتهش ولا بتنش، ولا بتعرفها حتى أو تحس بيها لحدّي ما يستقبلها راديو عتيق في طرف كنتين أو من داخل حوش ناس فلان و علاّن، يا عند أبوي!.

هسي ما بقدر أقول عن نفسي والفت خلاص أو لقيت طريقة أنسى أو أغشّها وأقول إتعوّدت خلاص وبقى برنامجي عادي، على الأقل لاقي لي براح كويّس مع نفسي أفكّر بإرتياح لحدّي ما أحسم أموري وأرجع الخرطوم على بينّة، وأكون

عارف ومحدد سلفا أنا ماشي أعمل شنو، وخطوتي الجاية شكلها كيف، وأواجه مصيرى بشجاعة وأولهم شكل نهاية علاقتي بمها.

سابع يوم في الحِلَّة، ونفس برنامجي الروتيني زي ما هو، ما إتغير فيهو شي يذكر لحدّي المسا، كنت صلّيت العشا ورقدت طوّالي، لمّن عاينت للساعة قبل ما أدقس كانت عاملة تسعة تقريبا، لمّن صحتّني أمي زي الساعة عشرة ونص بالله قمت مخلوع خلعة، أول مرة يصحّوني زي المواعيد دي، بقت لي غريبة وإحساسي بيها كأنها الساعة إتنين ونص صباحا، قبل ما أعرف القصّة عقلي كان بيستفسر وبسأل، من متين ناس الحِلَّة بكونوا صاحين لحدّي المواعيد الغريبة دي؟ لمّن شفت الساعة في الموبايل عشرة ونص، بديت إسترجع وسط نعاسي شريط منسي، حتى أنا زمان كنت بكون راجع زي المواعيد دي من النادي، يعني الدنيا من حولي زي ما هي ما إتغيرت، إلا ياني أنا الإتغيرت وبقيت أنوم مبكرّ:

– ألو..

– حسّو..

– إزيك يا عبدو..

– يا زول صوتك مالو تقيل كده، كنت نايم ولا شنو؟..

– آي والله يا عبدو كنت نايم..

– ياخ معقولة؟، بقيت تنوم من بدري؟..

– تصدّق بقيت أنوم بدري؟..

وقمت ضحكت قبل ما أواصل:

– بالله أخباركم شنو؟وعاملين شنو يا كرور، وكيف سوما وعمّي وعمّتي، كويّسين؟..

– والله كويّسين الحمدلله، عاين، أسمعني، عندي ليك خبر غريب يا معلمّ..

وأنا بتثاءب بيدي التانية وعيوني رجعت تطفي براها من جديد:

– قول..

– ما حتصدّق!..

– ياخ ما تقول ما تعلّني، أنا نعسان ياخ قربت أنوم ليك هسي..

– مها جاياكم بكرة!..

***

أصلو ما إتخيلت عبدو جادّي، قايلو بهظّر أو بيتعابط بهظار سمج، يصحيني نص الليل عشان يقول لي نكتة بايخة زي دي، لكن لقيت الزول جادي! قعدت أحلفّو أربعة خمسة مرات يقول الحقيقة وكان بحلف لي جادّي بربو إنو والله ما قاعد يهظّر!.

من لقيت الكلام جد، طبعا أوّل شي طار مني النوم، كيف يعني تجينا؟ سألتو أسئلة منكر ونكير، جاية كيف؟ وجاية ليه؟ والوراها الدرب منو؟ نص إجاباتو سمعتها والنص التاني سرحت منها، في النهاية قفلت التلفون وفضلت قاعد قبلي في السرير مدلدل كرعي!.

عقلي بدا يتنكّر لي، بدا يعيّشني في عالم تاني من الوهم، وإنو الحاجة السمعتها دي ما حقيقة، وما ممكن تكون حاصلة أو حتحصل، ما ممكن تكون مها جاية في الطريق، تاني أقوم أرجع أصحصح وأنفض حالة التغييب، لأ جاية وصحصح أحسن ليك وإتعامل مع الموقف، مها في السكة، ويقوم قلبي يضرب من جديد.

طيّب والعمل يا حسين؟ إيه الموقف الغريب ده؟ قدر ما إتصورت زمان مها دي تجي الحِلَّة لكن تصوراتي ليها كلها كانت لمّا تبقى عروستي مش حبيبتي، حلّتنا ما بتفهم في العلاقات الزي دي وهي فاهمة الحتة دي كويّس، المشكلة التانية والأكبر مافي زول ولا حتى أمي أو أبوي عارفين قصة حبي دي، اللهم إلا خالي، وخالي أنا بعرفو كويّس زول سر ما بتمرق منو كلمة ما عايزو يمرقها، طيب أنا حأتصرف كيف؟ أضرب لخالي هسي؟ حسيت بيها بايخة، الوكت ما مناسب، ناس البلد ديل كلهم بنوموا بدري! فكّرت شويّة في الموضوع ورجعت رقدت بعد ما وصلت لحل شكلو معقول، وإن كانت نتايجو غير مضمونة، المهم هسي حأخت تلفون أمي تحت المرتبة لحدّي الصباح والصباح رباح.

صحيت الصباح مغلغل بعد ما تورتني الشمس، نومتي كانت متقطعّة ومليانة كوابيس، قمت بتثاقل، مشيت إستحميت وإتسوّكت وجيت صليت الصبح بعد ما الشمس مرقت، لقيت أمي وأبوي قاعدين كالعادة جمب المّنقد يشربوا في الشاي، سلمت عليهم وقعدت جمبهم أكب من ثيرموس الشاي ببطء، أول زول إتكلم معاي كنت أمّي:

– مالك الليلة النعلك ما عيّان؟..

كانت دايما مهجّسة بي، إسبوع بالتمام وهي لسّة ما مقتنعة.

– أنا كويّس يا أمّي ما عندي أي عوجة..

أبوي رماني بطرف عينو، كالعادة ما علّق.

– أمي، أبوي، عايزكم في موضوع ضروري..

أبوي خت الكباية بصوت عالي، شكلها فلتت منو، أظنو حّس يادوب إنتظارو المضني جايب همو وحيعرف الحاصل على ولدو شنو بالضبط، سأل على طول:

– خير يا ولدي؟..

إتلكلكت في الكلام في الأول، صراحة الموضوع كان صعب وأنا عارفو صعب، لكن كان لابد من المواجهة، كنت بعتبر نفسي زول مواجهة، شريط طويل من حياتي بحكي عن الحاجة دي أو زي ما أنا كنت بتخيّل، فهل أقوم أتخاذل هسي؟ ما إتعودت على كده وما ظنيتني أقدر، في النهاية ختيت نفسي أمام الأمر الواقع وحكيت، حكيت كل تفاصيل علاقتي بمها، كل الأحداث المرت معاي ولحدّي الحالة الجيت بيها البلد، وأخيرا، المفاجأة الغريبة، الزولة البحبها والخاصمتها، جايانا البلد!.

حسيت بأمي ذهللت وغلبها الكلام، أخدت ليها كم شهقة خلعة، أبوي الوحيد الكان مركّز معاي كويّس، ما كنت عارف بالضبط رد فعلو حيكون شنو لحدّي ما رد سريع بدون أي تردد:

– ومالو يا حسين، حبابها والله في أي لحظة البلد ترحب بيها.

ردّوا نزل علي بردا وسلاما، أكبرتو أضعاف مضاعفة في ننفسي، عيوني رقرقت وفلتت مني دمعة، دنقرت خجلان أدسها، لكن كان أبوي قبّل منّي غادي اللحظات ديك عشان ما يحرجني.

أمّي كانت بتحاول تكون متماسكة، لكن غلبها، كانت زي البتفكر بصوت مسموع، شكلو عندها رأي تاني،"سجمي سجمي"، تسكت شويّة، "الليلة حاجّة سكينة بت ضيف الله حتشيل حسنا وتاكل لحمنا!"، "ناس الحِلَّة حيقولوا علينا شنو؟".

قعدت أتخيل حاجّة سكينة، شايلة حسنا في كنتينها الضارب، وسالّة لسانها علينا وعلي بت الناس، غضبت في نفسي، إلا مها، كنت لسّة ما برضى فيها، مستحيل أرضى فيها، فجأة جاتني صورة التربالي في وشي بشنبو الغليد، حسيت بالإمتعاض، دي صورة زول هسي يزاحمني في مها؟ أو لازم يكون في واحدة زي حجّة سيكنية دي تعكر صفو الناس؟.

كنت بعرف حلّتنا كويس، فاهمها وشاربها شراب، وعارف مخاوف أمي وقلقها نابع من وين، أول شي حيعتبروا جيّة مها فيها جرأة ما مقبولة، تمرّد على قيود

مجتمع الحِلّة البسيط، أي نعم مافي زول حيجي يدق لينا الباب يقول لينا الكلام ده في وشنا، لكن حتلوكوا الألسن، في الحالة دي كبارهم على صغارهم، نسائهم على رجالهم، وحنسمعها همس وحنشوفها في حركات وشوشهم، وتقلّبات عيونهم، عشان كده كنت مقدّر قلق أمي.

في اللحظات ديك خطرت لي فكرة عجيبة في راسي عشان أمرق أمي من الحرج، قمت شرحتها ليها سريع قدّام أبوي ومشيت أفتش تلفوني وين عشان أنفّذها.

***

الفكرة كانت بسيطة ومريحة، خالي متعوّد كتير يجيب غربا للحِلَّة، زملاء وزميلات ومرات خبرا زراعيين أجانب يقعدوا معاهو بالأيام، بمشي يستلمهم من الموقف وكتير يمر بيهم على بيتنا في الأول قبل ما يمشي على مزرعتو، الحِلَّة كلها إتعودت على كده، يبقى مافي أي شي حيكون مستغرب لمّا يحصل نفس الشي مع مها، الحل ده ريحني كتير، والأهم ريح أمي لحدّي ما أساريرها إنفرجت وإرتاحت ورجعت عادي وبقت تستعد للضيفة الجاية تنزل عندنا بعد ما رفع منها الكتير من الحرج.

لمّن حكيت لخالي الموقف قعد يضحك، قال لي عايز تحب وتزوغ يا فردة ولا كيف؟ قال لي زولة زي دي متمسّكة بيك شديد ما تفرّط فيها لأي سبب من الأسباب، ما سألني نهائي عن أي تفاصيل بيناتنا، إكتفى بموافقتو على فكّرتي و وعدني حيكون معاي في الموعد.

فعلا في المواعيد البخش فيها بص الجكو، كنّا منتظرين أنا وخالي جوّة عربيتو، أول ما البص وصل طوّالي نزلت من العربية وبقيت منتظر، ونزلت مها بعد راكبين، منظرها وهي نازلة كان زي لوحة سريالية، أو حاجة من الخيال وقّفت الزمن قبلو، كل الصور من حولي إختفت إلا من مها وشعراتها الطايرة بنفور شايلها الهوا، أول مرة أشوفها ببنطلون من زمن، من زمن إحتجّيت عليها مرة في شكل تعليق إنو البنطلون بخصم من البت جزو من أنوثتها، ونسيت الملاحظة دي، ونسيت بالمرّة إنها تاني ما لبست بنطلون لحدّي اللحظة دي، والغريبة نهائي ما حاسي هسي بالممانعة من الملاحظة القلتها ليها زمانك ديك.

كانت لابسة بنطلون جينز كحلي على بلوزة بيضا موردة باللبني، راسمة قوامها الرهيب، ومطقّمة سير الساعة الأسود مع جزمة سودا لامعة قدرت تقاوم

كتاحة الطريق، وكالعادة، أسورة خفيفة بدون تكلّف زي عوايدها، وأجمل ما فيها كانت عيونها، وإبتسامتها الساحرة الرمتني بيها أول ما وقعت عيونها علي.

حسيت بنفسي منهار، من أول نظرة بس من عيونها الساحرة كسرت كل مجاديفي، إستسلمت ليها، طفا حبها زي المارد الكان محبوس في عمق أعماقي السحيقة، مسح كل الأفكار الكانت في راسي كل الإسبوع المضي في لحظة خاطفة، وحسيت برغبة شديدة إني أجرى عليها أضمّها وأحضنها، لكن إتمالكت نفسي، ومشيت عليها بخطاوي هادئة، ولسّة المشهد بيني وبينها بس، والعالم كلو كان لسة مختفي من حولي ومن حدقات عيوني، كل شي غيرها عدم، ختيت ليها أعذب إبتسامة ممكن أبتسمها، إبتسامة طلعت عفوية، وعيوني رقرقت بعفوية برضو، لكن غالبت دمعي ما يتساقط ويفضحني، لأني لسّة في الحِلَّة، ودي زولتي المّا حأقبل فيها كلمة من أي زول حولي حتى لو من ناس حلّتي.

سلّمت عليها وأنا كابت إشتياقي، كان ماليني شوق الدنيا كلو في اللحظات ديك، لكن يا دابي كنت إنتبهت لهاني، لو ما هو القال لي السلام عليكم ما كنت حأجيب خبرو، ما كان قلعت عيوني من عيونها، رحبت بيهم شديد وأنا شاكر ليهم جيّتهم حلتنا المتواضعة، هاني كان بيتلفت يتفرج في الحِلَّة، بعاين في بيوت الطين المبنية بإخلاص وبعضها ملوّن بألوان زاهية، والرمال النضيفة تحت الكرعين كأنها سجّاد مفروش، أما مها فكانت عادية، أنا بعرفها لمّن تكون عادية، ممكن بتكون بترصد كل صغيرة وكبيرة بدون ما تلفت نظر أي إنسان، عرفتّهم بخالي وركبنا طوّالي بعد ما رفعنا شنطهم الصغيرة.

***

كانوا مقررين يرجعوا تاني يوم الصباح طوّالي، وما كان في طريقة أقنعهم يقعدوا يوم زيادة، عشان كده ما ضيّعت زمن، خالي كان ساق هاني بعد الغدا مرقوا سوا على مزرعتو، وأنا قلبي كان بضرب وأنا مارق مع مها لافّي بيها حولين حلتنا الصغيرة، كأني أحب لأول مرة في حياتي، مها كانت حلوة في بساطتها، في إبتسامتها المّا بتفارق شفايفها، كنت لافّي معاها لكن هي السايقاني، هي الكانت بتسمّع لي تفاصيل حلتنا وتأشر عليها، داك نخيل ناس فلان وفلان الحدثتني عنهم، ومفترض يكون النادي من الناحية ديك عكسو.. أهو.. أيوة، هداك!، وأنا أبتسم بسعادة، فرحان زي طفل.

وترجع تواصل، مفترض داك يكون بيت ناس سعاد بت ود الحسين محل النيم الكتير داك، وأنا أهز ليها راسي للتأكيد، ولو عكسنا إتجاهنا ودخلنا بالزقاق داك مفترض والله أعلم يكون كنتين حجة سكينة، قمت قاطعتها "أطرينا بالخير"، وضحكنا سوا، أخيرا قلت ليها لازم تمشي تشوفي النيل قبل ما الواطة تضلّم، فعلا إتجهنا وسط المزارع على النيل في صمت، كنت سعيد، مبسوط، ماشي على أطراف أقدامي، ما حاسي بمقاومة الرّمال تحتي، حاسي بإنسجام خطواتي في الرمل مع خطواتها، كانت بتتعثر مرّة مرّة، تتّكي على حافة يدّي، أساعدها بحبور، أترفّق بيها في مشيتها، لحدّي ما وصلنا النيل.

منظر النيل كان رهيب عند الأصيل، مما جيت الحِلَّة ما جيت عليهو، بكل بساطة قعدنا جمب بعض مقابلنو، بدت تلقّط في حصحاص وترميهو في الموية، مرق صوتها زي نقع الحجّار البترميها في النيل:

– كنت متخيّل إني حأتخلى عنك مثلا؟..

كنت عارف الكلام مصيرو حيجي، لكن كنت مستسلم بشكل غريب، وما عندي أدنى رغبة في المقاومة:

– مها..أنا..

– ما تقول حاجة يا حسين، يكفي تعرف أنا سعيدة ومبسوطة قدر شنو معاك..

– والله يا مها إمكن ما أكتر مني..

– كان في راسي كلام كتير عايز أقولو، لكن أفتكر خلاص، الفي راسي كلو وصلك..

– وصلني وبالزيادة كمان، ومتأكد برضو عرفتي ردي عليهو..

عاينت ليها وأنا مبتسم، ردّت على إبتسامتي بإبتسامة أجمل منّها وهي بترميني بحنان دافق ما طبيعي من عيونها، كان ده أقصر عتاب لأفظع أزمة حب بيناتنا، كنّا حلّينا كل مشاكلنا في لحظة إنسجام واحدة، جلسّة واحدة قدّام النيل الخالد. ما أظن ممكن يكون في أي تفاهم أكتر من كده، وده براهو دليل على عمق إرتباطنا ببعض وكفى، أخيرا همست لي بصوت واطي وفي همستها جدّية وصرامة رغم رقتها:

– تاني أوعك تكرّرها!..

صمتّ، ما رديت، ما محتاج أرد لأنها عارفة الإجابة سلفا، ربما عارفة دي برضو لكن قلت أقولها للضمان:

– أنا من هنا وماشي ألاقي خالك، وأعرفي إني حأنتصر يعني حأنتصر، زي ما عارفة إنها مقابلة ما بتقبل المساومة أو الإنسحاب أو الخسارة..

ضحكت ضحكة حلوة رنّانة، ضحكة هادئة وظريفة، كانت بتدل على ثقتها، ختمنا بيها جلستنا وبقينا راجعين على البيت، لأنها كانت بدت تمغرب!.

***

بعد يومين دقشت براي على البحر، قعدت في نفس الحتة القعدنا فيها أنا ومها، بقيت أعاين للنيل الخالد، رغم كل المحن وعوامل الزمن بظل صامد، ما غيّر يوم إتجاهو ولا إنحنى قدّام المحن ولا هادن، كيف يهب الحياة لمئات السنين؟.

أنا بالنسبة ليهو مجرد عابر طريق، مهما وقفت قدّامو مصيري أمشي أخليهو، وحتى لو جيتو راجع باكر أكيد حألقاهو، زي ما هو، لا إتغير ولا فكّر يساوم، أخ لو بس أقدر أسمع نصيحتو، وأستقي من حكمتو، وأحسم معاهو باقي أموري وخياراتي التايهة، ما هي بالشي المختلف عن باقي خيارات الشباب عادة، البختلف إنها خطاوي حأمشيها مع زولة في حياتي، والزولة دي من دون كل ناس الدنيا إسمها مها، بقى دربي فيهو أترين، أترى وأترها معاي جمبي.

يا إما أرجع وأستقر في البلد، لأنو خالي عبدالقادر كان مصرّ إني أرجع أشتغل معاهو، وسّع مزرعتو وبقى ينتج كتير، وإنتاجو بقى يصل لحدّي الخرطوم، فبقى محتاج ليهو شريك، لازم، فعايزني أكون أنا الشريك ده، والنص بالنص، خاصة مع مشاكل العطالة الحاصلة في البلد، لو بقيت على الخيار ده، فأكيد إستقراري حيكون سريع، وحأتزوج مها في أقرب فرصة، وحتكون معاي رفيقة عمر في البلد، ربما إلي الأبد.

يا إما في أقرب فرصة، أهج من البلد كلها وبكل ما فيها، حتى إنت يا نيل حأفارقك، وألحق ركب المهاجرين، وفي السفر طبعا تجارب وخبرات وفوائد، لكن كده بكون دخلت مغامرة ما عارفها حتطول قدر شنو، وأنا وراي زولة راجياني، وحتهاتي بي ليل نهار لحدّي ما أقدر أكوّن نفسي وأعزها بعرس يليق بيها.

أما الخيار التالت والأخير، هي إنو أستقر في الخرطوم، أستفيد من علاقات خالي وعمّي وكمان علاقات أبوها، ممكن الإتنين نبدا رحِلّة كفاح، عارفين حتكون صعبة جدا، لكن ما ناقصنا الدافع، وعندنا المقدرة على التحمّل، الواسطة حاجة

بكرها جدا جدا، لكن لو بقيت على الخيار ده فلا بد من صنعاء، وإن طال السفر، مها زولة واعية، وبتفكر بإتزان، لكن كانت دايما بتقول لي إنت إنسان قلق، ولو ما حدّدت خياراتك براك، حتتعب وتتعبني معاك، لكن أي حل تبقى عليهو، أنا معاك فيهو قلبا وقالبا، وبساعدك بأي حاجة بقدر عليها، بس إنت حدّد!.

باقي علينا تلاتة شهور بس ونبقى على وش التخرّج، لمّا أسترجع شريط ذكرياتي وأتأملو، مرّات بفكّر كان حيحصل شنو لو عمّي ما أصرّ علي أواصل قراية؟ شكلي كان حأكون مزارع بسيط في حلّتنا، حأكون مع أبوي في الزراعة، ومرّة مرّة مع خالي بهناك، ويوميا في النادي بالمسا مع حقة تمباك كاربة ما تديك الدرب، نلعب كشتينتنا ونتشمشر في الحِلَّة وخباراتها، ننافس فيها كنتين حجّة سكينة ذاتو، لا في مها لا في أتيم ولا في عبدو، إحتمال كبير ناس عمّي ذاتهم أتعرّف بيهم ورا بعد أبدا أسافر براي أو مع خالي للخرطوم نشوف إحتياجات الحِلَّة ومزرعتو.

هو الإختلاف الوحيد الشايفو هسي بعد رحلة السنين الطويلة دي، وأنا بعاين للنيل قبل ما يختفي ويتبلع تحت جنح الظلام، إنو برغم التغييرات الكتيرة الحصلت معاي، الحصل إنو أنا طلعت من حِلَّة صغيرة لحِلَّة أكبر، وإذا محتاجين دليل أهو النيل قدّامكم حتى أسألوه، مش ياهو النيل الهنا نفس النيل هناك؟ رغم الحجم المهول للخرطوم وشرّتها على نطاق دائرة واسعة نصف قطرها تقريبا خمسة وأربعين كيلومتر في كل إتجاه، في كل إتجاه شنو ياخ. أمدرمان دي هسي براها بتكون عملت ليها ستين كيلومتر، المهّم إنها لسّة عبارة عن قرية، بس قرية كبيرة جدا، والقرية الكبيرة دي، وبحكم حجمها، ترهّلت فيها حاجات كتيرة. من ضمن الحاجات دي عاداتنا وتقاليدنا وموروثاتنا الثقافية والإجتماعية الكانت صغيرة وضيّقة علي قدر حالنا في الحلة، مش ياها ذات نفسها بصمّة خشمها هناك؟ لكن بس بشكل أوسع شويّة. أمسكوا حتى الشمار ياهو نفس الشمار، الإجتماعيات ياها نفس الإجتماعيات، بما فيها القطايع والقوالات، لا فايتانا هنا لا فايتانا هناك، حتى نوم الحيشان، طيب المافي شنو؟ ممكن تزيدو عليها كوز كوزين من التعب والرهق، ومساسكة المواصلات في الخرطوم، وطول المسافات وتشتت الناس في أصقاع بعيدة ومتفرّقة!.

والما بنرضاهو هنا، ياهو الما بنرضاهو هناك، لو كانت الخرطوم غير، أو غير ذات القرية، مؤكد نصّها حتصيبو صدمة حضارية، ونص النص التاني حيكون

في التجاني المّاحي، والباقي أهو، حيكون عايش، والسبب، لأننا ما بنقدر نعيش خارج نطاق مفهوم القرية، وياني لمّن جيتها، كل الحصل إنو الخرطوم زادت نفرا!.

***

النهاية

هوامش على جنب /

(1) الحِلَّة: تعني القرية الصغيرة، وأحياناً تطلق على الحي من المدينة.
(2) حَلَّة: بفتح الحاء، وتعني الوعاء أو المّاعون الذي يستخدم للطبخ.
(3) العرّاقي: جلباب منزلي أخفّ من الجلباب السوداني الشهير.
(4) الكوز: يطلق على كوب معدني له مقبض يستخدم لشرب الماء، وتطلق نفس التسمية على علب الصلصة الفارغة التي تجعل خلف مروحة ماكينة الشاحنة لإصدار نغمات بترددات مختلفة حسب سرعتها.
(5) المعصعص: الشديد النحافة.
(6) ظاهرة النوم في الحيشان ظاهرة صحية منتشرة في ريف ومدن السودان.
(7) التكل: يطلق علي المطبخ في الريف شمالي السودان.
(8) الصعوط أو التمّباك نوع من التبغ، يزرع محلياً بغرب السودان يحتوي على النيكوتين، يستخدم في شكل عجينة توضع في الفم بين اللثة وصف الأسنان.
(9) السليسيون: مادة تستخدم في ترقيع إطارات الدرّاجات، لها تأثير على العقل إذا إستنشقت بتركيز.
(10) قطاطي جمع قطّية وهي غرف دائرية الشكل تبنى من القش ولها سقف مخروطي حاد.
(11) نار التقّابة نار تشعل بالحطب يقرأ على ضوئها طلاّب العلم في خلاوى القرآن.
(12) المضبقة، حافظة نقود نسائية قديمة شبه مندثرة، تصنع من الجلد الطبيعي تشتهر بحملها الجدّات قديماً، تتدلى تحت مستوى الصدر تربطها سيور طويلة تلتف حول الرقبة تصنع من الجلد أيضاً.
(13) الشربوت مشروب بلديّ هاضم يدخل في مكوناته التمر والعديد من البهارات. يصنع أيام عيد الأضحى المبارك.
(14) يطلق البحر على النيل.
(15) ميطي: عاري الجسم بدون أي قطعة ملابس.
(16) الدّابي تطلق على الثعبان.
(17) محرّفة من الكلمة الإنجليزية Preliminary، وتعني الطالب الجديد بالجامعة في مرحلته التمهيدية.
(18) شارع المين، محرّف من الإنجليزية الـ Main Road، وهو الشارع الرئيس بمباني الجامعة الرئيسة.
(19) من ضمن أشجار عديدة أستزرعت بواسطة المستعمر الإنجليزي بالجامعة، وشارع النيل، ووسط الخرطوم.

الفهرست

Khartoum Nafar

Sami Hegazi

